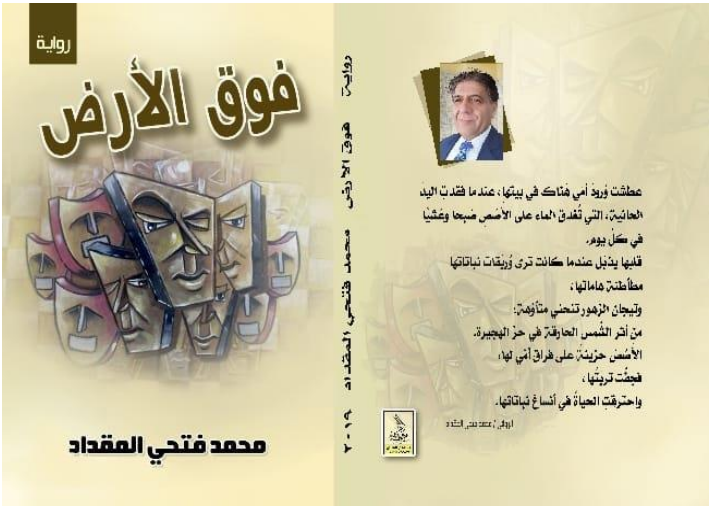

فـوق الأرض

رواية

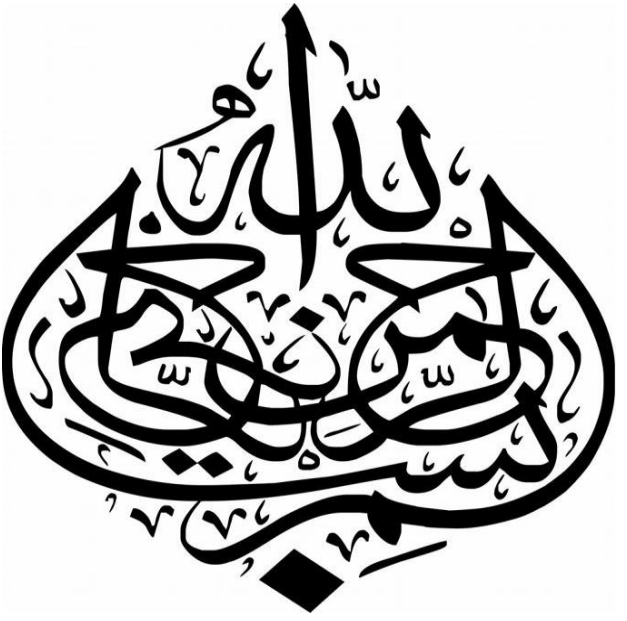

محمد فتحي المقداد

فــوق الأرض

رواية

||٢٠١٩||

التصنيـــف

الرواية العربية \ العصر الحديث

اسم الكتاب \ فوق الأرض

المؤلف \ محمد فتحي بن قاسم المقداد

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
المملكة الأردنية الهاشمية
(٢٠١٩\٤\١٧١٧)

ردمك (٤-٢٥٨-٦٧-٩٩٥٧-٩٧٨) ISBN

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

❖❖الطبعة الأولى❖❖

يتحمّل المؤلّف كامل المسؤوليّات القانونيّة عن محتوى مُصنّفه، ولا يعبّر هذا المصنّف عن رأي دائرة المكتبة الوطنيّة، أو أيّة جهة حكوميّة أخرى.

❖ لوحـة وتصميم الغـلاف: (الظلّ الأبيض)، للفنان التشـكيلي (عماد عبدالله المقداد).

❖ و كلّ الشّكر موصول لكلّ الأحبّة، والأصدقاء بأدوارهم مع حفظ الألقاب؛ بإسداء النّصيحة، والرأي السّديد، والمُقترحات الوجيهة، والمتابعة، والمُراجعة، والتّدقيق. تحيّاتي للجميع.

لأمّي ألفُ مُعجزةٍ كمَا الأنبياء
لنـا الأرضُ تَحتَوينـــــــــــا
ولها الكونُ فسيحًا ، والسّماء

الشّاعر \عبدالرّحيم جداية

(١)

التُّهمُ تلاحقني، تمنيّتُ أنْ لا يُلاحقني أحدٌ في حياتي، القلقُ.. استوطن بواطني على مدار السّاعة، تتكدّسَت حياتي، غادرتني السّعادةُ ربّما إلى الأبدِ، فكم من عُمرٍ سأعيشُ حتّى أعودَ إلى الطّمأنينة من جديد؟.
يا إلهي ..!! ما الأمر؟.
لماذا أنا بالذات من دون البشر جميعًا؟.

أصدقائي ينعمون بالهدوء في حياتهم العامّةِ والخاصّة، هكذا بدا لي. أنا لم أسألهم عن خصوصيّاتهم، لا أحبُّ التدخّل في مدار أحدهم، لأنّي في غنًى عن الوُلوج في دهاليزه المُعتِمَة، أظنّ أنّ إفرازاتها غير سارّة على الإطلاق؛ فكما لا أُطيقُ من أحدٍ الاقتراب من خصوصيّاتي، لذا أبتعدُ بالقدر المطلوب عمّا يُسيءُ إليهم.

حقيقةً.. أنا وحيدٌ في محنتي، استغرقني تفكيرٌ مُطوّلٌ، مُسبّبات النّكد والتّنغيص كثيرة، أصابني مَيْلٌ عارمٌ إلى العُزلة بحثًا عن شيء ما أجهلُ طبيعته، منحنياتٌ كثيرة استنزفت طاقتي، تجاعيدُ غير محسوبةٍ رافدة للمُنحنيات في نفس المسار، تؤلّبُ بعضها بعضًا مُتكاتِفَةً، كأنّ المصلحة قادتهما طوعًا أو كرهًا؛ للجمع بينهما بِسِيَاقٍ مُنتظمٍ مُتّسقٍ بأهدافه المباشرةِ وغير المباشرةِ، كما في أسباب حملة (نابّليون) على مصرَ وبلاد الشّام، التي حفظتُها عن ظهر قلب من كثرة تِردادها وإعادتها؛ لتصطدم بأسوار (أحمد باشا الجزّار) الحصينة حول مدينة عكّا التي أفشلت الحملة، وغيّرت مسار التّاريخ.

❖❖❖

كانت الصّدمة قاسية، أحالتني إلى التعمّق في التفكير؛ لِيكون القرار باعتزال السّاحة الفسيحة لمحيطي الاجتماعيّ، والدّخول في عُزلةٍ اختياريّةٍ منّي، ربّما تستغرق زمنًا، لا أدري هل ستطول أم لا..!! وقفتُ

على جنباتها عازمًا على الرهبنة في صومعتي، استبدلتُ الستائر بأخرى سميكة قاتمة الألوان؛ ليطمئنّ قلبي، أنْ لا أحدَ يتلصّصُ عليَّ، ولا يَصدُر من خلالها الضوءُ ليلًا إلى الخارج، أخاف حماقَتي في صَدّ أحد الأصدقاء إذا ما حدّثته نفسه بزيارتي؛ ليشكوَ لي همومه مع حبيبته؛ أو ليقضي ما تبقّى من سهرته عندي بلا هَدَف إلّا الثرثرة المعتادة التي مَلَلتُها. ليس لديّ استعدادٌ للدُّخول في مغامرة كهذه غير مأمونة، وهي تقطع عليّ مسار مُراجعاتي لأوراقيَ الذاتيّة.

هذه المرّة أحاسيسي مُختلفة جِدًّا، شعرتُ بأهميّة الوقت، وكان عليّ عدم إضاعة دقيقة واحدة، عندما قرّرتُ كتابة هذه الرواية "فوق الأرض".

قَصدتُ إشاعة خبرَ سفري خارج البلد؛ لأقطعَ الطريق على من تُسوّل له نفسه بلقائي، لكن لم أُفصِح عن وجهتي المقصودة؛ ليلتفّ الموقف بضبابيّة؛ تكون لي ستارًا أختفي خلفها بأمان.

❖❖❖

نسيتُ شيئًا مُهمًّا، لا يمكن تنفيذ خُطّتي، إلّا إذا اتّخذتُ قرارًا مصيريًّا بإغلاق الهاتف النقّال؛ تلك اللّعنة الخارقة تنتهكُ خصوصيّتي ليل نهار، بفجاجة وَقِحَةٍ دون رادع أو استئذان، رَنينُه لا يتوقّف على مدار السّاعة، يجعلني مُتوتِّرًا، وأنا أتوقّع في أيّة لحظة اختراقها لحاجز الصمت، وتعكير صفو هدوء طالما حَلُمتُ به، بعيدًا عن المنغّصات المتوالية

بتوارُدِها حاسدة عُزلتي، وتُجبرني أن أتوقّف عن التأمّل، والتفكير فيما أنا بصدده، كثيرًا ما ألجأ للكذِبَ على الشّخص المُتّصل بي، وهو يسألني: أضطّرُ مُجبَرًا، لإجابته بأنّني مشغولٌ أو مسافر، ولا أظنّ أن اللّه سيؤاخذني على ذلك.

لا أدري حقيقة، إن كان قد صدّقني واكتفى بإجابتي. يا وَيْلَتَاه ..!!، إن اكتشفَ كِذبَتيَ البيضاء التي لا تضرّ ولا تنفع، لأنّها في نطاق دائرتي الخاصّة.

بعد كلّ اتّصال هاتفيّ، أجلسُ لمراجعة المحادثة، لأتعرّف على أخطائي التي ارتكبتُها كي أتفاداها في المرّات القادمة، وأعرفُ كيف سأدافع عن نفسي إذا ما عاتَبَنِي أحدُهم، أخيرًا جاءتني فكرة تسجيل مثل هذه المكالمات لأعيدَ سماعها، ومن ثمّ أعمل على تفريغها على الورق كتابة؛ علّها تكون نواة لرواية أخرى أوّلها كَذِبٌ، وآخرها كذب، ربمّا تفوز بإحدى المسابقات العربيّة أو العالميّة، وتحصد الجوائز والشهادات إذا ما أخذت المركز الأوّل.

يا إلهي..!!.. سامحني. كلّ شيء يمشي بالعكس ..!!، لا حيلة لي معهم. انتعاش سوق الكذب رائج على نطاق واسع في كلّ المجالات. والصدق بارت تجارته، وأغلقت أسواقه أبوابها بسبب الكساد. هل انقلبت الموازين؟. ألهذه الدّرجة وصلت الأمور؟.

❖❖❖

على غير العادة رنّ الهاتف النقّال عدّة مرّات، تردّدتُ كثيرًا في الردّ. كان صديقًا قديمًا؛ فمنذ زمن طويل لم يحصل بيننا تواصل، كنتُ في غاية الشّوق إليه، توكّلتُ على الله، وضغطتُ لفتح المكالمة.

- "وعليكم السلام، أهلًا، أخي إبراهيم، كيف أنتَ؟".

-إبراهيم: "أنا في غاية السّرور عند سماعي صوتك، بهذه النبرة المتفائلة".

- "خبّرني عن أحوالكَ؟".

- إبراهيم: "أنا ما زلتُ فوق الأرض".

- "فوق الأرض..، يا إلهي..!!، شيءٌ باهر يا إبراهيم".

غامت الدّنيا في عينيّ. كلام سمعتُ مثله كثيرًا، لكنّني في الحقيقة لم أعِ شيئًا بتفاصيله الدقيقة، أعرفُ أنّه تكلّم عن مشاريعه المستقبليّة، خاصّة زواجه الذي تأخّر عن موعده خمسة عشر عامًا.

ما إن قال: "وداعًا إلى اللّقاء".

ضغطتُ بإبهامي على كبسة الإنهاء للمكالمة، انتقلتُ من مكاني في صومعتي باحثًا عن قلمي، والورقة أُمسكها بيدي، مُنتقِلًا إلى التجديف في لُجّةٍ مُتلاطمةٍ من الأفكار الجنونيّة. غفلتُ عن محيطي؛ فلم أحفل بمنفضة السّجائر عندما ضربُتها بقدمي دون قصد وإدراك؛ فانتثرت محتوياتها على مساحة السّجادة التي اشترتها زوجتي لهذه الغرفة خاصّة ولم يمض عليها سوى شهر.

وقعتُ في شرّ أعمالي، لا أستطيعُ احتمال غضبها، سَدَدْتُ أذنيّ كأنّما بهما وَقَر، كرْكَرَةُ المكنسة الكُهربائيّة غطّت على بَرْبَرَتِها، وتذمرِّها من عدم انتباهي، وإهمالي المتكرّر لأوامرها، لم أُلق لها بالًا. تَبَلّمَ لِساني فلم أستطع الدّفاع عن نفسي بكلمة واحدة.

❖❖❖

فوق الأرض .. منذ متى، وأنا في حيرةٍ من أمري، أبحث عن شيء مجهول لا أعرف كُنْهَهُ، أو طبيعته، صُعِقتُ بهذه الكلمة. صرختُ بأعلى صوتي: "وجدتُها"، وأنا أتقمّص (أرخميدس)، وهو يصيح بلغته اليونانيّة: "يوريكا"، وأنا "وجدتها" أيضًا.

قالها هذا العالم اليوناني في القرن الثالث قبل الميلاد، عندما خرج راكضًا من الحمّام عاري الجسم، ويصرخ: "يُوريكّا.. يُوريكّا"، عندما خطرت له فكرة إيجاد حجم جسم ما بوضعه في الماء، فرأى أن الماء يفيض انسكابًا، وهو يستحمُّ في مغطس مليء بالماء تماماً.

والنّاس يضحكون ساخرين، وهم على يقين من جنونه، بينما جاءت صرختي مكتومة في حوزة صومعتي الصغيرة، لم أخرج عاريًا بل انتبهتُ من فوري لمزلاج الباب الداخليّ وقمتُ بإغلاقه، زوجتي تُدافع الباب، وهو مُستَعصٍ عليها، بينما تُنادي بعصبيّة نزِقة:

-"ما بك يا فطين؟، ماذا جرى لك؟، هل تريد شيئًا ما؟".

من وراء الباب، أجبتُها:

-"وجدتُها، يُوريكّا".

-"ومن هي التي وجَدَتها من وراء ظهري؟، ومن غير عِلْمي بذلك..!!. افتح الباب وإلّا كسرتُه عُنوةً. الغيرة تغلي في قلبها جعلتها تضطرب بانفعال عجيب، ومن هذه "يُوريكّا"أيضًا".

وأنا لا حيلة لي؛ فاحترتُ:

-"يا إلهي..!!، ما هذه الورطة التي جاءتني من حيث لا أدري؟، يا بنت الحلال، وجدتُ فكرة كنتُ أبحثُ عنها منذ سنة تقريبًا، والآن وجدتُها".

تراجعتْ بخطواتها تجاه المطبخ، وأنا أسمع كلماتها:

-"آه، ظننتُ غير ذلك..!!".

أزحتُ المزلاج. فتحتُ الباب، وأخرجت رأسي، يا زوجتي:

-"من فضلكِ فنجان قهوة من تحت يديْك الحلوين".

- "حاضر من عيوني، يا حبيبي".

❖❖❖

كلّ شيء هنا في الغرفة يبعث على الحزن، أتأمّل أشيائي الخاصّة بي تكسوها مسحة الكآبة. الضوء خافت نهارًا. تآلفٌ متناغمٌ بأطواره الغريبة مع فكرة الاعتزال، والانكفاء للدّاخل مُتقوقِعًا على ذاتي،

كأنّني في سُباتٍ شتويٍّ قاطع كلّ سُبل التواصل مع العالم خارج غرفتي، وقراري الأخطر على كلّ الصُّعُد هو إغلاق الهاتف النقّال.

عاثت يداي فسادًا في مكتبتي التي جمعتُها على مدار سنوات عمري في القراءة والمطالعة، اختلاطات غير مسبوقة أبدًا، طاولتي صديقتي الحميمة، تئنّ مما تحمل على ظهرها من أحمال كتُبٍ مُتراكمةٍ؛ عبثت بها الفوضى الخلّاقة المُقزّزة لزوجتي، ولا تفتأ تقريعي لومًا، واتّهامي بالإهمال المُتعمّد، مُضطّر لمسايرتها بالسّكوت أوّلًا، ثمُ أحلفُ لها أغلظ الأيمان ألّا أفعلها ثانية، قلبي يرفّ شفقة، وأنا جالس أحتسي قهوتي، وهي تدور من زاوية لأخرى، كالنّحلة نشاطًا على مدار ساعة كاملة تعمل على إعادة كلّ كتاب ترك مكانه على رفوف المكتبة. ماذا أفعل بِكَسَلِي وقلّة همّتي بمتاريس الكتب وأنا أختفي خلفها؟.

الجدران ذات اللّون الأبيض اللّامع، لاحظتُ مؤخّرًا أنّها تميل للاصفرار الغامق الأقرب إلى البُنيّ؛ أعتقدُ أنّ محرقة السّجائر اليوميّة فعلت فِعْلَتها التي لا تُمحى؛ وصارت شاهد عيانٍ على مرحلة فوق الأرض.

روائح عَفنٍ تزكمُ أنف كلّ من يدخلُ الغرفة للمرّة الأولى، ويحدّثُ نفسه ندمًا مُتمنّيًا أنّه لو لم يدخلها، ويتأفّف بقرفٍ ظاهر على تكشيرة وجهه. زوجتي هي الأكثر جرأة على الدّخول، تفتح الباب عُنوة عنّي لاتقيم وزنًا لاعتراضي الذي اعتادته على مدار سنوات، وعلى الأخصّ في هذه الفترة، وتُشرِعُ النّوافذ حتّى في أوقات البرد.

أحيانًا لا تتردّد في تشغيل المروحة السقفيّة؛ لتجديد الحياة، والسّماح بدخول الهواء النّظيف، وطرد الكآبة والروائح المُستوطنة فيها كما الكُهوف والمغاور، والخروج من تحت الأرض إلى فوق الأرض، ومن المغارة التحتيّة إلى رحاب العُلويّة الواسعة المُكلّلة بنور وضياء ودفء، كلّ ذلك يُحاكي روح زوجتي في محاولاتها الدؤوبة بجديّتها المُفرِطة؛ لانتشالي من أوحال؛ كأنّها تراكمت بفعل مئة سنة من العزلة، كما وباء الأرَق عندما ضرب أهل قرية (ماكاندو)، وسيرة آل (بوينديا) أصحاب ماركيز.

❖❖❖

الهاتف ساكنٌ كجُثّة هامدة. النّور خافتٌ. اختفائي لافتٌ. كثُرَت حولي الشّائعات ازدادت التساؤلات عنّي، زوجتي هي رائدي بالتواصل مع العالم الخارجيّ، كضابط ارتباط للبيت والأسرة. مشاقّ جديدة كابَدَتْها، وأعباء إضافيّة بشراء الأغراض والطّعام، وتدريس الأولاد بعد عودتهم من مدارسهم.

كلّ هذا يهون أمام كذبها المستمرّ في إجاباتها عن التساؤلات المُستفسرة بالتأويلات والتخمينات، اكتسبت مهارة الرُّدود المبتكرة في الذّوْد عنّي.

❖إشارة إلى رواية مئة عام من العزلة، للروائي الكولمبي جابريل غارسيا ماركيز.

عُقدة الذّنب صاحبتني لإحساسي بأنّني أنا الذي أجبرتها على هذا السّلوك المشين، إخلاصُها لقضيّتي، وتفهمها لوضعي، جعلها تُضحّي في كسب آثام الكذب التي تُعذّبها في بداية الأمر.

أعتقد أنّ الوضع اختلفَ لديْها إذا كانت عُقدة الذّنب تؤرّقها: "كلّه في حُبّك يهون"، تقابلني بعبارتها هذه عند كلّ طلب لي، وتزداد أرَقًا وتوتُّرًا عندما تلتقي أحد أصدقائي عن طريق الصّدفة أثناء خروجها من البيت، أو بالاتّصال عبر الهاتف الأرضيّ؛ للاطمئنان عنّي.

❖❖❖

من قمّة عوالم الألم، إلى قاع الفجيعة.

عجزتُ عن تجفيف دموع أمّي.

أوّاه يا قلب أمّي المحزون..

واحاتُ عمري ظمآى، تشتهي ارتواء فيض حنانها.

ليل الظالمين.. عليك اللّعنات ما أطولك..!!.

و أنتَ تُدمي قلوب الأمّهات السوريّات.

❖❖❖

دمعاتُها في ذلك اليوم كانت حربًا مفتوحة على القتلة باسم الوطن، أدرّت السّماء بفيْض جارف من دموعها، اغتسل بها شارع بُصرى الرَّئيس، فيما بين بُوابتها النبطيّة شرقًا والهوى غربًا، وما بين الشرق والغرب تكمن مُعجزتها.

جعلتني أُفرِدُ لها كلّ المناديل المعطّرة خيبة وخُذلانًا، أحزان الأرض كلّها تهيّجت من أجل وجهها المتلألئ الغائص في لُجَج الآلام على وحيدها "محمّد" من زوجها الثاني غير أبي، وأنا وحيدُها كذلك من أبي.. أمّ الوحيديْن.

أمّي يا خنساء.. قيل لك: "لا توفّري ولو جزءًا بسيطًا من بقايا دمعة مُتوارية هناك بين جفنيْكِ، خلف تلال عُمُر ضاع على عتبات الفرح، بل لم يدخل فُسُحاته الرّحيبة".

تعالي هنا. المكان يليق بك لتبكي في صومعتي.

تأكّدي أنّها لن تضيق بكِ ذرعًا، لو اجتمعت كلّ أحزان الدّنيا قاطبة بضجيج الآلام؛ فتبتلع أنهار الدموع، ولا تُبقي لها أثرًا، حالها كَحَالِ الأرض يوم ابتلعت مياه طوفان نُوحٍ في لمح البصر.

ابْكِي..، ولا تخشيْ أحدًا. أضمنُ لكِ ذلك؛ فلا لَوْمَ ولا عذل بعد اليوم، أتكفّل بتجفيفها جميعًا، ولن أقول لكِ: "كَفَى يا أمّي".

لن أُكبِّلَ دمعاتك..، ما يؤلمُني حقيقة، أنّكِ بَكيتِ وحدكِ، وأنا بكيتُ وحدي، لم يكن معكِ بَوَاكٍ ولا من يُهيّج البَوَاكيا.

الفجيعةُ فَطَرت قلبكِ..، أوّاه يا قلبكِ المسكين..!!، وَصلَكِ الخبر أثناء تواجدكِ في مخيّم الزعتريّ، وهو الذي سرق من قلبي القابع في صومعتي شرف احتضان دموعكِ يا أمّي..!!، تربتُه ارْتوَت من دموعكِ وحدكِ، بقيتِ تبكيه؛ فَوَصَل طوفان الدّموع إلى رحاب الكرك في جنوب الأردنّ بوُصولي إليها.

عطشت وُرودُ أمّي هُناك في بيتها ، عندما فقدتِ اليدَ الحانية ،التي تُغدق الماء على الأُصُصِ صُبحًا وعشيّا في كلّ يوم، قلبها يذبُل عندما ترى وُرَيْقات نباتاتها مطأطئة هاماتها ، وتيجان الزّهور تنحني مُتأوّهة؛ من أثر الشّمس الحارقة في حرِّ الهجيرة، الأُصُصُ حزينةٌ على فراق أمّي لها؛ فجَفّت تربتها ، واحترقتِ الحياة في أنساغ نباتاتها.

❖❖❖

يومٌ تتريٌّ كئيبٌ جاء على بُصرى بامتياز، هو أعظم همجيّة من أيّام العرب الأوائل الموصوفة بجنونها الدمويّ، ولن أمَلّ من حديث التاريخ، فمن لا يقرأ التاريخ، فمن أين يتأتّى له فَهْمُ الحاضر؟، ومن أوُتيَ فَهْمَ دروسه البالغة؛ سيكون ذو قدرة ودراية بدقائق صفحات الحاضر السوداء بقتامتها.

شآبيبُ الرّحمة عساها تُبلّل ثرى الشاعر (معروف الرّصافي)، وهو يقول:

(قد كان لي وطنٌ أبكي لنَكبَته

واليوم لا وطنٌ عندي، ولا سكن

ولا أرى في بلاد كنتُ أسكُنُها

إلّا حُثالةَ ناسٍ قاءهـا الزّمـن).

اجتياحٌ همجيّ غير مسبوق؛ كما بغداد تئنُّ تحت سنابك خيول المغول في سقوطها الأوّل، ودجلة ما زال شاهدًا على مَغُول العصر؛ ومغُوليّتهم المُفرطة، ولو مُلئت صُحُف الدّنيا كلّها كتابة؛ فإنّها لم، ولن تفي وصف ساعة واحدة من حياة البغداديّين في مرحلة (بريمر).

❖❖❖

استدار جنود حُماة الدّيار عكس اتّجاههم الأساسيّ هناك على الحدود، فوّهات بنادقهم توجّهت إلى الدّاخل.

حقيقة كنتُ أشكُّ في كلام الشّاعر (أمل دُنقُل) السّاحر عندما قرأتُه لأوّل مرّة. شريط ذكريات محفوظ في ثنايا بعيدة مخفيّة عن دائرة التعامل اليوميّ؛ كي لاتبوح بفضيحة؛ أُعاقَبُ عليها بهمة التّجديف ضدّ التيّار، وإضعاف الحسّ القوميّ لدى الجماهير، وروح المقاومة، هذه الكليشة الجاهزة كوصفة طبيب المُستوصف الحكوميّ، يُعطي دواء واحدًا لمعظم المرضى قبل سماع شكواهم. الدواء المُوحّد هو حبوب (الأسبرين) ملفوفة بقطعة ورق بيضاء على شكل قمع.

عندما أخلو لنفسي، وأنخلع عن محيطي؛ لأطمئنّ على أنّني في مأمن من مُخبرٍ حقيرٍ الإيذاء مزروع في دمه؛ يجوب الشّوارع يسمع ويُراقب؛ ليلتقط خبرًا ثمينًا له؛ أُدندنُ أعظم أغنية في تاريخ الثورة السوريّة على الإطلاق: "يا حيـف".

برأيي المُتواضع سيبقى الفنّان (سمير شقير) أيقونة زاهية ترنو إليها الأعيُن، والقلوب تهفو لنبراته ذات النبض العميق، وهو يهزّ أعماق الأعماق بصدق، وكلمة الحريّة تتراقصُ على شفتيْه هديرًا مُقلقًا لكلّ دكتاتور.

الحناجر لاتفتأ تلهجُ بها، الأطفال الصّغار حفظوها قبل الكبار. يا إلهي أأنا في حلُم أم في علم؟.

أهي نبوءة الشاعر (أمل دُنقل)، أم أنّها من إيحاءات (عبقر) المجنونة؟:

-(قلتُ لكم مِرارًا،

إنّ الطوابير التي تمرّ في عيد الفطر والجلاء – فتهتف النّساء في النّوافذ انبهارًا -

لا تصنعُ انتصارًا،

إنّ المدافع التي تصطّفُ على الحدود في الصحارى،

لا تُطلِق النيران إلّا حين تستديرُ للوراء،

إنّ الرّصاصة التي ندفع فيها ثمن الكُسوة،

والدّواء، لا تقتل الأعداء،

لكنّها تقتُلنا،
إذا رفعنا الصوتَ جهارًا تقتُلُنا،
وتقتلُ الصّغارا،
قلتُ لكم كثيرًا).

❖❖❖

أمّي يا وجع السنين.. ضاقت عليّ نفسي بأحمالها المُثقلة بأحزانها، فتحتُ نافذة غرفتي سمحتُ للهواء أن يخترقها؛ علّهُ يسحبُ منها شيئًا لا أرغبُه.
أصواتُ المارّة صارت مُحصّلة للوضع الجديد، زاحمتِ النُسيْمات في دخولها وخروجها؛ فأبعدتني عن عوالم عُزلتي الاختياريّة، شتّتَت أفكاري عن مُتابعة كتابة هذه الرواية "فوق الأرض".
أمّاهُ سامحيني إذا قلتُ لكِ:
إنّ دماء محمّد، ما زالت تُلوّن خزّان الماء تُلطّخ جُدرانه، تحكي قصّة غريبة من عالم الأساطير الإغريقيّة في نُسخة نيرون العربيّة، تُسجّل سابقة لا مثيل لها، يقف على شُرفَة القصرالجُمهوريّ يُقَهقِه، والشّام تحترق أمام ناظريْه. هَوَسٌ لا يُضاهى في إشعال المزيد من الحرائق.
دموعكِ وطنٌ أدمَاه أنينُ الجرَاح، دماء "محمّد" لعنةُ الشُّهداء تُلاحق المجرمين في ليلهم ونهارهم ستَلِجُ قبورهم، وتُحيلها نارًا عليهم، تستحيلُ

احتجاجًا غاضبًا كما فعل (سبارتاكوس) في إدانة المستبدّ ذلك الذي تربّع على العرش كأنّه قيصر روما.

❖❖❖

دموع أمّي أنستني التُّهَم الموجّهة إليّ، عادت لي ذاكرتي من جديد، كان عليّ أن أشُدّ عزائم ركائبي بالهمّة في محاولة جادّة؛ للخروج من النّفق الغاصّ بالسّواد، والخلاص من دهاليزه بالسّرعة الممكنة إن استطعتُ.

قاتل الله النسيان..!!، أنساني كُحْل أمّي، وهي تناديني: أن أناولها مُكحلتَها، تاهت بي الدّروب.

لن أنسى ثانية.

أيّها المُتَبتّل في محراب الحريّة.

أوصيكَ: أن تعتني بمكحلة أمّي، ولا تُهملها.

أجزمُ: أنّ فيها كلّ الأسرار، والحكايات.

أُؤكّد عليك مُستحلفًا لك بأعظم الأيْمان: دعها تحكي عن غواية كُحلها في عينيّ أمّي، يوم أن كانت الحياة مسرحًا للفرح والسّرور، واليوم دموعها تردّد بلا انقطاع: سيرة الوجع، وآلام فَقدِ الأحبّة.

النسيان كان آخر التُّهم التي طالتني من مُقرّبين وأباعد، ربّما من أصدقاء أو أعداء، من ذوي النّوايا الصّادقة أو المُغرضة، لا أستطيعُ

الجزم بأيّ شيء، وعلى رأي أحد الحكماء (إنّ كثيرًا من الظنّ ليس بإثم). كرامة للّه اترُكوني، يكفيني غرقي في دموع أمّي، وقلبها المكلوم. سأرجع إليكم ذات يوم كما اتّفقنا في آخر لقاء لنا، وكان أن تبدّد الحزن، وانقشعت غَمامته، فأحدثت فُرجة في الأفق، اتّسعت مدارات رؤيتي للأشياء من حولي، صدّقوني.. إنّنا جميعًا بحاجة ماسّة للنسيان، فلا استمرار لذاكرتنا إلّا بانحسار المعارف والمعلومات التي لسنا بحاجتها، يجب ترحيلها إلى ساحاتها الخلفيّة، واستحضار المهمّ منها، والأهمّ عند لزوم الحاجة إليه.

النسيان ضرورة حياتيّة لا غنى عنها، هل فهمتم مقصدي لتبرئة نفسي؟، مع ذلك حفرتُ قُبورًا دفنتُ فيها كلّ ما لا أرغبه، لمواصلة الحياة برؤية تفاؤليّة، وإزاحة النظّارة القاتمة عن عينيّ، وأنا أتخيّل من قال: (كنْ جميلًا ترى الوجود جميلًا). كم هي رائعة فتنة التفاؤل، عندما تسحب النّفس إلى ساحات الفرح. تساؤلي: "هل كان متشائمًا من قالها؟، وهل قالها لتبديد سوداويّته؟".

في رواية (المصابيح الزُّرق)، رائعة (حنّا مينة) الروائيّة، جاءت أوّل عبارة من تقديم (شوقي بغدادي) للرواية، استوقفتني، ظننتُ أنّني لن أستطيع مغادرتها إلى غيرها: (لا أدري، لماذا نكتبُ المقدّمات، ومع ذلك فنحن نكتبها).

❖❖❖

لابدّ لي من المغادرة سريعًا، لمتابعة المصابيح الزّرق بالقراءة، وإتمامها قبل نهاية الخريف خوفًا من تصفيات نهاية العام.

لا أكتمُكُم خبرًا أنّ ما حصل في العالم كان على سطح كوكبنا. بلا شكٍّ أنّ أحداثه وقعت فوق الأرض في الجمهوريّة العربيّة السوريّة على أيدي حُماتِها المُفترضين؛ بتحقيق موازين العدالة والرّفاه لمواطنيهم الذين أصبحوا مأساة العالم، ولم يحدث أكبر مما صنعوا من مآسي التهجير الجماعيّ بهذا الشّكل الذي سمعتم عنه، ورأيتموه على شاشات الفضائيّات؛ فكانت دموع أمّي بامتياز هي دموع كلّ الأمّهات السوريّات، و(بُصرى الشّام) الغافية على تاريخها في أقصى الجنوب، تحتسي آلامها. كابسة الملح على جُرحها الدّامي، الأنموذج لكلّ قرى ومُدُن سوريّة.

سيرة محمّد هو كَسِيرَة شبابها تتشابه معهم جميعًا. منذ ٢٠١١حتى انتهائي من كتابة كلماتي في نهاية ٢٠١٨ على وقع أنغام الخريف، وتلوّناته المثيرة لتعكير المزاج، وتعرية الطبيعة المحيطة من مظاهر الأبّهة، وتتهيّأ الأغصان المُعرّاة لشتاء قاسٍ، وتبدأ باستعداداتها لدورة حياتها المستقبليّة في ربيع قادم أتمنّى أن يزور بلدي، وتزهر الحياة فيه من جديد؛ فإنّ المأساة ما زالت تتفاقم، والعالم يتفرّج بأعصاب باردة؛ فقد كفرتُ بكلّ المدنيّة الزائفة، والتشدّق بمبادئ حقوق الإنسان التي

غادرت منطقتنا أبدًا، قبل الوداع أهلنا كانوا يقولون: (الطّينة إللي ما بتلصق على الجدار، تُعلّم فيه).

❖❖❖

أؤكّد أنّ دموع أمّي لم تكن وسيلة العجز بل ضريبة الأمومة، وآخر كلام قالته، أنقلُه عنها بالضبط. بعد أن كفكفت دموعها:

"دموعي غير قابلة للدّخول في مزادات المتسلّقين على الواجهات الإعلاميّة، حين صُنِع منهم نُجومًا مُلمّعة، على أن يكونوا واجهة للثورة وبديلًا عنها، وقيادة للمعارضة في وجه النّظام، وأرفضُ التّفاوض عليها، وستبقى لعنة للتّاريخ.

دم محمّد ما زال نديًّا في قلبي، والتُّراب الذي ارتوى منه أعشب، لو كان لي ألف محمّد، وكنتُ في مثل حالة أمّهات فلسطين؛ لجعلتهم جميعًا فداء للحريّة؛ فَهُنّ مَثَلي الأعلى هنا وهناك".

وعلى رأي (جورج أورويل) فإن: (بعض النّصوص، تضع دُبّوسًا في خاصرة الانتباه).

انتبهتُ من غفوتي على وقع استذكار كلام أمّي، بالفعل صدمني رأيُها الذي كان من العيار الثقيل، وقلتُ لها وقتها:

-"يا أمّي سيكون كلامك عقبة في وجه المستقبل بعد انتهاء الحرب، الذي يفرض على الجميع الجلوس إلى طاولة المفاوضات".

-: "وهل سنتفاوض مع مَنْ سفك دم محمد.. وبأيّ عين ممكن أن ننظر إليه؟ فإذا حصل ما قُلتَ، وقتها لن أتردّد في قبول زواجي ممّن قتلَ أخاكَ، ومن تزوّج أمّك؛ فسيصير عمّك". قالت رأيها بصراحة لا لبْس فيه ولا مجال للتأويل على أيّ وجه كان.

وقْعُ كلامِها في نفسي؛ جاء كأشهر تهديد في التّاريخ قرأتُه منذ زمن مضى، ففي العهد الأُمويّ، قتَلَ الشّاعر (هُدبة بن خشرم) رجُلًا، فجيء به للقَصَاص، وعَرَض أهلُ الشّاعر دِيّة ضخمة لإنقاذه من القتل حدًّا. وحصل أنّ أحد أبناء الرجل المقتول قد فُتِن ومالَ إلى أخذ الدِيّة، وكاد أن يُوافق؛ فقالت له أمّه:

(أقسم باللّه لئن قبلتّ بالدِيّة، لأتزوجنّهُ؛ فيكونُ قد قتل أباكَ، وركِبَ أمّك..!).

صواب رأي أمّي؛ حفر مسارب عميقة الأثر في نفسي على الأقلّ، وإن شاطرني الآخرون قناعاتي، ربّما تُطلَقُ عليّ صفات الجمود، والتخلّف والتعصّب والإرهاب، ومُعاداة الساميّة، وأُصْبِحُ خطرًا على السلام العالميّ.

ستأتي الأيّام عاجلًا أم آجلًا؛ لِتُعلن توقّف الحرب، ولابدّ من الجلوس وجهًا لوجه؛ هاهُم خصوم الأمس يتفاوضون. قاعات العهر الفارِهَة تجمع المتناقضات ظاهرًا، المُتوافقات سِرًّا.

وسيُضرب برأي أُمّي بعرض الحائط، ولن ينتبه إليه أحد ساعتها، لكنّ ذمّة التّاريخ ستبقى وَفِيّة لموقفها، دقيقة بحفظها واضحًا لا التواء فيه، غير قابل للتأويل على منحىً آخر.

❖❖❖

أغلقتُ نافذة صومعتي، أرخيتُ ستائرها عُدتُ إلى رُشْدي سحبتُ نفَسًا عميقًا. انتبهتُ لأوراقي وأقلامي مما أثار في دواخلي شعورًا بالرّاحة، صَمَمْتُ أُذنيّ عن تُرّهات المارّين جوارها. ما سمعتُه في تلك الليلة لم يتعدّ أحاديثهم الهامسة غلّفها الغموض. كلمة من هنا وأخرى من هناك غيبة.. نميمة.. تأوّهات أحدهم، وهو يقضم أصابعه كما "الكُسَعيّ" نَدَمًا على فَوْتِ الغدر بفتاة غَرّر بها أفلتت من بين براثنه ومكائده.

من المهمِّ لي احترامُ الموقف؛ بإفساح المجال لأبطال الرواية الآخرين، سأتأخّرُ خُطوتين للخلف بكلّ تواضع؛ لأستمع جيّدًا حتّى آخر كلمة يقولونها، ولن أتدخّل في مسار أحاديثهم، بل أنا مُؤتَمن منهم على تدوين ما قالوا بكلّ صدق، وشفافيّة إذا ما كلّفوني بذلك لتقصير منهم، أو أمرٍ طارئ خارج عن إرادتهم، والقارئ هو الحكم الوحيد الذي بإمكانه الدفاع عمّا قرأ إذا اقتنع بالفكرة وناصرَها أو عاداها، وفضح زيف كذبها على رؤوس الأشهاد في كلّ المنابر المُتاحة له.

❖❖❖

صومعتي (غرفتي) مُعتزَلي، تختزنُ حكايات وقِصَصًا تَئِنُّ دهشة، ومنها مما لا يُنظر له إلّا على أنّه تافهٌ مضحكٌ.

أربعة أمتار في أربعة طولها وعرضها، كانت فضاءً رحبًا اتّسعت للكون أجمع بأحلام وآمال البشر بخيرها وشرّها وفسادها وصلاحها. عُبورًا من امرئ القيس إلى الفيسبوكيّين. بيديّ هاتين صافحتُ الأنبياء والمصلحين والمُثّقفين.

صومعتي تحتفظ بما كتبوا على أرفُف خشبيّة مُتهالكة تئِنّ كلّ حين تحت وطأة أثقال الكُتُب فوقها. لا حيلة لها ولو أن تَتَمَلمَل تعديلًا وتحسينًا لوضعها، فتتحني متقوّسة فأُشفِق عليها.

ولماذا هي صبورة هكذا على وجعها؟.

ولماذالا تغادر موقعها بأن تتكسر، وترمي بحمولتها على الأرض؟.

ألتمس لها العذر المناسب، فالوفاء سِمَتُها مع الكتب التي تآلفت معها حدّ التطابق، فلا كتب بلا رفوف، الرّفُوف مساكن الكتب تتربّع عليها بشموخ وعزّة، تُغري النّاظر إليها بالتصفّح.

سرّ المكان جذّاب بسحره يُشبِع لديّ نَهَم القراءة؛ فليس اعتزالي للمحيط الخارجيّ ناتجٌ عن خلافات ومشّادات، إنّما التأمّل والقراءة تحتاجان للعزلة والهدوء، بدونهما لا تتحصّل لي المُتعة المرجوّة.

في كلّ يوم أكسرُ الروتين خوفًا من أن يجتاحني الملل.

بداية صرتُ أرجع إلى غرفة النّوم؛ أستعيدُ ذكريات سريري الأثير إلى نفسي. شيئًا فشيئًا عُدت إلى جزء من عاداتي اليوميّة قبل هذا الوقت، كنتُ أتناولُ الطّعام مع الأسرة ومداعبة الأولاد، وأستمعُ لمشاكلهم وشكاياتهم التي لا تنقطع. حدث لي إشباع مُؤقّت أصِبتُ بتخمة قراءاتي المستمرّة. تاقت نفسي للتفلّتِ قليلًا من سطوة الهَوَس للكتب ومُطالعتها.

ممارسةُ الحياة باعتدال ووسطيّة بعيدًا عن التطرّف السلوكيّ انغماسًا في رغبات وهوايات، تحفظ التوازن في روحي وقلبي باطمئنان راسخ. أحتاج ممارسة الاعتدال والوسطيّة لأتمتّع مُستقبلًا بسعة فكرٍ قابلٍ الاستماع للآخر.

❖❖❖

كُلّ اللّصوص تحرّروا في مَوْطِني
و الحُــرُّ فيه إلى المنافـي يُطــرَدُ
لا تَقرئــي الأنبــاءَ، رُبّ ســفينةٍ
تركــتْ بجُرحــي رحلةً تتنّهــــدُ

الشاعر\ محمد إبراهيم الحريري

(٢)

أسنَد نصّار ظهره إلى جدار الحُفرة الترابيّ؛ ليأخذ نفَسًا عميقًا، أنهكه العمل المُتواصل بشكلٍ يوميٍّ، أيّام عطلته الأسبوعيّة باتَت برسم ذكريات الماضي، منذ مقتل أخيه نادر الذي يصغره بأربع سنين، أثناء ذهابه للدوام في مديريّة كهرباء درعا.

نادر كان مُتفوّقًا بدراسته التقنيّة، عندما أخذ المرتبة الأولى على خرّيجي المعهد التّقاني، مُتخصّصًا بالبرامج الحاسوبيّة؛ فكان عَصَب قسم برمجة حسابات الفواتير، والعدّادات على مستوى المحافظة

بأكملها، مُتربّعًا على قمّة الهرم في مجاله، كما فَرَادته بمُستواه الأنيق في دماثة خُلُقه. معطاءٌ بلا حدود دؤوبٌ مُجِدٌّ بعمله مُتفانٍ في خدمته للجميع بدون تميّيز.

يا سُبحان الله، وكأنّ من قال: (أنّ لكلّ شخص من اسمه نصيب)، قصد بها نادر بمظاهر جسمه النّاعمة،وقامته المتوسّطة طولًا على خلاف أخيه الأكبر نصار بجَهَامة جسمه الضّخم، وبياض بشرته، وملامح وجهه المؤنسة موحيةً بالطّيبة والبراءة، فضلًا عن توقّد عينيْه العسليّتيْن تنطقان عن دواخله النّاضحة طيبًا واستقامة وذكاء مميّزًا.

❖❖❖

عندما تعرّض (باص السّرفيس) المتعاقد مع مديريّة الكهرباء لنقل موظّفيها إلى دوامهم اليوميّ، لرشقات رشاش مُتواصلة خرجت من مساكن الجيش الجاهزة في (صيدا)، شرق مدينة درعا بإحدى عشر كيلو متر.

اتّخذ نصّار قراره بالانشقاق عن النّظام استجابة للدعوات القويّة الصادرة من مختلف الهيئات المُنادية بأعلى صوتها في وجه النظام، الدّاعية والدّاعمة للثورة، رغم أنّه لم يأبَه لهذه الأصوات بداية، ولم يُلق لها بالًا من قبل، مَثَلُه كمَثَل كلّ الموظّفين ذوي الدّخل المحدود، مُحاولين قُصارى جهدهم، وبحرصٍ شديد تأمين لقمة الخبز لأطفالهم

وعيالهم، مُتشبّثين بحُبّهم للحياة الهادئة بعيدًا عن المشاكل، حتّى وإن كانت بأدنى درجاتها؛ ليقينهم الرّاسخ أنّ الأمور لم تكن لتطول أكثر من بضعة أشهر، وتعود الحياة طبيعيّة لسابق عهدها الهادىء حدّ رتابة الرّوتين المُملّ.

❖❖❖

هتافات المظاهرات بشعاراتها المناهضة للنّظام بسقفها العالي بمطالبها الضروريّة لاستمرار الحياة الكريمة كما البشر.

-"حقيقة أراها بأمّ عينيّ، أكادُ أشكّ أنّها فوق الأرض". نصّار مُحاكيًا لنفسه كلّما سمع الهُتافات، الحريّة والانعتاق من قبضة الأجهزة الأمنيّة السّافرة الخانقة لمنافذ الحياة اليوميّة على مختلف الأصعدة؛ فبدل أن كانت في البداية المطالبة بعزل المسؤولين في درعا عن مأساة اعتقال الأطفال، وموتِ أحدهم تحت التعذيب.

صمّوا آذانهم أمام إصرار الأصوات المناهضة، ضاربين بعرض الحائط أعداد المحتجّين الذين راحت أعدادهم في ازدياد يومًا بعد يوم.

تتعالى حناجرهم يوم الجمعة على وجه الخصوص بهتافات طاولت عنان السّماء، وأكبر الظنّ أنّ صداها لم يُلامس آذان المسؤولين. بينما حافَظَ نصّار على حياده لبعض الوقت، لم تطُل المُدّة لأكثر من شهرين؛ حينما قَضَى أخاه نادر شهيدًا، عندما كان في طريقه إلى دَوَامِه في المدينة، وامتصّ اسفنج كرسيّ (باص السّرفيس) دَمَه الذي انفجر من جانب

قلبه. فارق الحياة بعد مئات من الأمتار، تابع (الباص) مسيره ناهبًا الطريق مع ازدياد وتيرة سرعته. الخوف تَلبّس السّائق. يداه ترتجفان بحركات ظاهرة لم يستطع السيطرة عليهما. عيناه زائغتان. رأرأتُهما غير خافية على من يُطالع قسمات وجهه، التوتّر بادٍ على جميع الموظّفين.

صاح به أحدهم بصوت مُضطرب خائف:

-"تابع سُرعتكَ أكثر فأكثر ولا تتوقّف؛ فنموت جميعًا".

وبعد أيّام ارتقى أحد أقارب السّائق شهيدًا، كان ضمن مجموعة من الشباب ذهبوا إلى المدينة؛ للمشاركة في مظاهرة يوم الجمعة، تأييدًا ومؤازرة لأهل درعا بعد اقتحامها.

صرّح نصّار لبعض أصدقائه المُقرّبين، ومنهم على وجه التحديد فاضل السّلمان. ذات جلسة سابقة قبل عدّة أشهر:

-"أحاول جاهدًا الاحتفاظ بمسافة فاصلة بيني وبين المظاهرات، مُفضّلًا عدم الاقتراب منها؛ لتستمرّ بي الحياة فوق الأرض، تحت أشعّة الشّمس. فمنذ بداياتي، وبعد انتهائي من المرحلة الثانويّة انتقلتُ إلى دمشق لدراسة الحقوق والقانون في جامعتها، ولم أُتقن في حياتي غير حَمل كُتبي وشغفي بالقراءة إلى أن أنهيتُ دراستي، وتخرّجتُ في قسم الحقوق، وبعدها كما تعلم تقدّمتُ للمُسابقة التي يتمنّاها معظم الشباب، ومن لم يكن من أصحاب المعدّلات العالية؛ فعليه دفع الرّشاوي لأصحاب الواسطات؛ للحصول على هذه الوظيفة، لما لها من

الامتيازات الكثيرة؛ فالبنك المركزيّ لا يُعلنُ عن حاجته للتوظيف إلّا كلّ عشر سنوات تقريبًا، أو في ظرف طارئ مثل وفاة أحد مُوظّفيه، وفي كلّ مرّة تزداد شروطهم صعوبة، قلّما تتوافر في الأعداد الضّخمة المتقدّمة بطلباتها لهم".

فاضل السّلمان، يهزّ رأسه علامة الموافقة على ما سمع من صديقه، وعلّق:

-"حالات الشّباب من أمثالنا مُتشابهة، لا تختلف عن بعضها إلّا في تغيّر الوجوه، فقط مع قليل من التفاصيل".

❖❖❖

البدايات ما زالت تحتفظ بنكهتها طازجة في حنايا نفس نصّار المتوثّبة للانطلاق من جديد؛ كلّما استعرض شريط الذكريات، نفض بقايا التراب العالقة على يديه وملابسه. مسح وجهه بأثر الماء المُتبقّي على كفّيْه بعد أن شرب من قارورة (الكولا) البلاستيكيّة.

عيناه مركّزتان على مستوى سطح الأرض أثناء جلوسه في الحفرة التي استغرق حفرُها من ثلاثتهم ساعتيْن من العمل المُتواصل؛ لإنهائها وتجهيزها قبل السّاعة الثالثة؛ فبعد صلاة العصر مُباشرة هي على موعد مع نزيلها الأبديّ فَرِحةً باستقبال جنازة شهيد؛ ستشيّع من جامع القرية الكبير. فوق الأرض.

زاغت نظرات نصّار بعيدًا، لم يسمع ما قاله زميله الحفّار الشابّ كامل القادم للمرّة الأولى للمساعدة في هذه المُهمّة التطوعيّة لوجه اللّه، كجنديٍّ مجهول يقوم على تهيئة الأمور، كما قام بها قبله مجموعة شباب من أبناء القرية، عندما كان يحتاج إليهم نصّار فيما بعد من هذه اللّحظة، وعادة ما يكونون من أقرباء أو أصدقاء المُتوفّى.

رغم حرارة الموقف، وحراجة المشاعر تتشكّل بكلمات على لسانه، بادَرَ نصّار من فوره للاتّصال بمعارفه؛ كي يُرسلوا له من الشباب القادرين على مُعاونته في الحفر؛ لتجهيز القبر على وجه السُّرعة.

وقف شامخًا مُتطاولًا حدّ السّماء علم النّاس ذلك منه، رافعًا وجهه للأعلى، مُناديًا بأعلى صوته؛ ليسمعه الحضور بكلّ وُضوح لا لبْسَ فيه، بعد دفن أخيه الشّهيد:

-"أيها الأهل أنا نذرتُ نفسي مُتبرّعًا للجميع بالعمل في مقبرة الشّهداء، وما عليكم إلّا مُعاونتي، ومُساعدتي مع الشباب بما تستطيعون".

حفّار القُبور يا لها من شغلة طريفة..!!. أن يكون الرّجلُ حفّارًا للقبور شيء مُستهجن، مهنة مستحدثة خاصّة في المدن الكبيرة، غير معروفة في الأرياف والقرى عامّة، النّاس فيها مُتطوّعون بجهدهم طلبًا للأجر والثواب.

❖❖❖

نصّار عندما أخذ العهد على نفسه بتطوّعه الدّائم بعد مقتل أخيه نادر، راحت الهواجس تعمل على اجتياح دواخل نفسه:

-"أعتقد أنّها مهنة مُخيفة، كيف لي إدارة نفسي مع مستجدّات الوضع؟. أين سيكون موقع قلبي منّي؟. هل سيترتّب عليّ نسيان عواطفي، وتجميدها؟.

سمعتُ مرّة عن حفّار للقبور كثير التأفّف، خاصّة عندما يتوقّف عزرائيل عن قبض أرواح البشر؛ مُعتبرًا نفسه قد تعطّل عمله، وكم تكون فرحته عندما يكثر الأموات؛ فيزداد دخله، وتمتلئ جيبته بالنُّقود؛ فيذهب لشراء الملابس الجديدة له ولأولاده، ويطلب أطايب الطعام الجاهز من المطاعم. كان في نيّته شراء سيّارة؛ لسرعة تنقّله فيما بين المقبرة والأخرى في الطرف المقابل من المدينة، لأنّه دخل في شراكة تنفيذ العمل مع شخص آخر هناك. يا لغرابة مَنْ يبني سعادته على أحزان الآخرين..!!. هل هو بكامل قواه العقليةّ؟. أعتقد أنّ هناك نقصٌ في شيء ما، أجهل حقيقته؟. وماذا قال علم النّفس في هذا الموضوع؟.

حفّار القبور، وحارس المقبرة كلاهما من طينة واحدة، غير طينة البشر الطبيعيّين. لا أدري سبب كراهتي لهما، رغم دخولي في مسارهما طوعًا منّي؛ فلماذا أعاديهم.. وأنتقصُ منهم؟. ما دمتُ أصحبتُ مثلهم كما يُقال: (أبناء كارٍ واحدٍ).

لم أكُن أعرف وجه الحقيقة في هذه المتاهة الجديدة كُليًّا كلّ هذه التفاصيل، وتساءلت بغرابة الدّهشة: "وهل هناك شيخ لهذا الكار؟". لابدّ أن يكون مُتعهّدًا لكلّ مقابر البلد، (هامورٌ) كبير على طريقة رجال الأعمال، فهو رجل أعمال مثلهم، له مساعدون وسماسرة، لا ينطقون اسمه بل بلقب (المعلّم الكبير). مؤكّد أنّه يقوم بتلقّي الرّشاوي، ممن يريدون الدّخول في مضمار هذا العمل، بيده تصريف شؤون كلّ حفّاري القُبور، فهو دولة مستقلّة بذاته، يتقرّبون منه يريدون رضاه بأيّة وسيلة، يتحاشون غضبه، أو الخروج على طاعته.

يُحكى أنّ أحدهم حاول التمرّد على طلباته؛ فجمع مُساعديه ومُعاونيه وتقدّمهم إلى مكان عمل ذلك الشّخص، الذي كان مشغولًا لحظتها بوضع لمساته الأخيرة على قبر، جهّزه من أجل الغد؛ فكان جزاؤه كـ(جزاء سِنِمّار)، ولم يدرِ أنّه حفر قبره بيده هذه المرّة؛ فوقف المُعلّم على ناصية الحُفرة مُصدِرًا أمره بدفنه حيًّا.

"فالقبر مصير المتمرّد مهما كان أمره، ودفنه حيًّا يكون عبرة لمن يعتبر". بصوته الأجشّ صاح لإسماع الجميع. دكتاتور لا يقبلُ أبدًا من أحد أن يعمل خارج إرادته، ولو شيئًا بسيطًا. وكلّ دكتاتور تكون جرائمه على مستواه ومكانته الوظيفيّة. اعتبارًا من الأب المُتسلّط، إلى مُعلّم المدرسة ومديرها. وهكذا وُصولًا تَسلسُليًّا إلى قمّة الهرم السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ.

استغاثات الرّجل، وإعلانه المُتكرّر لتوبته أمام زملاء المهنة، ولن.. ولن يعود لفعلته الشّنيعة؛ لم تكن كافية لإقناع المُعلّم بالعُدول عن رأيه، أو أن تجد عنده أُذُنًا صاغية، أو من توسّلات أتباعه الذين جاؤوا معه، للمساهمة في العمليّة، طالبين منه أن يعفو عنه، ويسامحه هذه المرّة فقط، لأنّها لن ولن تتكرّر ثانية. أخيرًا هزّ رأسه، بعد سماعه الثناء ممن حوله على معروفه بالعفو، وإعادته للحياة. فوق الأرض ممكن أن يحدث أيّ شيء.. ولا غرابة في ذلك. وكلّ ما هو مُتخيّل ممكن أن يكون..!!. مهما قيل، وما يُلاقيه الميّت تحت الأرض في قبره من عذاب وحساب، لايقلّ عمّا يحدث فوق الأرض من ظلم وتظالم، رغم أنّ البشر مُطالبون بالإحسان لبعضهم بعضًا، وأن تطغى إنسانيّهم على ما عداها.

❖❖❖

من المرّات النادرة في الحياة أن ينظر المرء للأمور من أعلى بشكل شاقوليّ مُستَوٍ؛ لتُتَاحَ له رؤية الجانب الآخر من أشياء خفيّة تحتَ حِجاب ساترٍ للرؤية العاديّة، اصطدمت نظرات عَيْنيّ نصّار اللّامعتيْن فوق الأرض بأسوار القبور من الحجارة السوداء القديمة، أطلّ أخوه نادر بوجهه النديّ الصّبوح بابتسامته المعهودة هُدوءًا.

صديقه كامل يُعيد السؤال، ويُلحّ تِكرارًا على نصّار عن الوقت المُستغرَق للانتهاء من عملهم في حفر القبر الثّاني الذي سيعملون فيه بعد

الآن من أجل شهيد جديد، وكان ذلك بعد أيّام من تجهيز قبر نادر الذي دُفِن فيه.

فيأتيه صدَى الصّوت من خلف جبل حوران ضعيفًا مُبهمًا، لم يستطع لفتَ انتباه نصّار الغارق تأمّلًا في وجه نادر:

-"يا إلهي..!! إنّه ما زال على ما هو عليه من بهاء وجمال، مثل ذاك اليوم عندما أودعتُه في قبره شهيدًا سعيدًا". نصّار يحاكي نفسه.

كامل يرسل نظراته صوْب المكان الذي تسمّرت فيه نظرات نصّار، رغم أنّه في الحقيقة فوق الأرض، لكنّ كامل لم يلحظ شيئًا مُختلفًا يستحقّ أن يستلِبَ انتباه نصّار بهذه الصورة المروّعة خاصّة في المقبرة.

من لم يعتَد ارتياد المقابر بشكل دائم، مؤكّد أنّ الخوف لا بدّ وأن يتسلّل إلى أعماقه؛ وهذا بالفعل ما أصاب كامل في هذه اللّحظة الغريبة بكلّ معنى الكلمة.

ارتجاف داخليّ من أعماق أعماقه، جعل أعضاءه الخارجيّة تهتزّ بحركات لا إراديّة، الكلمات خرجت منه متقطّعة بتهدّجٍ ملحوظ؛ تحوّلت إلى تأتأة أضاعت فحوى سؤاله الضّائع بين القُبور، ولم ينتبه إليه أحد. حاصرته الهواجس بسيْلٍ هائلٍ من التساؤلات الداخليّة.

حوار صامت ينخلع معه قلبه، تفتّحت مداركه للمرّة الأولى في حياته على قضايا مُربكةٍ ألجمت لسانه. خارت قواه. أحسّ بتلف أعصابه،

رِجْلاهُ عجزتا عن حمل جسمه النحيل، بمحاكاته للهياكل العظميّة التي تخلّت في وقت سابق عن كسوتها.

ونصّار يستعيدُ في ذهنه ثُقب رصاصة القنّاص في عنق أخيه نادر من الجهة اليمنى، وكذلك رصاصات صاحب الرّشاش في جنبه الأيمن، بينما كان يجلس في الكرسيّ الأماميّ خلف السّائق وحده، لأنّ زميله عليّ تخلّف هذا اليوم عن الدّوام، بسبب وعكة صحيّة طارئة، أقعدته عن الذهاب للدّوام؛ لتكون سهام القَدَر على موعدها الدقيق في لقاء غير مُتوقّع غير مُحبّب للكثيرين، الذين تعالت أحلامهم حدّ السّماء، واتّسعت آمالهم لملامسة أطراف الكون؛ ليُلاقي نادر قدَره المحتوم في موعد إجباريّ لا مفرّ منه أبدًا.

الأسباب تأتي مُتكاتفة متساندة فيما بينها متواطئة مُنساقة من تلقاء نفسها؛ استجابة لنداء القدر بكلّ طواعيّة لينتهي كلّ شيء؛ وتذبل زهرة الحياة في أوانٍ لا مَحيدَ عنه، فالذكاء، والحنكة لا سبيل لهما في هذا المضمار.

❖❖❖

صمتٌ رهيب خيّم على محيط المقبرة فوق الأرض، لم يكسر جبروته إلّا مُواء قطّة تقفز عبر الممرّات الفاصلة بين القبور، أو تتجاوزها فوق أسْيجَتِها، يبدو أنّ طريدتها أفلتَت منها، وكُتبَت لها النّجاة سعيًا للحياة فوق الأرض من جديد.

هنا في المقبرة تتقاسم المكان مع ساكنيها الذين هم تحت الأرض، بتآلف غير ممكن تصديقه، وإن وَرَدَ فيما يُقرأ من روايات المغامرات البوليسيّة والخيال الجريئة.

قام نصّار واقفًا وهَمّ بالخطوة الأولى تاركًا الحفرة، لكنّه قفز بشكل مفاجيء، مادًّا يديْه للأمام، كَمَن يفتحُ ذراعيْه لطِفْله عند بداية تعلمّه الحَبْو أو المشي، أو عندما يركض للوصول إلى حضنه ليَضُمّه بحرارة؛ ويتدفّق الحنان نابضًا إلى أعضاء جسم الطفل، بنشر الطمأنينة، ويشعر أنّه في موطن الأمان.

لم يخطُ نصّار الخطوة الثانية، حتّى جمد في مكانه، الذُّهول يكسو ملامح وجهه الوضيء؛ فيَلُوّنه بقتامة مائلة للباهت الأقرب للاصفرار المَرَضيّ.

كاملٌ ما زال مبهوتًا بما يرى، ويُعاين من حالة نصّار الغريبة التي لم تمرّ به أبدًا رغم أنّه أمامه يراه بأمّ عينيْه فوق الأرض؛ فتوجّه بكلامه لزميله الثاني مُحسن وهو أصغرهما، الجامد جلوسًا مأخوذًا بما يُشاهد من أفلام الرّعب عَيانًا، مثل التي كان يُتابع بعضها على شاشة

التلفزيون، أو على (اليوتيوب)، وفيما بعد أصبح مغرمًا بها حدّ الإدمان، عندما حصل على هاتف نقّال اشتراه له والده، هديّة تفوّقه في الصفّ التّاسع (الشهادة الإعداديّة).

لحظاتٌ جاءت بعُمُر دهر، بما حملت لثلاثتهم من توارد أفكار وهواجس، وتخمينات يُؤوّلها كلٌّ منهم على هواه، وبما يروق له متوافقًا مع طريقة تفكيره.

انفصلوا جميعًا عن واقعهم ومحيطهم؛ مُجبرين مُنقادين لسلطان الموقف الفريد غير المألوف العجيب، رغم أنّهم فوق الأرض، بينما كامل ومحسن مَشْدُوهَيْن بانفصال نصّار عنهم واقعًا، ظنًّا منهما أنّ مسًّا من الجنّ تغشّاه، أو أصابته لعنةُ الأموات، كما يُقال عنها اصطلاحًا (لعنةُ الفراعنة).

❖❖❖

نصّار ذهب بعيدًا، موغلًا في ذكريات الموت، واستحضارها من ساحة الذاكرة الخلفيّة الجاهزة للمُثول إلى السّاحة الأماميّة، إذا ما استُدعيت عند الحاجة إليها، في مهابة الموت تهون كلّ زخارف الدُّنيا ومباهجها، ينحصر التفكير في بؤرة الحَدَث المُسيطر على جميع المشاعر والأحاسيس؛ فقال لنفسه: "وهل نحن بحاجة للموت، لإجلاء غبار النسيان عن ذاكرتنا؟".

انفصل عن محيطة في عزلة شعوريّة، لذاك الزّمن الذي لا يُنسى، أيّام كان طالبًا في الثالث الثانويّ (البكالويا)، في منتصف الفصل الأوّل من العام الدراسيّ، في ١٣ تشرين الأوّل ١٩٩٠، عند هجوم طيران الجيش السوريّ، على معاقل الجنرال (ميشال عون)، ذلك اليوم المشؤوم في حياة الكثير من العائلات السوريّة واللّبنانيّة التي فقدت أبناءها في حروب لبنان المفتعلة التي دامت سبعة عشر عامًا؛ لتصريف أزمات الأنظمة المُتناحرة، وتصفية حساباتها.

"على رأي القائل: (خلّيك ع ملعونَك.. لايجي لك ألعَنْ)، أي بأنّ الأفضل لهذا الشّعب، أن يبقى سالكًا مع هذا النّظام". يقول نصّار.

دخول الجيش السوريّ إلى لبنان الشّقيق بدعوة من جامعة الدول العربيّة، تحت مسمّى قوّات الرّدع، مُهمّتها ظاهريًّا الدِّفاع عن لبنان، والوقوف إلى جانبه في صدّ الاعتداءات الإسرائيليّة عن أراضيه.

العماد (ميشال عَوْن) لم يكن على توافق مع خطّ التواجد السوريّ في لبنان، عندما أصبح رئيسًا للجمهوريّة، بعدما انتهت ولاية الرئيس (أمين الجميّل)، وبدل إجراء انتخابات رئاسيّة، استخدم حقًّا دُستوريًّا له، بتسليم منصبه إلى قائد الجيش عَوْن.

حقيقةُ الموتِ هي الأعظم بلاغة، من كلّ ما قيل ويُقال، وما أشبه الأمس باليوم، الدّموع والحزن على (فادي) ابن عمّتي، الذي كان الضّابط برتبة رائد في القوّات الخاصّة، قطرات دمه روّت ثرى لبنان

كاملًا من العريضة شمالًا، حتى رأس النّاقورة أقصى الجنوب اللبنانيّ، تكفيرًا عن فارق التوقيت، في اختلاف إصدار الأوامر ما بين القوّات التي كانت تحاصر مقرّ الجنرال عون، وسلاح الطيران السّوريّ الذي فتك بالجنود السوريّين بطريق الخطأ..!!، مات خيرة شباب سوريّة فداء لسياسات النظام التوسعيّة القمعيّة.

قيل وقتها: أن مشافي دمشق الحكوميّة المدنيّة منها (المجتهد والمُواساة) كانت مليئة بالجُثث التي قدمت من بيروت، فضلًا عن المشافي العسكرية كـ(تشرين و ٦٠١)، ومن ثمّ وزّعوها على أهاليهم في المحافظات السوريّة بالتّقسيط على دُفعات؛ لامتصاص الصّدمة المُتوقّعة بمضاعفاتها إذا ما حصلت ردّات فعل؛ فتكون تحت السيطرة المُطلقة.

كان فادي كبش فداء من أجل القضاء على جنرال مَدعوم من دول عُظمى، أخيرًا لجأ إلى سفارة دولة فرنسا.

انتهت مطالب النّظام في سوريّة بقتل أو استسلام الجنرال، وهو ما لم يحصل أبدًا، ولا يمكن أن يحصل. خرج من مخبئه تحت عباءة الحماية الفرنسيّة؛ ليعيش فيها مُعزّزًا مُكرّمًا تحت مظلّتها لاجئًا سياسيًّا؛ خرج طريدًا مهدور الدّم، وعاد بعد سنوات يرتقي درجات قصر بعبدا رئيسًا، دخل من باب انتخابات توافقات دوليّة؛ أسدلت حصانة عباءتها على ما مضى من عداوات انمحت من سجلّ العلاقات، وليتمترس الجنرال مع أعداء الأمس في خندق واحد، رغم رفضه السابق لذلك.

بعدها يصبح حليفًا استراتيجيًّا؛ يقول بلسانهم ويُلوّح بعصاهم. يا لها من سياسة عمياء..!!. لا مبدأ ولا دين لها..!!.

لم أنس يوم أن نَزل والدي في قبر فادي، وها أنا أتماثلُ معه في نفس الحالة مع فارق اختلاف الزّمن، واستَلَمَهُ بيديه من الشباب، ليوسّده في لحده، وهتافاتهم يتعالى صداها، (لا إله إلّا الله، والشّهيد فادي حبيب الله). دموع والدي بلّلت كفن فادي، تمازجت مع بُقَع الدمّ الصّابغة البياض أحمرا.

وهل أغلى من الدم في هذا الوجود؟.

وهل أغلى من أن يُضحّي المرء بنفسه في سبيل قضيّة؟.

وماذا تساوي الحياة والرّكونُ إلى ملذّاتها، إذا نهضت حميّة الشّباب للثأر؟. المفارقة أنّ الدمّ العربيّ رخيص على الصّعيد الرسميّ، خلاف الأمم الأخرى.

❖❖❖

رغم أن الموت فاجعة مخيفة؛ فالغريب في الأمر أنّ الناس يتوافدون من كلّ مكان بإصرار لحضور الجنازات، وتشييعها لمثواها الأخير، يقطعون أعمالهم ومواعيدهم الهامّة، يأتون بأرجلهم من سعة إلى ضيق بكامل رضاهم؛ ليجتمعوا، ولكنّهم كارهون للموقف، الذي يُحجّم أحلامهم، ويحدّ باقتدار من آمالهم في سوق الحياة.

لا أفهم لماذا يجتمعون إذن؟.

حاولت التخمين فلم أستطع الخروج بنتيجة ترضي غرور البحث عن السبب.

فهل العجز عن متابعة مسيرة حياتهم إلى جانب الموت، هو ما ألجأهم للمجيء؟.

أمْ أنّ الأمر قِرضة ودين؟، فإذا ما جئتني اليوم مُؤازرًا بمصيبتي؛ فإنّكَ متأكّد من حضوري، إذا ما حصل عندك فجيعة.

الجُموع كانت تحتشد بحماس قويّ، عند مدخل المقبرة؛ والتزاحم بالأكتاف أخذ مداه؛ بُغية الوصول إلى عمق المقبرة، سمعتُ أحدهم يقول لصديقه:

-"هناك في الزاوية الجنوبيّة قبر أبي، وإلى جانبه قبر أمّي".

وجلس على حافّة قبر.

-"ألمٌ مفاجئ في الكاحل أقعدني، أودّ لو أنّي استطعتُ الوقوف على قبريْهما".

جنازة الشّهيد الضّابط فادي استقطبت معظم أهل البلد، والقرى القريبة المجاورة كان ذلك قبل سنوات، والعلم السوريّ الأحمر والأسود يتلألأ فوق الرؤوس، يلتفّ حول النّعش إكرامًا لشهيد الواجب في مهمّة خارج حدود الوطن في دولة شقيقة، وحضر الجنازة المهيبة اللّواء قائد القوّات الخاصّة بذاته، مع مجموعة كبيرة من العناصر المرافقة له، وغيرهم

ممن كُلّفوا بمرافقة الجنازة بشكل رسميٍّ من مشفى تشرين إلى بيت أهله في القرية، ولم يتوقّف إطلاقهم للرصاص عند إنزال التابوت من سيّارة الإسعاف المُجلّلة بأكاليل الورد، وشرائطها السوداء التي تحمل أسماء أصحابها، خاصّة الأكبر بينها.. يحمل اسم القائد العام، وآخر باسم وزير الدّفاع نائب القائد العام، وإن كان أقلّ ضخامة إكليل اللّواء قائد القوّات الخاصّة.

ووضعوا صورته على مقدّمة النّعش برتبة الرّائد التي مات فيها، وحصل على ترفيع رتبة المقدّم بعد استشهاده، يبدو لي أنّ الصورة كانت حديثة نسبيًّا من حوالي أربع سنوات، كما سمعتُ وقتها من عمّتي رحمها الله، "أنّ فادي دخل استوديو التصوير، في أوّل عودة له إلى القرية بعد ترفيعه مباشرة، في إجازة دامت أسبوعًا، والنّسر الذهبيّ يتلألأ على كتفيْه، يزهو بفرحة تتّسع للاستحواذ على القرية بأكملها".

بينما الآن نحن في صراع مع رايتيْن مختلفتيْن (حمراء وسوداء، وخضراء وبيضاء)، لا أعتقد أنّها مِزّاجِيَّتنا في حبّ تنافر الألوان وكراهة بعضها؛ لدلالتها على رمزيّة مواقف مُعبّرة عن توجّهاتنا الحاليّة، بينما صراع الإرادات، بين نظام عاتٍ لايقبل أيّ صوت مُعارض، وبين مطالبنا الحقّة المغتصبة.

❖❖❖

انداحت أمام نصّار صورٌ شتّى لا تُعدّ ولا تُحصى، اصطفى من بينها صورتيْن جاءتا مُترادفتيْن سِياقًا، متناقضتيْن مَنشأً ومآلًا. صورة فادي (ابن عمّته) وهو يُصارع خروج أنفاسه الأخيرة، تُضرّجه الدّماء. ووجههُ مُمرّغٌ، وقد فَقَد نَضَارته المميّزة، وانطفأ البريق في عينيْه، يتأوّه طويلًا..!!، يتلمّس جُرحَه البليغ، دمه يثعبُ مُستعجلًا إلى خارج جسده، حدقتاه تُعتِمان، وينتهي كلّ شيء هناك فوق الأرض في بيروت.

يا إلهي..!!.

من أجل أيّ شيء قُتِل (استُشهد)؟.

صورة أخي نادر أتخيّلها، عندما أصيب برصاصة القنّاص اللّئيم، الذي لا يُفرّق بين عابر إلى سبيل عيشه في الوظيفة، أو العمل الحرّ، وبين قاطع له أونصّاب، أوحراميّ، أومُسلّح ضدّ النّظام.

لا يعنيه كثيرًا مظهر ضحاياه، فلا يختارهم اختيارًا، يُرسل لهم رسالته الغادرة مرّة واحدة؛ فيغادرون الحياة إلى ربوع الموت، مُحمَّلين بهمومهم التي لم يجدوا لها حلّا.

فلا تدمع له عيْن، ولا يرفّ له جفنٌ، قلبه جليديّ مُتجمّدٌ بقساوة صخر بازلت حوران الأسْوَد، مُتجرّد من العواطف كشجرة فقدت أوراقها في الخريف.

هناك أطفال على أمل بعودة والدهم جالبًا لهم معه ربطة خبز، القنّاص غير آبهٍ..، بدموع طفلة تنتظر اختطاف لُعبتها من يد أبيها عند عودته،

وهي تصيح: "بابا.. بابا.."، وتعدو تسابق وصوله للصالة؛ لتمزّق أوراق (السّولوفان) عن لعبتها، عندما تسمع صرير باب البيت بانفتاحه، أو صوت ارتطامه في حالة إغلاقه بقوّة، أو بفعل جريان الهواء المتدفّق.

هو يُركّز منظار قنّاصته على نقطة عبور ما على الطريق، ينتقيها بدقّة، ويجلس مُنتظرًا ضحيّته بفارغ الصّبر، يحبسُ أنفاسه..، يعتصرُ بسبّابته زناد سلاحه البارد بفعل برودة أعصابه، وينتهي كلّ شيء.

فادي استشهد من أجل النّظام وسياساته، بينما نادر استشهد بيد النّظام..!!، كلاهما شهيد في عُرف الدّولة والشّعب..!!.

كلاهما هتفت لهما الحناجر..، حتّى بُحّت..!!. كلاهما ملفوف بعلم سوريّة، مع اختلاف لونيْهما (أحمر+ أسود، وأخضر+ أبيض).

الفوارق بينهما اتّسعت للمسافة الفاصلة ما بين المؤيّد والمُعارض، والتمايز الأظهر للعيان، هذا مؤمنٌ بحريّته، وذاك مُتنازل عنها، ووقّع صكّ ولاء بإرادته متنازلًا عنها، حاملًا قلبًا جبانًا.. استحوذته عبوديّة الامتيازات والمصالح.

أفترضُ أنّ القُبور واحدة تُشبه بعضها بعضًا؛ فهل أصحابها يتشابهون أيضًا في همومهم ومخاوفهم، خلال تمضية حياتهم البرزخيّة؟.

وهل قبرُ المسؤول والحاكم، مثل قبر أيّ فرد من أفراد هذا الشعب المسكين؟.

أبي وأمّي جاران في قبريْهما.. عاشا حياتهما معًا.. هل هما سعيدان الآن؟.

وهل ما زالت أمّي تُناكده من وراء الجدار الترابيّ العازل بينهما، كما كانت تفعل في حياتهما.. رحمهما الله؟.

بطبعي لا أميل إلى تقديس الأرواح، كما يفعل الآخرون ذلك بين الحين والآخر، أستعيدُ جلسات العائلة أيّام صغرنا، مثلًا على طعام الفطور قبل ذهابنا إلى المدرسة، والخوف من عقاب الوالد، نفعل حركاتنا بصمت وتعليق هامس، كي لا تصل إلى أذنه؛ فالنتيجة معروفة سلَفًا.

أنا الآن في عُنُق الحياة، شُعوري هذه اللّحظة أنّني قريب من الموت حدّ الموت بحجم هذا الأسى.. بعيدٌ عن الحياة كتباعد يوم مولدي.. لا يقلقني الموت بذاته.. تستفزّني تناقضات المشاعر.

كيف سأموت..!!؟. من سيقوم بدفن جُثّتي البائسة..!!؟. هل سأكون شهيدًا، وأحظى بهتافات تُكرّسني في قائمة الشهداء..!!؟.

أم سأموتُ على فراشي موتًا طبيعيًّا كما يموت البعير..!!؟.

كما قال خالد ابن الوليد رضي الله عنه:

-(لقد شهدتُ مئة زحف أو زهاءها، وما في بَدَني موضع شبرٍ ، إلّا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهمٍ، أو طعنة برمحٍ. وها أنذا أموتُ على فِراشي حتفَ أنفي كما يموت البعير ؛ فلا نامت أعينُ الجبناء).

فلا نامت أعيُنُ الجُبناء. فأين أنا من سيفُ الله المسلول؟.

وأخوَفُ خوْفي أن يكون جاري في القبر مُخبرًا.

لأنّني أتوقّع منه كلّ شيء، (ذيل الكلب لو حطّوه بالقالب ميّة سنة، سيبقي أعوجا)، ولا أظنّ أنّه قد ترك صنعته الخسيسة، فلا بدّ من أن يتلصّص عليّ؛ فيُحصي أنفاسي وأدقّ حركاتي، ويوصلها طازجة من عالمنا تحت الأرض إلى أسياده، الذين ما زالوا يُسيطرون هناك فوق الأرض.

❖❖❖

لم تتوقّف أحاديث كامل ومحسن الهامسة، وتدور على مقربة من نصّار الجاثم على حافّة قبر أخيه نادر، المنفصل عن لحظة واقعه، همسُ الشّباب يصافح أذنيْه خفيفًا كنسمة عابرة تترك راحة في النفس، حقيقة أنّ نصّار لم يستطع سماع أيّ شيء أبدًا.

مُنصرف بكافّة أحاسيسه ومشاعره بعيدًا، يستحضر مشهدًا عايَشَه قبل عشرين عامًا من مستودعات الذّاكرة، ومن مَنسيّاتها، ولكنّ الشيء بالشيء يُذكر، واستدرار الألم من جديد، يصبغ الحياة حُزنًا.

يا لعيْني عمّتي..

يا لعيْني حمدة..

يا بنة عمّتي..

ما أجمل الدُّموع تترقرق بين جفنيْك.. تتبلّل الرّموش.. فتصير حرابًا منغرسة في قلبي.

يا لعيْنك يا حمدة.. اللّه .. اللّه..!!.

يا لسحرهما..!!..

كنتُ أنظر إليها، دموعها تفيض بلا رادع؛ فكانت تزرع الأمل في قلبي من جديد، يا لها من حمدة، أستقي من أحزانها فرحي، رغم تشاركنا في المُصاب الأليم.

يوم أن كانت تبكي أخيها فادي، وها أنا أبكي أخي نادر. تبادُل الأحزان تصنعه الفجائع.

وهل أحزاننا صنيعة أنفسنا؟. مؤكّد أنها مُصَمّمة على مقاساتنا، ربّما تتجاوزنا بقتامتها، فإذا ما حزمنا أمرنا تماسُكًا؛ سنوقف مسيرة مدّها الطّاغي.

كنتُ أتأمّل عينيّ حمدة الساحرتيْن في جميع أحوالهما..، تتحفّز مشاعري بكامل حيويّتها ونشاطها هُيامًا في عَسَلَهما.

أسبحُ.. وأسبح..، ألتقطُ لُهاث أنفاسي، قفصي الصدريّ يعلو، ويهبط بحركات خارجة عن إرادتي، تلاشى الشّاطئ في عينيّ؛ مُتحوّلًا إلى أفواج سراب تتلألأ من بعيد.. ما خامَرَني الخوف من هَلَكي غرَقًا، رغم أن لا هدف أمامي أريدُ الوصول إليه، لا نُقطة مُستهدفة أستريحُ فيها من عنائي وتعبي.

هذه المرّة بموت أخي نادر. كنتُ أتمنّى رؤية دموع حمدة اللؤلؤيّة، وهي تبكي ابن خالها.. أعلنُ عجزي أمام حكم الجغرافية وتنائيها.. مؤكّد

أنّها تبكيه في السعوديّة.. حيث إقامتها بدموع الخنساء؛ عندما علمت باستشهاده.

فالدُّموع إعلانات واضحة.. مقروءة معالمها على الوجوه، مدفوعة الأجر من القلوب، لا تخفى ملامحها الجليّة على النّاظرين، وهي اعترافات كاملة صريحة.. لا تحتاج للتفسير والتأويل، صادرة عن الأعماق الخفيّة صامتة بلا ضجيج.. حرّى حارقة.. تَحمَرُّ المآقي لهطولها و جريانها.

لا أشكّ أبدًا أنّ البكاء عمليّة تحوّلٍ كيميائيٍّ مُكتملة المعادلة.

كيف تستطيع حمدة تحويل مشاعرها الحزينة إلى دموع..!!؟.

المشاعر والدّموع على طرَفيْ نقيض، في المساحة الفاصلة بين المعنويّ والماديّ.

كلّما ابتعدنا عن ماضينا نتغيّر؛ فهل تغيّرت حمدة؟.

لستُ سوى عابرٍ لنهر الذكريات. أطلب من الحاضر أن يتحمّلني، وأنا أجُوزُه فيما بين ماضيه ومُستقبله.

(ابنُ الرّومي)، اللّعنة..، ما الذي جاء بذكرك الآن في هذه اللّحظة القاتلة، مَقولتك هي التي استجرّتك للمُثول في سياق تداعي أفكاري: (ماكان البُعد زُهدًا بيننا..، وكيف أزهدُ فيكِ وأنتِ أنا..، لكنّها الأقدار خطّت أمرَنا؛ فضاق على وُسع الزّمان لقاؤنا). لن أسامحك يا حمدة..

لن أغفر بُعدك عنّا..

رغم فارق السنّ بيننا، ويقيني منذ البداية أنّه كان مستحيلًا أن نكون لبعضنا أزواجًا رغم حُبّي الذي لا يموت ما دمتُ على قيد الحياة.. ومالم أوَسّد في قبري.. لكنّك كنتِ مُلهمتي.

مشاعرٌ طغت على تفكيري، سدّت كلّ منافذ الرؤية باتّجاه المستقبل، إلّا نافذة واحدة.. فقط من خلال عينيكِ.

لن أسامحك.. وأنت توأم روحي المهاجر.. تركتِني وحيدًا.. أصارعُ مصيري هنا بين القبور.. فيا:

-(ليت الشرور بلا نُقاط، وليت الحَرب بلا راء، وليت وداع تُقرأ دومًا من اليسار).

كنتُ كلّما سنحت لي الفرصة للاختلاف إلى بيت عمّتي، هناك شيء ما بداخلي يدفعني للمجيء إلى بيتكم، تبيّنتُ ما هيّته فيما بعد، جاء متأخّرًا بسنوات عديدة، كان فقط من أجل عينيْك يا حمدة، كثيرًا ما اختلقتُ الأعذار لأراك.

رغم معرفتي الرّاسخة أنّكِ من جيل أختي التي تكبُرني بخمس سنين. صغرُ سنّي آنذاك لم يوقعني بالحبّ فقط، بل ارتقى بي لأعتلي بالحبّ مرتبة.. ما زلتِ أيقونةً مُقدّسةً في قلب ذكرياتي النّابضة.

فما كان بُعدكِ زُهدًا، لكنّها الأقدار تخطّ مصائرنا، وعجزنا فاضح قاصر عن تعديلها. فوق الأرض أو تحتها.

رغم الأسى والحزن المالئ قلبي..، فأنتِ كالشّمس لها موعد.. للإشراق والاحتراق والذّبول. يُراودها اللّيل تارة، وتُراودها الغيوم.. لتحجبها تارة أخرى.

لكنّها حقيقة ساطعة في كبد السّماء.. وصايا روحكِ تكتبُني تلاوة يقينيّة شبيهة بعينيْك.. إيماني راسخٌ بجمال عينيْك يا حمدة.. كعَيْنَيْ أمّي.. يا لحظّ من كان فوق الأرض، ويالهول حجم سعادته..!!.. عندما صافحته نظراتكِ يا حمدة.

❖❖❖

جاءت اللّحظة الحاسمة فيما بعد العصر بنصف ساعة، أركان المقبرة ترتّج على وقع التّكبيرات الهادرة، صدى الصّدى راح بعيدًا بسطوته القويّة مُسيْطِرًا على أجواء الحارة الشرقيّة، الحُشود الغفيرة الغاضبة تهتف بصوت واحد كهدير الرّعد.. يُزلزل النّفوس المُتشكّكة بما يحدث في البلد من حراك سلميّ.. أجبرت الأموات بأن يستيقظوا من سُباتهم الأبديّ؛ ليستطلعوا ما الذي يحدث قريبًا منهم فوق الأرض؟.

نصّار بخطوات بطيئة حذرة، وعلى رؤوس أصابعه، يدور حول حفرة القبر.. يتفقّد الأدوات من الفأس والجاروف والمجرفة؛ ليتأكّد من الجاهزيّة، مُصدرًا أمره للولد مُحسن بالذهاب لأحد البيوت المجاورة؛ لملء سطل الماء الحديديّ، وهو من بقايا تنكة فارغة من زيت زيتون،

تحوّل استعماله لنقل الماء الضروريّ في صنع خلطة طينيّة؛ لإغلاق فراغات ما بين السقّافِيّات العرْضيّة المتّكئةِ على قواعد من اللّبْنِ الإسمنتيّ على حافتيْ القبر؛ لِتشكّل حيّزًا من الفراغ حول الجثمان، مساحة ضيّقة مريحة تتّسع للانتفاخات قبل انفتاقها؛ وكي يضمن عدم نزول التراب النّاعم على جسد الميّت أو أيّ شيء آخر، أوخروج رائحته للأعلى.

كامل أيضًا من فوره قام لاحقًا بمحسن حاملًا بيده الدلْوَ البلاستيكيّ الآخر؛ للتخفيف عن مُحسن بدل الذّهاب مرتيّن لجلب الماء المطلوب اختصارًا للوقت؛ واستثمار اللّحظات القليلة المُتاحة.

السّكينة والوقار تحفّ مَمْشاه، فوْحُ التُّراب المُستخرَج من باطن الأرض يغمر جوانب الحفرة من ثلاثة اتّجاهات، يُعلن للأنوف عطره المخبوء من آلاف السنين، لم يبُح بضَوْعِه إلّا في هكذا مناسبة عزيزة.. وهو يتلقّى جثامين الشهداء.

الشّمس تستمتع بمشهد التُّراب الميّال إلى الرّطوبة.. لتفعل فعلها في تجفيفه، وإحالته من ذرّات متماسكة إلى مُتناثرة.. صارت هباء.. ثار لتوّه مُشكّلًا هالة كأنّها مَثار النّقع حول القبر فوق رُؤوس المُشيّعين الحَزانَى على الشّباب المُضَحّين بحياتهم في سبيل الحريّة.. ناقلين حياتهم من فوق الأرض إلى تحتها.

❖❖❖

للمرّة الأولى في حياته اكتشف نصّار هذه الرائحة المُميّزة بكلّ تفاصيلها الجذّابة، وهو قد جرّب الكثير من أنواع العطور الفرنسيّة ذات الماركات العالميّة، بعد أن أصبح صاحب راتب ووظيفة مرموقة، لكنّ فوْح التُّراب استوطن خلجات نفسه بلا مُنافس، وعشعش في تلافيف دماغه، إنّها الطبيعة التحتيّة تتنّفس في وجهه.

الجمع الغفير من النّاس لا يُدركون.. ما الذي أثار رغبة نصّار (حسب تصريحه) في أن يكون مُتطوّعًا بشكل دائم؛ لتجهيز قبور الشهداء، ولو لم يكن مُرتبطًا بزوجة وأطفال.. فمن المُؤكّد أنّه سيتّخذ من هذا الموقع سكنًا يأوي إليه، ويُقيم فيه؛ ليجد فيه مُتعته الرُّوحيَّة، وراحته النفسيّة.. بعدما أتعبه (بريستيج) الوظيفة المُدمّر للطّاقات؛ فينقلب الموظّف أقرب إلى جسد خالٍ من جماليّات روحيّة؛ ويستحيل رُويدًا رُويدًا إلى مُنفّذ لأوامر مديره العتيد؛ فلا يستطيع الخروج عليها قيْد أُنملة، وإلّا كان في عِداد المُعقّدين، وذوي الأفُق الضيّق، الذي لايفهم طبيعة الحياة ومُتغيّرات الزمن مثل باقي الموظّفين، الذين يركبون سيّاراتهم الخاصّة ذاهبين بها إلى النُّزهات وزوجاتهم الجميلات إلى جوارهم، وأطفالهم يرفلون بثياب غالية الأثمان، وبيوتهم في ضواحي العاصمة ذات السُّقُف القرميديّة المائلة، وكلّ ذلك أثار طُرَف بعض المُتندّرين عليهم: "أنّهم يوفّرون من رواتبهم"، "أو أنّهم حاذقون في تجميع المال"، ورواتب الأكثريّة من موظّفي الدوائر الحكوميّة، لا تكاد تكفيهم الأسبوع

الأوّل من كلّ شهر؛ فأقساط تنكة الزّيت والغسّالة والبقّال والبوتيك ومطعم الفول والحمّص وبائع الخضروات، جميعُهم ينتظر استلام الرواتب؛ ليشطبوا ما استدانه منهم الموظّف، أو جزءًا من الدّيْن المُتراكم من أشهر سابقة أو ربّما سنوات.

❖❖❖

نصّار استفاق من غفوته المسروقة من سياق المكان عن طلائع المُشيّعين التي وصلت بالقرب منه، الهتافات تزداد حدّة وقوّة بارتفاع سقف مطالبها:

-"بأنّ دم الشّهداء لن يضيع هدرًا، والانتقام من القتلة المجرمين.. قادمٌ لا محالة".

حسب اعتقادهم، والحالة تستحوذ على القلوب والأجساد؛ لتتحوّل إلى لغة جسد معبّرة بشكل واضح، قبضاتُ الأيدي ترتفع للأعلى، العيون تُبَحلِق للأفق بشرود نظراتها إلى المجهول القادم من رصاصات القنّاص، أو مُداهمة دوريّات الأمن المُفاجئة، أو قذائف المدفعيّة المنطلقة من داخل القلعة الحصينة، أو طائرة تفاجئ الموقف بصاروخ أو برميل.

صار الحلم والأمل عاملان إيجابيّان في طرد اليأس من النّفوس، ونزع الخوف؛ لتتحوّل الأمور إلى حالة من التحدّي للحاضر بحالته الرّاهنة،

ورفع سقف التغييرات الجذريّة للنمط الذي كان سائدًا على مدار سنوات طويلة، كثيرًا ما توصف حالة التجاذب هذه من البعض:

- "ماهذا التهوّر والجنون، ها نحن عايشين مبسوطين، ولا إشي ناقص علينا، وشو هالحريّة فيها زيادة غير هذا؟".

❖❖❖

نام الشّهيد نادر في مأواه الأخير سعيدًا بهذه الحظوة من أهل قريته، الشّباب والرّجال والنّساء، وكان قبل ذلك يقول:

- "أمّي لا تبكي عليّ إذا تأخّرت يومًا عن العودة للبيت، اطمئنّي بأنّي ورفاقي نعمل من أجل الحريّة".

وينتهي كلّ شيء من فوق الأرض.. يستقبله قبره برضا وقبول بمُقيمٍ جديد تحتضنه العتمة، تُضَمّخه الأرض بعطرها الأبديّ، ومن ثمّ تستخلص عُصارته؛ لِتَتَشَرّبَها محتفظة بِمَائِهِ؛ ليكون ضمن مكوّنات مزيج عطرها المُسْتَكِنّ في باطنها، لاتبوح به إلّا في مواقف قليلة، أو أجبرت على تغيير ديمغرافيّتها الجيولوجيّة من أجل إنشاء مشاريع جديدة، أو محو هذه القبور من الوجود بقصفها، وتدمير الذّاكرة الجمعيّة المُرتبطة بمطالب التغيير في سبيل الحريّة، والبشريّة مُنهمِكَة في لُجّة الحياة غير آبهة بحجم هذا الموت، إلّا إذا كان محرّك المصالح يحدوها للسيطرة على الثروات، والكيْل بمكاييل غير مُتّزنة ولاعادلة،

تُناصب الشّعوب الطّامحة لنيل حريّتها العِداء؛ لأنّها تسعى للعيش بكرامة، وتناصر الدكتاتور والقاتل والمجرم، وتتغاضى عن (مبادئ ويلسون)، ومبادئ الثورة الفرنسيّة، وميثاق الأمم المتحدّة، ومجلس الأمن الدوليّ، ولاتعمل على لجم الاعتداء على الإنسان، وحريّته أينما كان فوق الأرض، إلّا إذا كان لها مصلحة فيما يحصل.

❖❖❖

(٣)

انتشار الظُّلم على الأصعدة الاجتماعيّة كافّة يجعل النّقمة عامّة، والتبرّم في الحياة يأخذ مداه؛ ضيق في الأنفس، وشدّة في التعاملات. اللّذائذ تصبح إلى مرارات تُحتسى على نطاقات واسعة. هناءة العيش تنقلب إلى نكد، ويَسوَدّ الأفُق في الأعيُن، وتتبدّد الآمال وتنطفئ شعلة الأحلام.

الإحساس بهذه المآسي متفاوت حسب طبيعة الأشخاص، فمن يستطعْ السيطرة على جُموح نفسه، يكُنْ بصيرًا بترتيب مشاعره وأولويّاتها.

تفشّي الظُّلم الواسع؛ جعل الفئات المختلفة بتبيانها تشترك في مساق واحد، وتقف جنبًا إلى جنب صفًّا واحدًا في المظاهرات والاحتجاجات والاعتصامات، بهتافٍ واحدٍ مُوجَّهٍ إلى هدف واحد.

معن وأصدقاؤه المهندسون جمال ويونس وسعيد وغيرهم.. محسودون على مكانتهم الاجتماعيّة التي يتمنّاها أيُّ إنسان.. رعاية نقابيّة.. وثروة بين أيديهم فوق مستوى الحالة المتوسّطة ماديًّا.أ

لا تثير هذه الأشياء تساؤلات المراقب؟.

ولماذا ضربوا بعرض الحائط كلّ امتيازاتهم التي جَنَوْها في لحظة مصيريّة؟.

ألا يجدر بهم المحافظة عليها، وصيانتها لِتَدوم لهم ولمن بعدهم؟.

مع هذا وذاك كانوا في المقدّمة، ومنذ المظاهرة الأولى في درعا، عند الهتاف الأوّل في وجه الظلم؛ تجمّعوا جاهرين بندائهم جَليّا واضحًا لا غموض فيه، وغير قابل للتأويل، ورفضوا أن يكونوا في المنطقة الرماديّة كالمنافقين.

لكنّهم آمنوا أنّ الحريّة تُؤخذ ولا تُعطى.. طار صواب السّلطات بمجانبتها للاستماع، والإنصات لصوت العقل.. وصوت الجماهير، واعتبروا أنّ شقّ عصا الطّاعة جريمة لا تغتفر أبدًا، وإيذانًا مُبرّرًا لسفك الدماء، وإزهاق الأرواح بلا مساءلة من قانون يحمي النّاس، أو رادع من بقايا ضمير، ويُجرّم القاتل على ما اقترفت يداه.

لكنّ الحالة جاءت على تجريم الضحيّة، ومُعاقبتها على مطالبتها بحقوقها المسلوبة؛ عندما رفعت صوتها تُنادي بالحريّة. على وجه الحقيقة غير معلوم سبب رُعبهم من هذه الكلمة، انقلبوا، وكأنّ مَسًّا من الجنّ أصابهم؛ فاستَنفرُوا بكامل وحشيّتهم وهمجيّتهم.

❖❖❖

أولياء أمور الأولاد المعتقلين، عندما ضاقوا ذرعًا باحتجاز أطفالهم، بعد مشاورات ومداولات وسهرات متتابعة يوميًّا عند أحدهم، أخيرًا أجمعوا الرأي على التجمّع كوفد إلى مدير فرع الأمن السياسيّ؛ للمطالبة

بالإفراج عن أبنائهم.. المدير في وادٍ، وقلوب وأرواح الآباء والأمّهات في وادٍ آخر، ولم تجرِ الرّياح بما تشتهي السّفن.

لّما صُمّت آذان المسؤولين في المحافظة في حَلّ الموضوع بأسهل الطّرُق، وأقلّها تكلفة؛ اجتاح اليأس نفوس الأهالي التي تغلي نارًا على مصير فلذات أكبادهم. وكيف بهم؟ لو كانوا قد حضروا الشّاعر حطّان بن المعلّى الطّائي:

وإنّــما أولادنـــا بينـــــنا ❖❖ أكبادنا تمشــي علـى الأرض
إن هبّت الرّيح على بعضهم ❖❖ لامتنعت عينــــي من الغمض

لنَزَعُوا عنهم أردية الخوف المُجلّلَة لعموم الحياة، ووصلوا إلى طريق مسدودة، علَت أصواتهم للمرّة الأولى في (١٥\ ٣\ ٢٠١١)، هاتفين بسقوط مسؤولي المحافظة كان هذا في اليوم الأوّل.. أوّل خروج علنيّ يائس خجول اقتصر على أهالي الأطفال، واستمرّ الحال لعدّة أيّام، وفي كلّ يوم ينضمّ إليهم جمعٌ من المتذمّرين، والمظلومين، واليائسين.

يُروى فيما يُروى أن معاوية بن أبي سفيان، غضب يومًا من ابنه يزيد، فقال له الأحنف:

-(يا أمير المؤمنين، أولادنا أكبادُنا، وثمار قلوبنا، وعماد ظُهورنا، ونحن لهم سماء ظليلة، وأرض ذليلة، وبهم نَصولُ على كلّ جَليلة، إن

غضِبُوا فَأَرْضِهِم، وإن سألوكَ فأعطِهِم، وإن لم يسألوكَ فابتدئهم، ولا تنظر إليهم شَزَرًا فيملّوا حياتكَ، ويتمنُّوا وَفَاتك).

لا غرابة أبدًا إنّ ما حدث حقيقة، رغم أنّه كان من المستحيل القيام بمثل ذلك، حسب آراء المحلّلين، والمراقبين للوضع، فعلًا وقع ومثله "فوق الأرض" في درعا، وتكرّر في كلّ يوم جمعة.

❖❖❖

اعتدل معن جالسًا، أخذ نَفسًا عميقًا، بدا التوتّر على ملامح وجهه الهادئة، سحب (سيجارة) من علبته المخبّأة في جيب (الجاكيت) الداخليّة، انتبه إلى يده تأمّلها مَليًّا، بحركة لا إراديّة ارتفعت عاليًا، بعد أن صارت قبضة تعلو وتهبط، كما هي حتمًا في مظاهرة نقابة المهندسين في ساحة بُصرى (السّاحة الشرقيّة) في درعا، بقيت اليد على حالها، انفلتت السبّابة مُشيرة للأعلى بحركة استعادت معها الكلمات نبض هتافه الأوّل للمظاهرة:

-(واحد.. واحد.. واحد، الشّعب السوريّ واحد).

صمّموا هذه الكلمات في ليلة سابقة ليوم المظاهرة بسريّة تامّة، في منطقة مُنعزلة بعيدًا عن الأعين الرّاصدة على مدار السّاعة، لاتترك شيئًا يتحرّك على الأرض، إلّا أن توصل إلى خبره، الهواتف النقّالة اختصرت المسافات بنقلها المباشر من ساعة الحدث.

رفاق المهنة الأحرار اصطفّوا سويًّا في خندق واحد، انحازوا للإنسان أوّلًا، تزامنًا مع انطلاق صرخات الألم من حنجرته. ارتفعت حدّ السّماء مُطالبة بحقوقه المفترضة، ولَعْنِ مُغتصبيها بجرأة غير معهودة أبدًا على الإطلاق، لم يكن واردًا ذلك في قاموسه، وبالأصل لم يكن يخطر بباله هذا الخاطر المتهوّر، ولا تنطلق ألسنة اللّوم والعتاب تُسدي النّصح بكلّ إخلاص ظاهر منها، رغم أنّه يطالب مع الجُموع من أمثاله بمصير أطفالهم الذين اعتقلوا في ليلة حزينة جَفَا النّوم فيها أعيُن أمَّهاتهم، واحتار دليل الأب عبدالرّحمن المفجوع بصدمة زائري اللّيل، وهم يتسوّرون بيته.

الباب يُكسر عُنوة. مشاعر غريبة انتابته، وهو يفرك عينيه لإزاحة النّوم عنهما، محاولًا امتصاص هَوْل المفاجأة، انعقد لِسانه، خارت قِواه.. وهو يرى طيف ابنه سمير خيالًا يُقتاد في عتمة اللّيل.

حاول السُؤال، ارتدّ إليه صدى وَلوَلَة زوجته من الغرفة الأخرى، من جديد دخل في محاولة أخرى، بعد أن استجمع شجاعته بسؤال قائد الحملة:

-"شو في سيدي..!!".

لم يعِ أن سؤاله ذهب أدراج الرّياح، جواب مقتضب صاعق انصبّ على سمعه بكلّ فجاجته ووقاحته:

-"كُوُلْ خرا..، أحسن ما أحطّ هالبوط بثمّك، بتسوّي حالك مِنتْ عارف شو ﷺ، بِدْكِن تخرّبوا هالبلد، بس على مين يا ولاد الكلب، بشرف القائد لخلّيكم تشوفوا القمر بعزّ دين الظُّهر".

قال كلامه الوسخ، وترك عائلة عبدالرحمن في دوّامة هذيان ما بعد منتصف اللّيل؛ فلا هم عادوا إلى فُرُشِهم لمتابعة نومهم، ولا هدأت أنفسهم من صراع الأفكار المتواردة على ذهن الأب، الذي يجهل أسباب قدومهم، واعتقال سمير الطفل ذي الثلاثة عشر ربيعًا، لم يشفع له تفوّقه في صفّه السّابع، المرتبة الأولى حكرًا عليه منذ سنوات تعليمه الابتدائيّة، الآباء والأمّهات في حارتهم يضربونه مثلًا لأبنائهم؛ ليحذوا حَذوه في مثابرتهم على دروسهم، وليكونوا مُتقدّمين في دراستهم باجتهاد؛ ليصلوا إلى مرتبته الأولى في كلّ سنة.

❖❖❖

استغراق معن، أنساه سُبّابته شاهدة للأعلى مُتيبّسة كأنّها عصا، أو إصبع (أبو خليل) ذو الهوى الناصريّ، العنيد باعتناق فكرته الحزبيّة، وما حملت من تناحر وتدابر، وتعارض في الآراء مع النّظام الانقلابيّ الجديد بمسحته اللّامعه (الحركة التصحيحيّة)، صديق والده الأثير إلى قلبه، عندما خضع للتعذيب في فرع الأمن السياسيّ بداية السبعينيّات، آثار الكهرباء التي سرَت في أعصابه؛ جعلتها يابسة، عصيّة على

الانشاء، مُستَفزِرَة في حالة تشهّدٍ دائمٍ، إلى أن ودّع (أبو خليل) دنياه إلى مثواه الأخير -رحمه الله -.

الولّاعة بيده الأخرى أشرقت نارها، والسّيجارة تكتوي مقدّمتها بسرعة أنفاس معن الخاطفة التي تشفط دُخَانها إلى جوفه، بعد إعادة تدويره ما بين حنجرته وفمه، يُعيد تصديره مُتوتّرًا بتأنٍّ مقصودٍ تتّضحُ منه مُتعة التّدخين القلِق.

سُحب الدُّخان تتمازج مع ما ينفثه جليسه سعيد، الصّديق الحميم الودود؛ تكوّنت هالة سميكة صارت حاجزًا في المسافة التي تفصلهما عن بعضهما على جانبيْ المجلس.. ولم تتجاوز المِتْريْن، جعلتهما كأنّهما على طرفَيْ نقيض، كما أنّها جاءت عازلًا جديدًا؛ عزّز حالة الهدوء في المكان المُنقطع بمسافته عن البيوت في مزرعة على أطراف المدينة.

الآراء تدور دورتها فيما بينهما، يتداولونها بأناة وصبر، وإنصات لما يقوله الآخر بأذُنٍ واعية، حتّى إذا ما أخذت صيرورة النّضوج، ثُبّتت على الورق، تأنٍّ في اختيارهما، هامش الخطأ في حساباتهما الدّقيقة لم يكن واردًا على الإطلاق؛ فصناعة المستقبل بحاجة للتضحية، وعيُهُما العميق لما وراء الآن في حاضرهما؛ أدركوا من خلاله أنّما يخطّون دربًا جديدة زاهية للأجيال، تسير بهم إلى العُلا سالكة بلا عقبات ولا منغّصات، منزوعة الخوف من (البوليس) السرّي، وأصابعه التي تعسعس الأشياء الخاصّة عند كلّ فرد؛ لأنّه يُعتبر ذلك من اختصاصه بحكم

حالة الحرب مع العدوّ الغاشم، ووصفة دولة المواجهة الحريصة على حفظ البلد من الجواسيس، والمتآمرين العابثين بأمن البلد، واستهداف النّظام، وإضعاف روح الإحساس القوميّ لدى النّاس، أمرٌ يستدعي التركيز والتفتيش والمراقبة الدّائمة لكلّ نَفَس وكلمة، حتّى الآه في قاموسهم لها مئة.. ومئة تفسير، أدناها ما نَتَج عن الألم، وإذا كانت تذمّرًا لا شكّ أن صاحبها سينال عقابه، والتفسيرات عندهم تأخذ في عين الاعتبار كلّ دقائق حياة المتأوّه.

للتاريخ فلسفته الخاصّة به، لا يبوح بها إلّا لقادرٍ مُتبَحّرٍ، لاكتشاف أنّ مؤسّسات القهر، تبني نظريّتها على استئصال المنافسة لخنقها، أو تسمح لها بالبقاء؛ فلا تستطيع التنفّس إلّا بإذنها، والإقصاءُ وسيلتها لإفقار مجتمعاتها من طاقاتها المُتوثّبة؛ فهي خائفة على مدار السّاعة من انتقام الجماهير.

وعلى رأي معن الذي جاهر به علنًا، مرّات عديدة أمام النّاس، بأنّ الوقوف على رأس الحدث أهمّ من التاريخ.

يضحك ساخرًا من الذين يُعوّلون على التاريخ، مُستشهدًا بمقولة: (علي أبوالرّيش):

- "فالتاريخ مزبلة، كلّ القمامة البشريّة تتراكم في جوفه، ولايتعب من الحفظ والتخزين..، التّاريخ كالعاهرة، التي تفتح ساقيْها لأشخاص

عدّة، ولا تتعب؛ كي تتقاضي ما يملأ معدتها. معدة التاريخ واسعة، كما أنّه أوسع من أجواف عاهرات العالم".

معن يتابع كلامه:

- "التاريخ يكتبه الأقوياء وحدهم، ويرسمون المهازل بريشة أوهامهم المهمومة بجموح خيالاتهم المتهوّرة".

وعلى رأي من قال، وأذكر أنّني سمعته منذ زمن، وفيما بعد دوّنته هنا:

- (الانتقام شريعة الخراب، وفي تخريب عمران الظالم عدالة المظلوم، هكذا يُفكّر الكثيرون، إنّها الحرب السوداء).

سعيد يداعب سُحب الدُّخان بيده يباعدها عن المسافة العازلة بينهما، يرفع حاجبيْه مُستنكرًا كلام صديقه معن، للمرّة الأولى يسمع مثل هذه الآراء بطرافتها غير المعهودة منه، المواهب تتفجّر حينما تستدعيها من صندوق الذاكرة الخلفي، تنبشها من خمولها، وتنفض غبارًا تراكم على طبقتها الخارجيّة، عبر سنين مرّت على اختزانها، وقال:

-"احترازات تحسب الأشياء وما وراءها، تقرأ ما بين السّطور.. وما خلفها من تأويلات تكشف خفايا لا وجود لها، مليئة بنظرات حاقدة متوجّسة تشتبه بأدنى موقف، وتعتبره ضدّها، وتتّخذ منه عدوًّا، ومن فورها تشنّ حربها الاستباقيّة بلا هوادة، وتُتكّل أبشع ما يخطر في عقل البشر؟".

طالت جلستهما إلى ما بعد مُنتصف اللّيل، تعاهدا على كتاب اللّه، أمام اللّه، أن يفي كلّ منهما بعهده، وأيديهما تشدّ على بعضها بقوّة؛ لتثبيت ما نطق به لسانَهُما، وتوثيقًا لا يقبل النقض مهما كلّفهما الأمر، وإن كان به موتهما، ولا تراجع أبدًا، التراجُع أقسى من الهزيمة، آخر ما قاله معن:

-"أن أتابع إلى النهاية وأفشل أو أنهزم، أشرف عندي مليون مرّة من التخاذل، موقفنا هذا لن يجود به الزّمان يا سعيد قبل مئة عام قادمة".

أُطفِئَ الضوء خفيض النّور، وَقَفَا على عتبة النّافذة وزيادة في الحرص والطمأنينة استطلعا خارج الغرفة؛ ليكونا في مأمن عند خروجهما، مضت عشر دقائق خلالها تأكّدا، أنّه لا عيون تراقب طريقهما، خرج معن أوّلًا، بعده بخمس دقائق أخرى، حتّى يستطيع سعيد الخروج، والانسحاب من المكان بهدوء.

❖❖❖

تنام عين الظّالم، وعين المظلوم لم تنَمِ تتطلّع إلى السّماء شاكية، ما إن بدأت خيوط النّهار تشقّ طريقها مخترقة بقايا ظلام اللّيل، نفض عبدالرحمن أبو سمير عنه أحمال التّعب والإرهاق، تناوبته الخيالات والأوهام على مدار ساعات ثلاث، بعد أن انطلقت سيّارات (البيجو)

الخمس، عامرة بعناصرها المُدجّجين بكامل عتادهم الحربيّ، اقتادوا الطفل سمير، وحشروه في صندوق إحداها، وأغلقوا الباب عليه.

❖❖❖

حقيقة..!!، هل يعتقدون أنّ سميرًا سيُظهِر أدنى مقاومة لهم..!!؟، إذا كان الأمر غير ذلك، فما هي دوافِعُهم لإظهار همجيّتهم بِتَرويعِنا، وبثّ الذّعر في نفوس أولادي؟، يا لهم من قُساة..!!.

كلام رئيس الدوريّة ما زال صداه يتردّد في أذنيّ لا يبرحهُما، يثقبُ طبلتهُما بعناد وإصرار، تشبّع أطفالي خوفًا ورُعبًا؛ سيُغطّي مساحات حياتهم كاملة حتّى مماتهم، سيذكرون ما رأوْا بأعينهم، منظر سمير وهم يقتادونه.. الصغار يكبُرون.. وتُسافر معهم أحلامهم وآمالهم.. لا يبرحونها.. وهي لاصقة بهم كظلّهم.. تبقى تحفر مساربها في حنايا دواخلهم.. حتّى إذا ما جاءتها الفرصة؛ تكون ساعتها جاهزة للظّهور، ما وُجدت إلّا لتعيش، ويكون لها نصيب في مسار حياتهم.

الآلام صِنْو الأحلام تنتقل لكلّ مراحل العمر، لا تنمحي بتقادم الزمن؛ فإذا ما تقدّمت إلى ساحة الشّعور وبؤرة التَّركيز، حتّى تصدُر زفرة:

-"الآه..".

عميقة كأنّ أسنانها تُمشِّط الأعماق؛ فَتُدمِيها، وتحضر من مخزون الذاكرة إلى الأمام طازجة، كأنّ وجعها واقع بصاحبه للتوّ.

صُراخه شقّ صمت اللّيل، هزّ السّكون في بيتنا وما حوله، الجيران بعضهم أحسّ بما يجري حوله في بيتنا، راح يراقب بحذر بالغ من خلف ستارة النّافذة كاتمًا أنفاسه؛ كي لا تفضحه.

❖❖❖

ضاقت الدّنيا على أسرة عبدالرّحمن. زوجته أمّ سمير لم تنشف دمعتها على مدار ساعات طويلة، ولم تتوقّف وَلوَلَتُها على ابنها. الصّغار واجمون. أعينهم تدور في رؤوسهم تنتقل من معاينة وجه الأمّ ثم الأبّ. الصّدمة ألجمت لسان عبدالرّحمن، ولم يستطع التفوّة ولو بكلمة واحدة.

-"فطنتُ الآن، لانقطاع التيّار الكهربائيّ عن حارتنا، لم أنتبه لذلك من هول الصّدمة المفاجئة، أيقنتُ أن الأمر مقصود، خاصّة عندما صعدت إلى سطح البيت؛ لتتأكّد ظُنوني، وقد كان الظلام يلفّ المدينة (درعا البلد) بأكملها.

استدرتُ عكس الاتّجاه؛ أتتني أنوار متلألئة من منطقة المحطّة، وشمال الخطّ (في درعا المحطّة)". هذا ما قاله لنفسه عبدالرحمن أثناء خروجه من البيت بعد ساعتيْن من ذهاب الدّوريَّة.

فَطِن بعد وصوله إلى ساحة الحارة أنّه لم يغسل وجهه، ولم يمشط شعره المنفوش، عيناه منتفختان، حلقه جافّ نسي عطشه، ما تذكّر إلّا عندما دخل إلى دكّان سلامة لشراء علبة دخّان وولّاعة، مدّ يده إلى جيبة (البيجاما)، ضرب بيده على رأسه:

-"أوه، سامحني فقد نسيتُ محفظتي في جيب البنطلون، وما وعيتُ أنّني أخرج بالبيجاما، سجّلها على الدفتر، وإذا سمحتَ ناولني كاسة مَيْ. ريقي ناشف، اللّه ينشّف أرياقهم".

استدار خارجًا، وسلامة لم يتكلّم بكلمة واحدة، ما إن نقل قدمه لوضعها خارج عتبة الدكّان.

- جاءه صوت سلامة: "أبو سمير، شو صاير عندكم؟".

-"واللّه، مع انطلاق أذان الفجر أثناء نومنا، اقتحمت دوريّة الأمن بيتنا، واعتقلوا ابني سمير، بعد أن قلبوا أغراض البيت فوقاني تحتاني، وتركونا في حالة يُرثى لها، ما زالت أمّ سمير تبكي والأولاد من حولها لم تنقطع دمعتهم".

- سلامة: "منذ ساعة أو أكثر، جاءتني حليمة بحليب بقرتها، وأخبرتني عن اعتقال أولاد كُثُر من الحارات الأخرى المجاورة لحارتنا".

-"أما عرفتَ كم عددهم؟".

- سلامة: "واللّه حسب كلام حليمة، ممكن (خمَستَعِشْ، أو سِتّطَعِشْ) ولد".

-: "أما عرفت مشان شو اعتقلوهُم".

- سلامة: "لا واللّه، بس ممكن حسب تكهُّنات حليمة، أنّهم كانوا كاتبين على الحيطان إشي ضدّ الدولة".

-: "آه..!!، لكان هيك الموضوع؟".

فتح علبة الدخّان وأشعل سيجارة منها، سَحَب منها نَفَسًا قويًّا، ونفث دخانها من أنفه مصحوبًا: "بأووووف". وتابع:

-: "يعني ماعرفت أولاد مين إلّلي أخذوهم؟".

-سلامة: "أكيد إنّهم من أولاد الصياصنة، والأبازيد، والمسالمة، والسويدان، والخليلي، واللّه ما بعرف مين بعد غير هيك".

-: "بس إن شاء اللّه ما تكون حليمة رِجْعَت لعادتها القديمة". قالها بلهجة تفضح ضجره مفجّرة مخزون قهره المُستكنّ لهيبًا، يريد تصريفه بأيّة طريقة كانت.

-: "هاي المرّة أكيد، لء".

❖❖❖

سار بخطوات بطيئة مُتعثّرة، هائمًا على وجهه هدّه التعب، قادته قدماه إلى الساحة الرّئيسة، التي عادة ما يتجمّع فيها باصات (السَّرفيس)؛ لنقل الرّكاب بين شطريْ المدينة.. قاطعة الوادي السّحيق بنزوله.. وصعوده الحادّيْن.

جلس على حافّة الرّصيف أمام أحد محلّات بيع (سندويشات) الفلافل، ومشروبات (الكولا)، والعصائر المُعلّبة.. يتأمّل المارّين أمامه ذهابًا وإيّابا.. لم يُلق له أحد بالًا، ولا لفت انتباه أحدهم.. الجميع في عجلة من

أمرهم للحاق بأعمالهم وأشغالهم، ولم يَدْر عن مصيبته أيّ عابر.. همّه كبير بحجم الدنيا يحمله وحده، ولم يتلقّ أيّة مواساة.

بينما هو على هذه الحالة المُتردّية من انحفاض معنويّاته.. السّيجارة لم تنطفئ منذ أن خرج من دكّان سلامة قبل ساعة.. نظراته هائمة لا يستطيع التّركيز على أيّ شيء.

خرج شابّان من المطعم يحمل كلّ منهما (سندويشة) وعلبة عصير، وهما يلتهمان ما تقضمه أسنانهما بسرعة.. بينما خرجت كلمات أحدهما الأقرب إلى عبدالرحمن مفهومة.. رغم أنّ فمه مملوءٌ بالطعام:

-"سمعتُ مبارح في اللّيل أنّهم اعتقلوا (سبعطعشر) ولد، ساحبينهم من فراشهم أثناء نومهم، أمام أعين آبائهم وأمهاتهم".

-"شو هالحكي..!!؟، واللّه ما سمعت إلّا منك الآن، ليش شو مُسَوّوين لحتّى أخذوهم؟".

-"قالوا إنّهم كاتبين على حيطان المدرسة إمْبارح، عندما كانوا يلعبون كرة القدم بعد العصر، بس ما عرفت مين الجهة إلّلي أخذتهم".

-"مين ما كان يكون..، يلّلا امشي بسرعة خلّصنا.. مشان نلحق الوقت لتقديم أوراقنا في الجوازات، قبل انتهاء وقت تسليم المعاملات".

-"اللّه يفرجها ويجيب العواقب سليمة".

ما زال عبدالرحمن جالسًا مستغرقًا في دوّامة أوهامه.. يضرب أخماسًا بأسداس.. يهذي باسم سمير بين لحظة وأخرى.. ومن المارّة من ينتبه إليه

ظنًّا منه أنّ الكلام موجّه إليه.. ويتابع طريقه عندما يتأكّد.. أنّ هذا الرّجل الجالس على الحافّة يتكلّم مع نفسه.. ومنهم من يرفع صوته بالحوقلة.. وهو يتابع طريقه.

❖❖❖

"عادة ما تسبق النصوص المُتوهّجة، من لا يستطيع اللّحاق بها، وتلحق بمن يستطيع أن يسبقها". قالها (زياد) قبل لحظة الوداع الأخيرة، بعد حديث طويل مع صديقه معن، أثناء لقاء ليس عابرًا على (الماسنجر)؛ بل يكاد أن يكون مُنتظمًا، من خلال العالم الافتراضيّ ما بين درعا وعمّان على أرض الواقع.

فلا وقت للانتظار؛ الدقائق تمرّ خاطفة بوميض كالبرق حارقة مسافات الحياة، ربّما تكون مؤّهلة لتخطّ نقطة بيضاء على جدارٍ أسودٍ باهت، تقادَمَ عليه العهد؛ فتراكم عليه غُبار الزمن، والأيّام تمرّ رتيبةً فاقدةً نبض الحياة المتجدّد، الجدارُ جامدٌ، كَمَوتٍ مُخيفٍ يُداهم ضحاياه على مدار السّاعة.

أكوامُ أوهامٍ؛ تتعبّد ليلًا ونهارًا أمام الجدار، تُعلن ولاءها المُطلق، وإيمانها العميق باستمرار صلابة الجدار، وتدعوا اللّه أن يديمه صامدًا شامخًا؛ ليبقى الأمن والطعام.

❖❖❖

هناك بحيرة آسنة متجاورة مع الجدار، تُشرق الشّمس كلّ يومها عليها، وينعكس ظلّ الجدار الثّقيل عليها، يُغطّي صفحتَها السّاكنة، فلا شيء يتحرّك، سكونٌ مُريبٌ حدّ الرّهبوت، يثير تساؤلات كثيرة وهامّة، والأجوبة معدومة مطلقًا.

بالفعل هي لوحة حقيقيّة في متحف الرُّعب البائس "فوق الأرض".

القاعُ حسب قوانين الجيولوجيا تحت، عكس فوق، بينما تتكشف الحقائق جليّةً في أعماق البُحيرة مُتوافقة فيما بينها فيزيائيًّا، حركات وصراعات تحت القاع، كما النّار تحت الرّماد خامدة، إلى أن تتفاعل مع محيط يتلاءمُ مع خاصيّتها؛ لتنطلق مجدّدة نشاطها، وبجملته السِّحريّة الشهيرة التي ما فتئ (زياد)♦ يردّدها:

-"اللّذة في القاع"، لما فيها من "العودة إلى بداية التكوين"؛ "لأننا نحن أبناء التضاريس الصعبة، ودكتاتوريّة الجغرافيا"؛ فكان ذلك أنّ: "كلّ المسارات المنحدرة التي تحيط بوسط البلد من جميع الجهات، إنّما تُجسّد فكرة الرَّوافد التي تصبّ في نهاية المطاف، داخل بوتقة القاع".

فتكون البحيرة بمفهومها المقابل للجدار، على أنّها بوتقة تنصهر فيها جميع المكوّنات، وتستوعب كافّة السيول المُتحدّرة إليها من الأعالي.

ولكن أين اللّذّة التي نَشَدَها؟، وتلذّذ بها زياد في قاع مدينة عمّان، وهي تحتفظ بغبار أحذية من مرّوا بها على إبلهم أيّام زمان، وبروائح عطورهم، وأجسامهم تَعبَقُ بها أُنوف عابريها.. وتسترخي أرواحهم

لشعورها بدفء روحيٍّ مُحبّب جاذب.. عندما تنزل من الأطراف العالية إلى القاع، والقاع هنا، أيضًا "فوق الأرض"، على خلاف قاع بحيرة الدمّ هناك في درعا.

❖❖❖

معن المهندس، صرخ من قاعِ القاعِ للبحيرة، عُنفُ اهتزاز قاعها، جاء فوق مقياس (ريختر) بضعفيْ درجاته، من الطبيعيّ فيزيائيًّا تكلّس الخامد السّاكن بلا حركة؛ فصفحة السّطح الرّاكد منذ زمان؛ صارت قطعة جامدة، متلوّنة باخضرار الإشنيّات والطُفيليّات، وقد تمدّدت؛ لتُغطّي كامل مساحة السّطح، ولا تترك فُرجة.. ولو بسيطة لدخول أشّعة الشمس والأكسجين، فاستأثرت يوميّا وهي تستغلّ حرارة الشّمس وحدها، وحرمت أهل القاع من بصيص نور لها، وكادت أن تُطبق على كلّ مسامات السّطح، لا تسمح بدُخول كميّات من الأكسجين إلّا بقَدَر، ولو استطاعت أن تضع عدّادات لحساب كميّات استهلاكه، وفرض الضريبة أو الغرامة أو العقوبة، على كلّ من يتجاوز حصّته المُقَنّنة، كما دفاتر توزيع المُؤَنِ الشهريّة المُقنّنة (البُونَاتْ). أهلُ القاع فعلًا..!!.. استكانوا لاستمرار عيشهم، وغالبيّتهم صدّقت، مقولة:

-"دولة المواجهة، والإعداد للمعركة الكبرى مع الإمبرياليّة والصهيونيّة والرجعيّة، وهذا يستلزم منهم شدّ الأحزمة على البُطون؛ لتوفير كلّ لُقمة للمجهود الحربيّ".

❖❖❖

سَرَتْ صرخة المهندس معن، قويّة مُدوّية؛ خرجت من أعماقه؛ لتهزّ قاع الجدار في أساساته بثباث وصرامة، من بين الأنقاض خرجت إلى السَّطح صرخته من كينونتها المكبوتة في القاع؛ تُعلن عن نفسها بجلاء ووضوح لا لَبْسَ فيه ولاغموض، جليّة بحقيقتها على أعين الملأ؛ لتصطدم بالجدار العتيق الهرِم المتهاوي؛ فانشرخ عن عُيوبه الفجّة في التصميم والتكوين، سقطت آخر ورقة توت، وانكشف ما تحتها هشًّا مُهترئًا رثًّا قميئًا مقزِّزًا، خلاف صورته التي حاول رسمها بألوان برّاقة تخطف الأنظار وتُبهرها، وتبقى زاهية في أذهان الجماهير، إضافة لما أحدثته عوامل الطبيعة، وقد تركت آثارها العميقة على بُنيته التنظيميّة المُتَخلخِلَة، الغارقة في مهاوي الفساد والرّشاوي والمحسوبيّة، وإعطاء إجازة إجباريّة للقانون، وإدخاله غُرفة ثلّاجة الموتى؛ لتغييبه عن ساحات الحياة، وجعل القاع يتربّح في دوّامة لا بداية لها.. ولا يبدو أنّ لها نهاية، فكانت دائمة مُستدامة.

معن مؤمن إيمانًا مُطلقا بعدالة صرخته، كما إيمانه بالله، وأنّها لا بدّ أن تبلغ هدفها بإسقاط الجدار، بعد اهتزاز كيانِه وانشراخِه، وعلى الجانب الآخر حدث النقيض في المستنقع، فالأشنيّات والطُفيليّات وقفت مشدوهة لا تُصدّق ما ترى وما تسمع، مُشكّكة مُخذّلة بصوابيّة صرخة معن، بينما انطلقت الأبواق المنصوبة أعلى الجدار، تُوَلوِل بضجيجٍ ممجوجٍ صمّ الآذان، مُعلنَة:

-"مؤامرة كونيّة تستهدف صلابة الجدار المانع".

-"إرهابيّون سلفيّون جاؤوا من وراء الحدود".

-"عصابات تتعاطى حبوب الهلوسة، قطعنا الماء عنهم.. حتى لا يجدوا شُربة ماء.. لمنعهم من التّعاطي".

معن صلب الإرادة، من الممكن أن تلين صُخور البازلت، بينما يقينُه يزداد رُسوخًا بعدالة قضيّة شعبه المظلوم منذ أربعين دهرًا، لم تُثنه الاتّهامات، وإسراف الأبواق في تشويه صرخته، رغم أنّها كانت (تسونامي)؛ فلم يستطع الجدار، ولا الذي خلفه أن يصمد أمامها ويَثْبُت.

وعلى عُهدَةِ الخُبراء:

"فإنّ صرخة معنٍ جديرة أن تُؤرّخ؛ فالبدايات لها شرف السّبق".

❖❖❖

الظُّلم عامٌّ في جميع مجالات الحياة، الإحساس به مُتفاوت من شخص لآخر، فمن وقع عليه بشكل مباشر؛ من المُتوقّع منه أن يقوم بالصّراخ؛ لجمع الآخرين حوله، كي يشاركوه إحساسه أوّلًا، ويعملوا بشكل جماعيّ على مؤازرته؛ فشعوره بالقوّة والمنعة وهو يُحاول رفع الظلم عنه، فإن استطاع؛ فيكون بذلك قد حقّق شيئًا، وصاغ منها قصّة بطولة شخصيّة.

أمّا إذا كان الظلم قادمًا من جهة الجدار، الذي كنّى به المهندس معن عن النّظام؛ بفلسفة خاصة به، وأراد من وراء ذلك ترسيخ مفهوم جديد في عقول مُحبّيه ومُتابعيه، ألا وهو مصطلح الجمود المُضادّ للحركة، تتوقّف عجله الحياة على كلّ أصعدة الدّولة، واختطافها من مضمونها، وتوجيهها إلى اتّجاهاتٍ تخدم أغراضهم ومآربهم وأهدافهم.

في جلساته مع أصدقائه، دائمًا ما يُثير تساؤلات، تستدعي من سامعيه وضع إشارات استفهام حولها.

-"يا جماعة الخير، ألسنا نستخرج البترول من حقول (الرّميلان والسويدية وكراتشوك) منذ زمان؟، وفي السَّنوات الأخيرة دخلت حقول (ابن عمر)، و(عين ديوار) وغيرها، إضافة لحقول الغاز التي تفيضُ عن حاجاتنا الداخليّة، وفيها كميّات تجاريّة تجلبُ العُملَة الصعبة لرفد اقتصاد البلد المنهار".

معلومات جديدة تفيض على أسماعهم غرابة، لأنّها تطرق مسامع الكثيرين منهم للمرّة الأولى في حياتهم؛ فيقابلونها بهَزّ الرؤوس استهجانًا، وهم يرفعون حواجبهم إلى أعلى مع اتّساع فتحات الأعين علامة الاستغراب، أين هم من هذا الحديث؟، الذي يطرق مسامعهم للمرّة الأولى..!!.

-"ألا تذكرون عندما ربطوا مصفاة الزّهراني في لبنان بخطّ بترول خام، وخطّ للغاز لتوفير حاجاتها من عندنا بأسعار تفضيليّة، إضافة للتصدير إلى العالم الخارجيّ؟".

صديقه الحميم سعيد، يتساءل بتهكّم واضح في لهجته:

-"ما دامت هذه الخيرات كلّها عندنا، وفي حوزتنا، أستغرب أن ليرتنا السوريّة كلّ فترة تهبط أمام الدُّولار بشكل مُريع؟، حتّى تجاوزت بهبوطها لمعدلات تساوي الخمسين ليرة للدّولار الواحد، وأكثر".

ضحكةٌ مُدوّية من معن، صدمت الموجودين، ففتحوا أفواههم وأعينهم على اتّساعها متهيّئين لسماع ما سينطق به، بعد أن استعاد هدوءه اعتدل في جلسته، مسح وجهه من أثر دموع نفرت على إثر ضحكته المثيرة.

مدّ يده، وتناول سيجارة من يد جاره الجالس بجانبه، مالَ بيمينه نحوه؛ ليُشعلها من ولّاعة جاره الذي بادر بمدّها إلى معن، وهي عادة دَرَج عليها من يُقدم سيجارة لآخر.

معظم الجالسين سحبوا نَفَسا عميقًا من سجائرهم، وتهيّأت آذانهم لما سيقوله المهندس، هم متأكّدون من حقيقة ما يقوله، ولا قدرة لهم على مناقشته فيما يطرَحُ عليهم من آراء، وهم أقرب إلى تصديقه بلا تشكيك، أو أدنى ريبة لما يسمعون منه. نظر باتّجاه الباب، قطّة تموء لفتت انتباهه. وقال:

-"يا عمّي..!!، سمعتُ يقينًا من صديقٍ حميمٍ، كان عُضوًا في مجلس الشّعب، بالطبع..، لا أستطيع ذكر اسمه، حتّى لا أتسبّب له بالحرج والمُساءلة أمام الجهات الأمنيّة. أخبرني، والكلام على عُهدته:

-أنّه في أحد جلساتهم الاعتياديّة في إحدى دورات المجلس الاستحقاق الدستوريّ، تساءل بعض الأعضاء عن أموال البترول، وأنّ الوضع الاقتصاديّ من سيّىء لأسوأ ، هُبوط اللّيرة أمام (الدُّولار واليورو).

تشجّع رئيس اللّجنة الاقتصاديّة في المجلس بمطالبة رئيس المجلس، بالطلب من رئيس الحكومة بالسّماح لوزير البترول والثروة المعدنيّة؛ للحضور في المرّة القادمة؛ والإجابة عن تساؤلات، واستفسارات الأعضاء". وعندما حضر، كانت إجابته، والكلام يا أصدقائي؛ وحتّى أكون صادقًا فيما أروي لكم، وعلى عُهدة النائب صديقي:

-"إنّ أموال البترول، لا تدخل على موازنة الدولة، وهي موضوعة في أيَادٍ أمينة".

❖❖❖

الحديث ذو شجون وفتون، تعقيباتٌ مثيرةٌ تجاذبتها النِّقاشات في مجالات مُتشعّبة، وكلّ فكرة تجرّ أخرى، والطُّروحات تستدعي النِّقاش حولها، إذا كانت بثقل ما سمعوا من المهندس.

سعيد لم يألُ جُهدًا بمحاولات عديدة للدّخول في رواية قصّة مختلفة، سمعها من صديقه نصّار، لاحتدام صراع الأفكار حول قضايا مختلفة تهمّ الجميع، وتمسّ حياتهم مباشرة، بُحّت أصوات بعضهم من مواصلة الحديث مع كلّ من طَرَح قضيّة، وطلبوا من صاحب البيت كأس ماء؛ ليذهب بجفاف حلوقهم؛ وللتخفيف من معاناة نائمة، استيقظت على وقع الألم المُمضّ، المُتوالد بلا نهاية منذ مولدهم إلى هذه اللّحظة التي هم بصددها. المُشكلة أنّهم يعرفون الكثير والكثير، الخوف حاجز مانع للاسترسال بعيدًا؛ فالتوقّف إجباريّ، دون مُجالَدَة النّفس الميّالة للدَعَة والرّاحة، والبحث عن حلول للمشاكل العقيمة المُستعصية على الحلّ، خلاف صديقهم المهندس.

الجميع بحاجة لاسترداد الأنفاس. صمتٌ مهيبٌ. ربّما يكون للمرّة الأولى في تاريخ سهراتهم المعتادة، ما بين مجاملات وتسلية، وبعض النّقاشات العامّة في الحياة الاجتماعيّة، البسيطة بطروحاتها بعيدًا عن السِّياسة ووجع الرأس، والأكثريّة السّاحقة تلجأ للعب الورق كلّ يوم، للتسلية وتمضية الوقت، فيما لا يضرّ شؤون حياتهم ومعاشهم.

❖❖❖

جاءت اللّحظة المناسبة؛ لاستلام سعيد دفّة الحديث، والاتّجاه به إلى وجهة أخرى أبعدتهم عن النّقاش المتمحور حول حديث السّاعة الذي استغرق وقتهم، ويبتعد بهم قليلًا عمّا اختلفواعليه.. أو اتّفقوا حوله، من فوره أخذ جولة بعينيْه؛ تفحّص فيها وجوه أصدقائه. أوّل سؤال وجهه للمهندس:

-: "باللّه كم السّاعة صارت؟".

-: "ربعُ ساعة، وينطبق العقربان على بعضهما؛ فتكون الثانية عشر، نهاية ليلتنا هذه، وبعد الدقيقة الأولى منها، نكون قد دخلنا في يوم جديد".

-سعيد: "سأحاول جاهدًا الاختصار، أن لا تتعدّى حكايتي ربع السّاعة الأخير من سهرتنا التاريخيّة. صديقي نصّار من "بصرى الشّام"، له ابن عمّ اغترب في ليبيا لعدّة سنوات، قتلته الأشواق إلى أهله وأصدقائه وبلده.

قرّر العودة، وكما تعلمون أنّ ليبيا كانت تخضع للحصار الجوّي، خطوط الطيران متوقّفة، التزامًا بالحظر الذي فرضته الأمم المتّحدة، ومجلس الأمن الدُّوليّ، والوسيلة التي كانت مُتاحة أمامه آنذاك، ولكلّ من يرغب السفر من ليبيا وإليها، هي حافلات النقل الجماعيّة برًّا.

فما إن وطئت قدماه أرض معبر نصيب الحدوديّ مع الأردنّ، حتّى صرخ بأعلى صوته:

-"سوريّة اللّه حاميها".

وخرّ ساجدًا في وسط السّاحة الإسفلتيّة الواسعة المُخصّصة لوقوف السيّارات، بصرخته لفت إليه أنظار كلّ من سمع صرخته، الدهشة تسيطر على الموقف، قام من فوره واقفًا شامخًا، وتقدّم ابن أخيه للسَّلام عليه، وأخذ حقيبته وحاجاته لإيصالها له إلى البيت هناك في مدينتهم.

قبل أن يختم جواز سفره بالدّخول إلى الأراضي السوريّة، توجّه إلى مكتب العميد رئيس مركز الحدود، بعد السّلام عليه، عرّفه على نفسه، ومن ثمّ أطلق مفاجأته غير المتوقّعة أبدًا، لأنّها المرّة الأولى منذ أربع سنوات عندما نُقل العميد إلى موقعه هذا، بأن يُطلب منه ما طلب هذا المُسافر القادم من ليبيا (فائق):

-"سيّدي أنا غائب عن وطني من حوالي عشر سنوات، ونذرتُ نذرًا بأن أزور قبر السيّد الرّئيس في القرداحة سيْرًا على الأقدام، وذلك قبل الذهاب لبيتي، ومشاهدة أولادي وزوجتي وأهلي".

العميد هزّ رأسه ذات اليمين والشّمال، وعلامات التعجّب ارتسمت على وجهه:

-"ولمَ لا..!!، يُسعدني مقابلة المواطنين الشّرفاء أمثالك أخ فائق، الأوفياء لوطنهم وقائدهم حتّى بعد موته، تفضّل استرح على الكنبة خلفك".

فائق، يمسح دموعه التي سحّت على خدّيْه، وصدر منه نشيج مكبوت منذ سنين، اهتزّ العميد بانفعال ظاهر، وصوته وصل للمكاتب المجاورة، توافد إليه بعض الحُجّاب ظنًّا منهم أن شيئًا حدَث للمعلّم، ما إن رآهم مُتَجَمهِرين على باب المكتب، حتّى أشار إليهم بحركة من يده بالانصراف، فانصرفوا.

-"أنا معاك، شو إللي يبكّيك..!!". قال العميد.

-فائق: "يا سيدي راحت نغصة بعمري، أن يموت السيّد الرّئيس، وأنا خارج البلاد، ولو كنتُ هنا، لو أنّي لم أجد ما يحملني إلى هناك للمشاركة؛ لكنتُ ذهبت مشيًا، ولكنّي منذ تلك اللّحظة (إلّي تِتْذكِر ولا تتعاد)، نذرتُ لله إن أحياني ورجعتُ سالمًا، أن أسير إلى قبره".

العميد أمسك جهاز الهاتف، وضرب مكالمة هاتفيّة إلى قائد شرطة المحافظة، ليخبره بما حصل معه؛ ليأخذ التوجيهات منه، سالم جالس وهو يكفكف بقايا دموع، ينظر انفعالات وجه العميد أثناء تلقّي الأوامر من قائده، وهو يهزّ رأسه علامة الإيجاب، ولم يتفوّه بجملة مفيدة خلال الخمس دقائق مدة المكالمة إلّا كلمة:

-"حاضر سيدي".

ضغط بإصبعه على كبسة الجرس، فحضر الحاجب على الفور، خاطبه:

-"يا بني، شوف الأخ فائق شو بيشرب".

-فائق: "سيّدي اللّه يخلّيك، فقط فنجان قهوة سادة، وكأس ماء أحسّ بجفاف ريقي، قلبي يكاد أن يتوقّف".

العميد، يجلس مكانه، وقد انزاحت عنه علامات التوتّر. الموقف استثنائيّ، سَحَب عُلبة (السيجار) من دُرج الطاولة، وأشعلها، سحب أوّل نَفَس منها بارتياح، بدا من طريقه نفثه للدخان للأعلى مع الآه الصادرة من أعماقه، وكأنّ حملًا ثقيلًا انزاح عن كاهله، وقال:

-"سلامتك، أنا في خدمتك وكلّ الشرفاء من أمثالك".

فائق تحلّب ريقه، وهو يُكابد شوقه من وخز التّدخين في دمه، تمنّى لو أنّ العميد يعرض عليه قطعة (سيجار كوبيّ)؛ فإنّه لن يتردّد لحظة واحدة من مدّ يده لأخذها؛ ليستعيد بعض ذكرياته مع هذا النّوع من الدخّان الفاخر، عندما كان يوصي عليه من لبنان مع العساكر الذين كانوا يخدمون هناك، ويجلبون معهم الأغراض والأشياء لبيعها في سوريّة؛ لتحسين وضعهم المعاشيّ، ومنهم من جمع ثروات حقيقيّة من التهريب بين البلديْن، خاصّة الضبّاط وصفّ الضبّاط والعساكر.

ولاسيّما وهو يحكي فيما بعد لابن عمّه نصّار صديقي، أيّام اشتغاله ببيع الدخّان في دمشق على الأرصفة، بعيدًا عن أعيُن دوريّات الشّرطة التي تغضّ الطّرف عمدًا عنهم، مقابل مبلغ يوميّ، يتقاضونه من كلّ بائعي المُهرّبات، هذا يهون أمام صورة مُنطبعة في ذهن فائق لا تفارقه كلّما عَنّ له ما يُذكّره بها، لرئيس الوزراء البريطاني (تشرشل)، وهو يعتمر قُبّعته الشهيرة، و(السيجار) بفمه لا ينقطع، شعور عارمٌ بالعظمة، وهو يتمثّلُ رجلًا قائدًا طبّقت شُهرته الآفاق، واحتلّت صُوَرَه صفحات التّاريخ، جنون العظمة يجري منه مجاري دمه، لايفارقه أبدًا، يظهر إذا وجد مُتنفّسًا له.

حضر فنجان القهوة بعد دقائق معدودات، وضعه الحاجب على (الطرابيزة)، واستدار خارجًا، جاءه صوت العميد:

-"يا بني شوف السّائق خلّيه يجهز سيّارة البريد، ليأخذ الأخ فائق لإتمام إجراءاته القانونيّة".

❖❖❖

نشوة انبثقت من أعماق فائق؛ نفّسَت شيئًا من احتقان داخله المُتأزّم بصراع ما بين الذّات والواقع المفترض أن يعيشه، بعد عودته إلى أحضان بلده ومسقط رأسه، أفكار تطرق بعنف عليه في محاولة لاثبات ذاته، في خضّم أمواج المجتمع، لابد وأن يحكي عنه، باختلاف خطوته التي

قام بها غير العاديّة بكلّ المعايير، في ظنّه أنّه يتوجّب على محيطه أن يتوقّف ولو للحظة للاستماع له، وهو ينادي:

-"ها أنذا عُدتُ إليكم، أنا بينكم رقم صعب؛ لا يمكن أن يتجاوزني قطار الزّمن، وإن تقادمت السّنوات على غيابي عنكم".

بكلّ هدوء أخذ نفَسًا عميقًا، وطرح ما احتقن في رئتيْه من هواء بتمهّل، استعاد توازنه بعدما سمع كلام العميد.

ابتسامة خفيفة ارتسمت على شفتيْه، وهو يهزّ رأسه، ولسانه ينطلق بعبارات الشّكر والتقدير للعميد، الذي عمل على تحقيق أمنيته، واستأذنه:

-"سيّدنا، هل التدخين هنا في المكتب مسموح؟".

-العميد يستدرك متأسّفًا: "أخ فائق حقّك علينا، وواجبك كبير، لكن الحقيقة أنّها القطعة (السِّيجار) الوحيدة المُتَبقية في العلبة، ولا أدري كيف سأتدبّر أمري، إن تأخّر عليّ سائقو سيّارات الرّكاب العابرة إلى الأردنّ والسعوديّة والخليج، من المُتوقّع أن يصل أحدهم في هذا اليوم، مثل منت عارف، هذا (السِّيجار) كُوبيّ أصليّ، هون عندنا تجي أنواع مُقلّدة من جنوب أفريقيا والأرجنتين، وهاي ما بتروق لي، طعمُها مختلف تمامًا عن هاي".

-فائق: "سيدنا عدّاك العيب، الأمر عادي".

وتناول سيجارة من علبته وأشعلها، يا لها من لذّة بعد عناء السّفر لثلاثة أيّام مُتوالية. إرهاق دقّ كلّ عضلاته ومفاصله، وتابع استرساله:

-"فنجان قهوة بمكان محترم، بحضرة رتبة عسكريّة فخمة، بشائر خير؛ ستفتح لي الباب على مصراعيْه أمام تحقيق طُموحاتي، وسعادتي لا توصف، ولا يمكن أن تعادلها إلّا لحظات العمر الجميلة النّادرة، هكذا أتوقّع أن يكون خبر رحلتي التاريخيّة قد سبقني إلى بُصرى، عند عودتي إليها سيستقبلوني، استقبال الفاتحين والأبطال. يجب أن أكون مختلفًا عن محيطي الرّوتيتنيّ في البلد، سأدخل التاريخ من أوسع أبوابه، ولن ينطفئ ذِكْرِي حتّى بعد موتي".

سرح بعيدًا بأفكاره الخياليّة باتّساع الأُفُق. عيناه تتأمّلان وجه العميد المدوّر الأبيض المُوشّح بحُمرَة الخدّين كتُفّاحة شهيّة، شَعرُه الدّاكن بشُقرته الموشّاة بشُعيرات بيضاء مُتركّزة على فُودَيْه، أضفت جمالًا مُتناسبًا مع عمره، واكتمل التناسق بتسريحة شعر أنيقة.

تمثال لرأس الرّئيس مطليّ باللّون الذهبّي، يتربّع على يسار الطاولة، بينما صورة كبيرة للرّئيس الخالد تتّخذ من وسط المكتب قاعدة لها، وعن يمينها صورة ابنه الرئيس الجديد الذي خَلفَهُ، وعن يساره صوره ابنه الذي مات في حادث سيّارة قبل سنوات.

انتفض جسد فائق، وهو يتأمّل وجه الرّئيس المرحوم، عيناه تخترقان أعماق أعماقه، تنغرزان فيه كمخارز موجعة باعثة على الارتجاف

المخيف، قلبه على وَشَك التوقّف، أنفاسه تُكابد مسارِبَها؛ لتخرج مُتقطّعة على دُفعات وهي تُعاني من ضيقها، يفرُك كفّيْه ببعضهما، يمسحُ بهما على وجهه، على نحو مفاجئ أدرك أنّه أمام الصورة فقط، وأنّ خياله شطح به بعيدًا؛ فاستعاد نفسه من غيبوبة، أذهبت عنه الحالة، هدأ شيءٌ ما بداخله، توازنٌ أرجعه إلى واقعه، نظر إلى العميد الذي لم ينتبه، عندها قال في نفسه:

-"يا أخو الشرموطة شغلتنا بحياتك، ولم تتركنا بعد مماتك".

خاف فائق من أن تفتضحة نظرات الصُّورة الحادّة النّاقبة، العميد مُنشغل في مطالعة أوراق البريد اليوميّة، يقرؤها بأناة، يُوقّع على بعضها، ويضع الأخرى في مُصنّف أسود أمامه لإعادة توزيعها على الأقسام.

بحركة مفاجئة رفع العميد رأسه، مدّ يده؛ لرفع النظّارة التي وضعها عندما همَّ بقراءة الأوراق، حدّق في وجه فائق، تلاقت عيونُهُما، وكأنّهُما على موعد في ضرورة مصارعة اللّحظة الحرجة:

-"شو هذا المجنون إلّي ابْتَلَيْت به هذا اليوم، كأنّو مو لاقي له شغلة أضْرَط من هَيْك"، وهزّ رأسه متسائلًا: "ليش المجانين مو أولاد عالم وَنَاس كمان؟. يلّلا كويّس عَدّت الأمور على خير". العميد يخاطب نفسه.

وابتسامة تُعاند واقع الحال ترتَسِم على وجهه، فلا هي كانت للمجاملة، ولا للترحيب، يبدو أنّها غير ذلك تمامًا..!!.

-"يعني مو ناقصنا إلّا هيك أشكال؟، العَمَى .. العَمَى بعيونك..، شو كِرْ (صغير الحمار)".

اهتزّ قلب فائق بعنف؛ تصدّع معه قفصه الصدريّ، واصطكّت فخذاه بحركة لا إراديّة، إحساس برطوبة ساخنة تدفّقت فيما بينهما، انهال الكلام في سرّه:

-"يا ربّي، شو هاي الوَرْطَة إلّلي وقعت فيها، ليت أمّي لم تلدني، لأصِلَ إلى ما أنا فيه الآن، عيناه ثقبتني من أخمص قدميّ إلى رأسي، لا أدري ما هو وجه الشّبه في عينيْه مع عينيّ الرّئيس، كأنّهن سُكبتا من قالب واحد، وعُجِنّ في طاسة خاصّة لهنّ فقط". تلاشت الحالة عنه؛ سمحت له بالتقاط أنفاسه، بينما العميد رجع إلى أوراقه.

❖❖❖

فائق يعيش (فوبيا) رُهابيّة قديمة؛ استوطنته في شبابه، حينما اعتقلته الشرطة العسكريّة، بعد أن فرّ من دوامه أثناء تأديتة خدمة العَلَم (العسكريّة)، ذاك يوم شؤم حفر آثارًا عميقة في نفسه، سبّبت له عقدة كراهة، وخصام مع كلّ ما يخصّ الدولة.

وقتها سِيقَ إلى سجن تدمر العسكريّ، وقبع هناك سنة كاملة، رأى فيها ما رأى من أصناف القهر النفسيّ، والتعذيب الجسديّ، والعقوبات القاسية التي خضع لها مع زملائه، لمخالفات قاموا بها، كانوا هناك أمواتًا بلا قُبور يحملون عبء أنفاسهم الهابطة والمرتفعة في صدورهم فقط.

فهل جريمته تســـتحقّ كلّ هذا؟.

وأين فكرة السّجون الإصلاحيّة؟.

استحوذته هذه اللّحظة للتوّ؛ فجدّدت الهُوّة الواسعة في قلبه من كلّ ما يخص الدّولة، وفي مرّات عديدة كان يحكي لأصدقائه في بُصرى، حينما يعود إليها بين الحين والآخر:

-"أنّه لا يستطيع هضم موضوع مُجنّدات سرايا الدّفاع، عندما أنزلوهنّ إلى شوارع العاصمة، في سابقة خطيرة بمؤشّراتها، والحرب العلنيّة المفتوحة على الشّعب بأكلمه، والمساس بثوابته وقِيَمِه".

ورآهنّ بأمّ عَيْنيْه، وهنّ يخلعن الحجاب عن رؤوس البنات والأمّهات بحقد غير مُبرّر، وطيْش مُحرّض للنّاس دِفاعًا عن شرفهم وعِرضِهم.

لا زالت هذه الحادثة، آخذة من نفسه زاوية ثابتة، مُظلمة مليئة غضبًا وسُخطًا، كان ذلك أيّام بيعه للدخّان على الأرصفة، وفي الزوايا المظلمة والمخفيّة عن الأعين، وفي مناطق لايتزاحم عليها باعة الرّصيف، لأنّ هناك من يعملون لصالح بعض الضبّاط الذين يُهرّبون الدّخان من لبنان

بسيّاراتهم العسكريّة، وهؤلاء يتمتّعون بحماية المعلّم، لفظة دالّة على القوّة التي يستندون إليها، يُطلقونها عند التّهديد لمنافسيهم. هذا على رأي الشّاعر (أدونيس):

- "يا لهذه البلاد التي ننتمي إليها:

اسمُها الصمتُ

وليس فيها غير الآلام

وهاهي مليئة بالقبور

جامدة ومُتحرّكة

يا لهذه البلاد التي ننتمي إليها تسبح في الحرائق،

و البشر كمثل حطب أخضر".

بالفعل كل ما قيل هنا، وما سيُقال، لم يكن من نسج الخيال، أو تأويلات أحلام، لكنّه كان معلومًا للقاصي والدّاني، خبره مُتواتَر على الألسنة، لامجال للكذب فيه والافتراء، حدث على كوكبنا "فوق الأرض" في دمشق أيضًا.

- أين النظام، والانضباط العسكريّ؟.

- وما هو القانون الذي يضبط سلوكيّات هؤلاء العسكريّين؟.

- هل هي دولة، أم غابة يأكل فيها القويّ الضّعيف؟.

❖❖❖

بينما يتناول فائق فنجان قهوته للمرّة الثانية، مُترافقًا مع نفث الدّخان من سيجارته الثابتة في مكانها بين شفتيْه، تناقض داخليٌّ ما بين مؤيّد وكارِهٍ، لخطوته التي زجّ نفسه بها، عليه العمل بكامل قُدراته، واستخدام طاقاته الهائلة، للتوفيق بين حالتيْه الحقيقيّة والزّائفة.

التّركيز والتماسُك مهمّ جدًا في مثل هذه المواقف الخطيرة المُحرجة؛ سيكتُبُ له فصلًا جديدًا في سجلّ حياته. إذا استطاع تجاوز هذه الجزئيّة المفصليّة، بجهده المضاعف للمُوَاءَمة بين المتناقضيْن ظاهره وباطنه.

سعيد.. منهمك في إكمال حكاية روايته عن الرّحالة فائق، ويستنزف جهده لإكمالها ضمن الوقت المُحدّد. جُهده المبذول واضح للعيان، وعلامات السّرور تُحيل وجهه إلى لوحة فريدة بتعابيرها الجميلة.

يقاطعه صديقه معن بإشارة من يده؛ دالّة على انقضاء نصف المدّة، بقي له على الحساب المُتّفق عليه، سبع دقائق ونصف إذا لم يتجاوز عليها.

إلى أن قال:

-"إلى هنا الأمور تبدو طبيعيّة لكم، والقادم هو الأهمّ على كلّ الأصعدة والمراحل، وفيه الزبدة المفيدة".

❖❖❖

ما زال سعيد يروي:

رُبع ساعة من الزمن، استعاد فائق حيويّته؛ فقد شرب فنجان قهوته، وأنهى سيجارته، والعميد ما زال يُطالع الأوراق، قرَع الشرطيُّ السّائق باب المكتب، قائلًا:

-"احترامي سيّدي، السيّارة جاهزة".

بطيئًا رفع عينيْه إليه، رمى القلم الأحمر من يده على سطح الطاولة، أصدر آهة دالّة على تعبه وإنهاكه، ووجّه كلامه للسائق:

-"خُذ الرّحالة فائق إلى قيادة الشّرطة؛ لاستصدار كتاب موجّه إلى فرع الحزب، وبعد الحصول على الموافقات اللّازمة من الحزب، تذهب معه إلى الاتّحاد الرياضيّ؛ لتزويده بكتاب تسميته رحّالة سوريّ، يُثبت خط سيره ووجهة رحلته، ولا تتركه إلّا بعد انتهاء من كافّة إجراءاته القانونيّة، يلّلا.. أخ فائق تفضّل مع (الشُّوفير)، أتمنىّ لك التوفيق".

قام من فوره وتوجّه إلى صالة القادمين، خُتم جواز سفره مباشرة. صار داخل أراضي الجمهوريّة العربيّة السوريّة، و"فوق الأرض".

لم يُواجه فائق أيّة صُعوبات في الحصول على الموافقات اللّازمة، سارت الأمور بسهولة بالغة، وزاد الأمر على ذلك، بأن جيء بمراسل وكالة الأنباء السوريّة (سانا) من مكتب فرع درعا، لعمل مقابلة صحفيّة مع فائق؛ لنشرها في اليوم التالي في الصّحُف الرسميّة.

نشوة عارمة اكتسحته، نقلته إلى عالم الخيال؛ فاشتطّ بعيدًا في أوهام بعيدة المنال، وكثيرًا ما تتحوّل بالبعض إلى جنون العظمة، شعور غامر بالفرحة مما حصل معه، وهو ما لم يكن قد توقّعه، في أن يُصبح موضوعه وقصّته حديث السّاعة، وعلى هذا المستوى من حفاوة الاستقبال، والتوديع، خاصّة عندما حضر مندوب من مكتب المحافظ، وآخر من فرع الحزب مع رئيس الاتّحاد الرياضيّ؛ بزيّهم الرسميّ والحفاوة التي استُقبلوا بها من المُتجمهرين؛ وإعطاء اللّحظة التاريخيّة أهميّتها بتحديد ساعة الصُّفر، لانطلاق الرّحالة فائق من أمام مبنى المُجمّع الحكوميّ، ومراسل (سانا) إلتقط لهم الصور الجماعيّة، ومن ثمّ رفع رئيس الاتحّاد الرياضيّ العلمَ السوريّ، وسط تصفيق حارّ من المُحتشدين، وعناصر الشُّرطة التي حضرت المراسم، ثم سلّمه إلى فائق، بينما رجال الشّرطة أدُّوا تحيّة العلم مع ترديد الشّعار.

فائق رفع العلم عاليًا فوق رأسه وهو يقبّله، وضمّه كالوليد يلتصق بصدر أمّه، وهي تشدّ بكلتا يديْها ضاغطة بحنان.

إيذانًا ببدء المسير أُطلِقَت رصاصة؛ نقل الرّحالة قَدَمه اليُمنى ثم تبعتها اليسرى، فكانت أولى خطواته عندما تجاوز الخط الأبيض المرسوم على الإسفلت، وسط الهتافات والتصفيق والتصفير من حوله، انحنى للأمام قليلًا، ثم رفع يده بإشارة النّصر.

❖❖❖

"مشوار الألف ميل يبدأ بخطوة". قال سعيد. بينما رنين جهازيْ هاتفيْن جوّاليْن من الحضور.. قطعا عليه استرساله في سرد قصة الرّحالة فائق. معن يجول بعينيْه في الوجوه، يفهم أنّهم متحفّزون للانطلاق إلى منازلهم، وسعيد مازال بانتظار انتهاء المكالمتيْن. صوت نحنحة سعيد، وهو يتصنّع إخراج شيء ما في حلقه، ليُنهي الفاصل؛ متهيّئًا لمتابعة كلامه، بحركَتِه تلك؛ ضَمِن إنصاتَ الآخرين له.

- سعيد: "على كُلٍّ سأختصر، وأتابع لكم ما حصل معه بعد عودته ووصله لبيته، صدّقوني أنّني عندما كنتُ أستمع لصديقي نصّار، عندما سرد عليّ هذه الأحداث التي أرويها لكم الآن، كنت أتساءل: "هل من المعقول أن يحدث هذا فوق الأرض؟. كان الحدث لغرابة أطواره.. في الواقع عقلي لم يكن قادرًا على استيعاب ما حصل مع فايق".

❖❖❖

ثلاثة أيّام قضاها هناك في القرداحة، بلدة الرئيس عند القبر، حفاوة الاستقبال أضفت الهدوء على نفسه، وأنسته تعبه الجسديّ على مدار أسبوع كامل قضاه في مسيره، استعاد فيها حيويّته، وكأنّ تعبًا ما ألَمّ به أبدًا خلال مسير طويل.

في اليوم الأوّل لوصوله كان هناك احتفالًا رسميًّا، برعاية مدير الناحية والعقيد مديرالقبر، ومديرالنادي الرياضيّ يصطحب بعض الرياضيّين بألبستهم المميزة، حشدُوا مجموعة من طلّاب المدارس يهتفون، ويرفعون صور الرّئيس موسومة بخط أسود مائل على زاويتها اليُسرى.

هذا كان في السّاحة الواسعة المحيطة بالقبر، المخطّطة بخطوط بيضاء وصفراء؛ لتوضيح الأماكن المسموح للسيّارات التوقّف، أو التي يُمنع فيها، تزامن وصول الرّحالة فائق مع وصول حافلات تحمل وفدًا عسكريًا من إحدى التشكيلات العسكريّة للجيش، هذه الزيارات محدّدة بالمواعيد من قبل إدارة التوجيه المعنويّ، وبالترتيب الدّقيق؛ لتشمل كافّة الضبّاط، وصفّ الضبّاط، والأفراد العاملين والمُجنّدين على مدار العام.

كما لاحظ فائق هناك العديد من الأفراد المدنيّين القادمين للزيارة بسيّاراتهم الخاصّة، إضافة لمجموعات في حافلات سياحيّة.

إدارة القبر تتّخذ الإجراءات اللازمة؛ لتسهيل مهمّة الأعداد الهائلة، القادمة يوميًّا يستدعي التنظيم، واستتباب الأمن ضروريّ جدًا في محيط القبر، كما أنّ تقنيّة كاميرات مراقبة النُقاط المكشوفة والمخفيّة؛ تضمن السيطرة التامّة على أيّ طارئ، من خلال غرفة عمليّات تُوجّه أفراد الأمن من خلال أجهزة اللاسلكيّ التي لا تفارق أيديهم، لأماكن الازدحام وتواجد الزوّار.

قبل الدّخول لحرم بناء القبر، لابدّ من المرور عبر حديقة كبيرة مُنظّمة بأناقة ظاهرة، خلفها تقوم الأيدي الماهرة الدّؤوبة على مُتابعة كلّ نبتة، لصنع لوحة خضراء مطرّزة بالورود والرياحين، تستجلب الطّيور لتستوطن فيها، ويدوم لحنها الطبيعيّ يُلوّح في أفق الفجر المُتراقص طربًا بموسيقاه.

بلاط الأرض الرخاميّ اللّامع؛ يعكس أشعّة الشمس كالمرايا.. نظافة رائعة.. رغم ما تُخفيه تحت الأرض.. جدليّة حديث المرايا الصّادق والخادع بآن واحد.. ربّما يوقف المرء أمام نفسه.. ليراها بعين حقيقة العقل مُتفكّرًا.. في حين يزداد آخر غيًّا وغُرورًا.

❖❖❖

مُكبّرات صوت تتموضع على زوايا الصّرح الأربع، تبثّ القرآن الكريم لدقائق، ثمّ شيئًا من خُطب الرّئيس قديمها وحديثها.. التي خطبها في أواخر حياته فوق الأرض، وكلماته ولقاءاته التلفزيونيّة معظم ساعات النّهار. هو الغائب عن الأعين، الحاضر في القلوب، كأنّ الموت لم يُغيّبه. ومن سخرية الحياة أن يكون فائق بين يديّ هذه اللحظات التاريخيّة بالنسبة له، كادت أن تُذهِب تناقضه الداخليّ؛ عندما كان هناك في مكتب العميد في المعبر الحدوديّ.

الوجوه غريبة عليه لم يألفها. كلمات تقرع سمعه بلهجتها الجبليّة الخشنة، أعادته لأيّام خدمته العسكريّة، واحتكاكه المباشر بمن جاوَرُوه هناك في سُكناه في حيّ الزّاهرة.. أحد ضواحي دمشق الجنوبيّة، كانوا كلّهم من العساكر ذوي الألبسة المموّهة. قدموا من الأرياف للسّكن في المدينة قريبًا من أماكن وظائفهم العسكريّة، في أحياء مجاورة للزّاهرة؛ شكّلت عشوائيّات سكنيّة سيّئة البناء والتنظيم، خاصّة في حرم محطّة الخطّ الحديد الحجازيّ في منطقة القَدَم، القوّة سيّدة الموقف، والسُّلطات المدنيّة عامّة لا قِبَل لها بمواجهة هؤلاء العسكريّين؛ الذين يحتَمُون بسلطة قيادتهم من سرايا الدّفاع، والوَحَدات الخاصّة، والأفرُع الأمنيّة.

ضعف الحقّ أمام القوّة، ووقوفه وحيدًا أمام جَبَروت الباطل، لايعني هذا زواله، فمهما تقادم عليه الزّمن سيظهر، وسينهض من يقوم به ومن أجله؛ فيعلو، ويعلو لينتصف من الباطل، وينشر العدل، ويكثر أنصاره.

الاعتداء على هذا الوَقْف الخاص بالسِكّة الحديديّة، غياب القانون، وتقزيم سلطة القضاء.. التي دخلت ثلّاجة الموتى أمام رهبة بطش العسكر، ومن يتجرأ للمجازفة بأقلّ التضحيات بخسران منصبه كمدير عامّ، إن لم يُستدعَ من أيّ جهة أمنيّة، معلومٌ للقاصي والدّاني، أنّه مُجرّد (سين وجيم فقط) ربّما تستغرق ستّة أشهر، هذا مع تدخّل

الواسطات ودفع ما يُطلب منهم من تحت الطّاولة، إن لم تتعدّاها إلى أكثر من ذلك.

ثانية يقف فائق وجهًا لوجه مع لوحة بالحجم الكبير للرّئيس، عندما اصطفّ بجانب العقيد مدير القبر، ومدير النّاحية، والنّادي الرياضيّ، لأخذ صورة تذكاريّة، قبل الدّخول في مراسم دُخول مبنى الصّرح.

ما أصعب أن يعيش المرء في صراع داخليّ، مُشتّت بين مظهر حُبّ مَزيّف، وكراهيّة مُتجذّرة لا سبيل لتجاوزها مهما حاول؛ فالقناعات راسخة مُستقرّة في القلب والعقل، لا يمكن تغييرها بسهولة، فهي تسري في مسارب الدم، لا يُنهيها إلّا موت صاحبها، فهي عقيدة..!!، وإن تظاهر بمسايرة مَوْقِف عابر، أو انحنى أمام هَوَج العاصفة؛ حتّى تمرّ بسلام بأقلّ الخسائر، هذا التلوّن، كثيرون يقولون عنه:

-"أنّه شطارة وحذاقة وتقدير للمواقف، ويُثنون عليه، بينما حقيقتة نِفَاقٌ، ولايعيبون على صاحبه هذا السّلوك المُتلوّن غير واضح المعالم".

تأكّد فائق من أنّه فِعلًا يَصطَفّ مع القيادة، وبين مِثْراسِ قناعاته الدّاخليّة في المساحة الرماديّة في منطقة ما، من وطن تقاسمته عوامل الكراهيّة مُستندة على الهيمنة والسيطرة، مؤكّدٌ ذلك أنّه يسبح في محيطات القهر القسري "فوق الأرض".

الخوف ملح الأرض كما يُقال، فمن خاف حسبها بشكل صحيح، وابتعد عن التهوّر أو القفز في الهواء فوق الاستحقاقات الفارضة لنفسها

على الموقف، حاسمة أمرها بلا نقاش، ولا خيار لأحد في غير ذلك، فالقبول إجباريٌّ ولا مناص منه.

❖❖❖

وقوف معن كان إعلانًا لانتهاء مهلة رُبُع السّاعة المحدّدة لصديقه سعيد، وأضاف له الوقت المستقطع على نمط مباريات كرة القدم، حينما رنّت الهواتف النقّالة لتوقِفَه عن متابعة سرد قصّة الرحّالة.

-"عزيزي يبدو أنّ سهرتنا، صارت رواية بحاجة لوقت طويل، على أمل لقاء آخر؛ فتُكمِل لنا ما تبقّى، باعتقادي أنّ ما لم تروِه هو الأجمل؛ فستبقى الأشواق تحدُونا حتّى تُكملها، على طريقة المسلسلات العربيّة". قال معن كلمته تلك على مسمع من الجميع؛ فكانت إيذانًا لانفضاض السّهرة.

- سعيد: "إن شاء الله، إذا كُتب لنا بقيّة من العُمُر".

❖❖❖

ذات يوم احتفظ المهندس معن ببيتيْن من الشِّعر، أخذهما من صفحة صديقه الشّاعر(محمد إبراهيم الحريري) على (الفيس بوك)، نسخهما على مذكّرة هاتفه (الجالاكسي)، وراح يُردّدهما، ويترنّم بهما.. كما كان يستظهر أنشودات المحفوظات في كتُب المرحلة الابتدائيّة.. خاصّة

قصائد الشّاعر (سليمان العيسى) للأطفال، التي كان يحفظها جميعًا عن ظهر قلب؛ فكان لا يخطئ بها يحفظها مثل اسمه.

شعبٌ من التمثال ينحتُ رأيه ❖❖ لا بُدّ يَهدِمُ بالمعـاول مَعبَـــــدَهُ
ويلٌ لشعبٍ يشتَري من قُوتِه ❖❖ صَنَمًا، ويُجبَرُ مُرغَمًا أن يحمدَه

ليس هذا مستغربًا، فرغم تباعد الزّمان ما بين العرب قبل الإسلام وحاضرهم اليوم، وموضوع عبادة الأصنام، فقد كانوا يصنعون بعضًا من أوثانهم من التمر والعجوة؛ فيعبدونها، وعندما يجوعون يأكلونها، على عكس الحالة الآن؛ فحسب الشّاعر:

-"أنّ الشّعب يصنع الصّنَم، ومن ثمّ يبتكر طريقة فريدة للتعبّد، والتحنّث في وثنيّته خوفًا ورَهَبًا".

❖❖❖

(٤)

رنين الهاتف الأرضيّ لم يتوقّف، رفعتُ رأسي عن المخدّة، لأتعرّفَ على الوقت. "أووووه ..!!، يا إلهي الوقت ما زال مبكّرًا، عقارب السّاعة تشير إلى السّابعة والنّصف، اليوم أنا مُجاز من عملي، وسهرت حتّى قُبيل الفجر، كانت خطّتي لنوم طويل إلى غاية الحادية عشرة، موعدي بلقاء صديق قادم لزيارتي.

نهضتُ مُتثاقلًا، أجرّ رجليّ عُنوة ببطء شديد أنقلهما خطوة إثر خطوة، صالون البيت هادئ.. الأولاد نائمون.. التلفاز صامت كإعلان الإضراب.. ألعابهم متناثرة في الأرجاء، ظننتُ أنّها فعلت ذلك من تلقاء نفسها استعدادًا للقاء أحبابها، لتمارس حركتها معهم.

ما إن مددتُ يدي قبل خطوة واحدة، توقّف الرنين، أكملتُ خطوتي الأخرى، اتّكأت على الجدار، وألقيتُ عليه برأسي مُفترشًا كفّ يدي اليسرى، غفوة أخذتني من جديد إلى عوالم سهرة اللّيلة الفائتة، وخيالات أشخاص حادثتهم على (المسنجر).

الرّنين من جديد يقطع استرسالي بفظاظة، رفعت رأسي، عركتُ عينيّ لإزالة ذبول الجفنيْن؛ لأستطيع فتحهما.

صوت أجشّ رفع حرارة الأسلاك، اهتزار السّماعة بكفّي المتراخية، لولا انتباهي في اللّحظة الأخيرة لسقطَتْ أرضًا، وربّما يحالفها الكسر، فتتعطّل، وتضيع معها نبرات الصوت، القادمة بأوامر لا يستطيع أحد مهما كان مُعاندتها أو تجاهلها.

حالة خوف تلبّستني قبل أن أضع السمّاعة على أذُني. بادرني بالكلام مباشرة.

- : "ألو .. ألو ..ألو، صباح الخير، ليش طوّلت حتّى ردّيت، معاك السياسيّة".

-: "صباح النّور".

-: "مين معي؟".

-: "معاك..، فاضل السّلمان". بصوت مُتهدّج.

-: "خلّيك معي ع الخطّ".

انتظار اللّحظة قاتل بطبيعته.. اغتصب ساحات التفكير.. شلّ حركة أعضائي.. جفّت ينابيع حُليمات الرّيق؛ فصرت أستحلبه بقوّة لترطيب حلقي، تخشّب لساني، تصلّبت شراييني لبطء حركة الدورة الدمويّة المفاجئ، بُركانٌ داخليٌّ داهَمَ أعصابي، تشنّجت معدتي، اهتزار لا إراديّ في أعصابي لم أستطع السيطرة عليه، طارت عصافير النّوم من جفنيّ، ونسيتُ ما كنتُ أحلم به قبل ذلك.

فطنتُ للكرسيّ البلاستيكيّ الذي ارتجّت أركانه تحتي، وكادت إحدى أرجله أن تتكسر، عندما ارتطم به جسدي مثل كتلة صخريّة صمّاء سقطت من مكان عالٍ. رنين جرس المقسم يأتيني مُنخفضًا، بانتظار الردّ عليه من الضّابط المسؤول.

انتظارنا متناقض، هو يُنفّذ ردّ سيّده الآمر؛ ليسمع منه كلمة شكر، أو استحسان على سرعة تلبيةالطلب، وليعود إلى كأس المتّة والتدخين.

وأنا أعاني من تلف الأعصاب، وتقطّع أنفاسي، روحي بلغت الحلقوم هابطة صاعدة، زاغ نظري، انحصر تفكيري في المصيبة التي انصبّت عليّ من غامض علمه، مهما كان المجهول القادم قاسيًا إن وصلني، أهون ألف مرّة من انتظاره.

- الضّابط: "يا بني، أعطني المطلوب".

- العسكريّ: "حاضر سيّدي".

وصلني صوت مختلف صادر عن ذاك المخيف الأجشّ، بعد خروج عامل المقسم من المكالمة، واختفى صوته، هكذا أحسستُ، أعتقدُ حقيقة أنّه يحبسُ أنفاسه، ولا يأتي بأيّة حركة، ليتنصّت على الحديث الذي سيدور بيننا.

- الضابط: "ألو..".

- فاضل: "حاضر سيدي".

- الضّابط: "حضرتك.. فاضل السّلمان؟".

- فاضل: "نعم ..سيدي".

- الضّابط: "أستاذ في الواقع كان من المفترض أن تأتي عندي هنا للمكتب، ونشرب سويًّا فنجان قهوة، ونتحدّث، لكنّني آثرتُ الحديث معك بداية على الهاتف فقط..".

- فاضل: "مثلما تأمر.. أنا حاضر، تفضّل".

سرت انتعاشة في روحي، أرسلت إشارة إيجابيّة ببث الطُّمأنينة في القلب والدماغ، فخفّت حدّة ارتعاش أعصابي، اللّهفة تُسابق انتظاري فيما سيقول هذا الضّابط العتيد، مهما كانت نوعيّة الأسئلة؛ فهي أهون ألف مرّة، من الذهاب إلى هناك؛ لأنّني رأيتُ من ذهبوا، وما رجعوا إلّا بعد ستّة أشهر، وعندما طُلبوا أخبروهم: "فقط مجرّد سؤال".

تسع سنوات قَضَتْها (هبة الدبّاغ)، أذكرُ ذلك، ومثلها كُثُر اختفوا.. وما رجعوا إلى بيوتهم أبدًا، عندما اقتادوها من سكنها الجامعيّ، فقط نصف ساعة مجرّد سؤال فقط.

تسعيرة السّؤال ستّة أشهر..!!.. إذا لم يكن الشخص قد فعل شيئًا.. فما مصير من اقتحم قداسة حدّ الممنوعات بنظرهم؟.

- الضّابط: "أرجو أن تكون صريحًا معي، ولا تُحاول اللفّ والدّوران، أريدُ استيضاح الأمور منك مباشرة، دون اللّجوء للسُّؤال عنك، كلّ شيء واضح عندي، ومثبّت بالوثائق".

فاضل، استعاد أنفاسه بسماعه اللّغة المختلفة تمامًا: "يا إلهي ما الذي يحصل؟، كأنّ أُذُنيّ تُكذّبان ما يصلني عبرهما.

-: "تفضّل سيّدي، فكما تعلم أنّني لا يمكن أن أغشّك، أو أكذب عليك".

-: "أستاذ فاضل، انشغلتُ قليلًا، سأعود إليك، انتظرني..".

❖❖❖

لماذا مكتوب عليّ الانتظار.. أنا بالذّات..!!؟.

لا أذكر أنّ أحدًا انتظرني في حياتي كلّها مرّة واحدة. حتّى زوجتي دائمًا تتأخّر في توضيب لباسها عند خروجنا لمشوار، خاصّة عند حيرتها في تبديل أكثر من فُستان؛ يتناسب مع طبيعة مقصد خروجنا من البيت. والأطفال عليهم أن يمارسوا لَعِبَهم كما يشاؤون، ومديري في الوظيفة يطلبني، وينشغل عنّي.

والباص يتأخّر عن موعده. وأصطفُّ في الطّابور الطويل أمام باب الفرن؛ لشراء ربطتيْن من الخبز لأولاي، والطابور يتكرّر أمام جهاز الصرّاف الآلي الذي دخل مؤخّرًا للخدمة عند آخر كلّ شهر، وفي الحمّامات العامّة خاصّة في المدينة، ومغصُ بطني يتكرّر ولا أحد يأبَهُ لحالي. إشارة المرور الحمراء لم تحترم الوقت، ولا ترحم من حرارة الظهيرة ولا شدّة البرد، تجبرنا على التوقّف حتى إضاءة أخضرها.

وعيادة الطبيب مزدحمة على نفسها غاصّة بالمرضى. ساعة كاملة أو أكثر يستغرق جلوسي للدّخول إلى غرفة المعاينة.

محطّات الانتظار كثيرة في حياتي، حَرَجي كبير من إعطاء موعد إلى صديق كي نشفي غليلنا بلقاء طال انتظاره. حيرة تتلبّسني عندما أتفكّر من أين أبدأ.

كثيرًا ما أتوقّف عند تساؤل، أصاب بالغمّ والهمّ عندما يتقدّم إلى ساحة تفكيري الأولى، وأنا من ينتظرني؟.

أنا مُطالب من الجميع بانتظارهم، لا عُذر لي أبدًا إذا ما تخلّفتُ عن موعد لهم، اللّوم والتأنيب ينصبّ عليّ كالمطر في عُنفوانه. مع كلّ هذا الألم الذي يعتصرني، ولم أبُح به لأحدٍ سوى نفسي. فقط هي دائمًا ما تنتظرني على رصيف العمر.

ما زلتُ ثاويًا أمام وَثَن الانتظار.. صارفًا له جُلّ وقتي، ولو على حساب راحتي، نزف دائم وابتزاز.

أعلنُها صريحة على ملأ حواسّي وأعضائي؛ بأنّه لم يبق لديّ ما أخاف انتظاره. الأعمار والأرزاق بيد الله.

في مثل هذه المواقف المأساويّة أستحضرُ إيماني.. فأزداد طمأنينة.. عزائي بمن هم أعزّ على الله منّي ومن جميع البشر، الأنبياء والرّسُل.

أستعيدُ تسعمئة وخمسين عامًا لنبيّ الله نوح..!!، عندما لم يستجب لدعوته إلّا القليل، ويا للأسف أنّ ابنه لم يكن مع هؤلاء..!! أستعيد

عزيمتي. تتجدّد طاقتي الروحيّة. يسابقني التفاؤل إلى دروب أحلامي وآمالي.

لم أبرح مكاني، حرارة الكرسيّ تحتي ارتفعت مُنفعلة بما حصل لجسمي، والهدوء ما زال يُخيّم على البيت، شريط الصُّور يمرّ سريعًا كعرض سينمائيّ قديم، هشاشة تركيزي على شيء معيّن أفقدتني الانتباه إلى أيّ منها.

❖❖❖

-(خلّيك معي).

آخر أمْرٍ تلقّيتُه. انعدمت الخيارات لديّ، إلّا من إعطاء موافقتي:

-"حاضر..".

ها أنا رهن إشارتك، يا صاحب السِّيادة..!!.. وهل مثلي يستطيع رفض طلبك، أو قول: (لا..). أعلمُ جيّدًا أنّها ستوصلني إلى حتفي الذي لم يأت بعد.

عقارب ساعة الحائط تتهادى على مَهَل، كلّما أنظرُ إليها تهزأ بي. (اللّعنة عليك يا عنيدة)، تتابع نهجها غير عابئة بي. وكأنّ الأمر لا يعنيها.

بسخرية جديدة أعلنت عن نفسها بأنّها في المنزلة التّاسعة من عمر هذا اليوم. تسعون دقيقة أخرى أقضيها جالسًا على قارعة الانتظار. أستجدي صمود نفسي..!!.

أستجلبُ أشياء من مَنسيّات ذاكرتي. غاب انتباهي عن أعضائي المُتوتّرة. لم ألتفت إليها.

صرامة أمْرِ الآمِر؛ جمّدتني على الكرسيّ خِلتُ أنّه عضو من جسمي لشدّة التصاقة بمؤخّرتي.

حلقي ناشف، ألوكُ ريقي بصعوبة بالغة، كأس الماء على الطربيزة المقابلة لي في طرف الصالة، يُناديني صارخًا:

-"اشتقتُ شفتيْكَ يا رجل، تسعون دقيقة وأنتَ تتمنّاني، وأنا أرقبُك، وأنتَ ساهم الطرف".

إعراضي عنه ليس كُرهًا به، رغم أنّ محتواه ضرورة لاستمرار حياتي.

صمتٌ مُطبقٌ مريبٌ، وكأنّ البيت انقلب لمقبرة عتيقة قُبورها دارسة، الحياة تهرب بعيدًا عنها.

رنّة أولى كسرت رتابة الموقف بفجاجة، وبلا استئذان.. خفق قلبي بتسارع عجيب، للمرّة الأولى يحدث ذلك لي.. امتّدت يدي طوعًا.. أتلمّس بالأخرى وجهي ورقبتي، لأتذكّر أنّني بحاجة ماسّة لشُربة ماء أبلّل بها جوفي المُلتهب. فاجأني دفقُ البوْل. لي رغبة عارمة بالتوجّه إلى الحمّام.

ما إن جاءت الرنّة الثانية من السمّاعة، حتّى هبط ثقل كفّي مُتعجّلة بلا وعي، وأذني عازمة على كرهها لبدء المكالمة المجهولة. وتجمّدتِ الدّماء في قلبي خوفًا من النتائج المرتقبة غير المحمودة، والمُتناقلة على ألسنة النّاس، (فمن جرّب المُجرّب كان عقله مُخرّب)، على رأي المثل.

عند مُلامسة سمّاعة الهاتف صيوان أذني. التصقت بخدّي الأيسر المُتيبّس كالحجر، بادرَني صوت عامل المقسم الأجشّ. بداية:

-(خلّيك معي).

هززتُ رأسي، أشهقُ أنفاسي؛ بصعوبة أستخلصُها من محيطي، ضيق مفاجئ داهمني، يبدو أن عدّاد الفهم والاستيعاب، يؤشر على الصُّفر المئويّ.

بعد خمس عشرة دقيقة ما زلتُ على الخطّ، حبستُ أنفاسي في صدري؛ كي لا تتسرّب عبر الاتّصال، الهدوء مطلوب في غايته القصوى.

صدر منه أمر آخر (خلّيك معي..، انشغلتُ، سأرجع لك). بحركات ارتجاليّة لا مُبالية اهتزّ رأسي موافقًا طائعًا بلا تأفّف أو تذمّر.

صبرًا يا نفسي على بَلْواي، أعصابي تَلفِتْ لم يبق منها خيط صالح للاستخدام في قادم الأيّام إذا بقيتُ على قيد الحياة خارج السّجن، أتوقّع في أيّة لحظة أن تأتي سيّارات الدوريّة مُدجّجة؛ لتقتادني.

أتمنّى الوصول للنهاية مهما كانت النتيجة. تَسَمُّرُ حالتي على قيد انتظار مملّ مُقرف مَقيت مُخيف، لا أتمنّاه لأحد في مثل حالتي، حتّى وإن كان عدوّي.

❖❖❖

النسيان وسيلة تخفيف عن الذّاكرة، كي لا تُعلن تعبها من أثقال محتوياتها؛ التي تذهب إلى السّاحة الخلفية من اللّاشعور. وفي لحظة تأتي طائعة بلا تعنّت إلى الأماميّة، وتستحوذ على المشاعر والأحاسيس والانفعالات. طال مُكوثي أمام جهاز الهاتف، أخذتني غفوة من غير إرادة ولا أحسستُ بنفسي، جاءتني القِطّة البيضاء؛ وكأنّها تألفني وأألفها.

خاتمي الفضيّ في يدي اليُسرى أتأمّله بعد مسحه بطرف قميصي. لا أدري كيف وصل إلى فمها؟. راحت تركض بعيدًا عنّي في طلوع من الأرض. غابت عنّي، ولم أستطع اللّحاق بها.

وا حَسْرَتا..!!.. على خاتمي، رفيق عمري. المنقوش على باطنه اسمي واسم زوجتي، وتاريخ زواجنا. إنّها سرقت نصف حياتي الثمين. أصابُ بالقلق، عندما أتلمّسُ اصبعي البُنصرُ ولا أجده يتلبّسه.

صوت صحنٍ ارتطم بأرضيّة المطبخ، عندما سقط من يد زوجتي، أثناء إعدادها طعام الإفطار المتأخّر عن موعده الاعتياديّ. جَفَلتُ من غفوتي

حزينًا على خاتمي، ما إن لامسته يدي اليُمنى؛ حتّى عادت روحي إليّ، ويقيني ترسّخ تأكّدًا أنّه ما يزال على اصبعي.

❖❖❖

عقارب السّاعة تقترب من الحادية عشرة موعدي مع صديقي. ليته يعتذر، وضعي لا يسمح باستقباله أبدًا. لا رغبة لي برؤية أحد.

زوجتي تأتي وتروح منذ ساعة فيما بين غرف البيت تعمل ترتيبات ما أفسده الأولاد قبل استيقاظهم المتأخر. العطلة الصيفيّة أفسدت نظامهم الذي كان أيّام الدّراسة، النّوم مبكّرًا بعد تناول طعام العشاء، وكتابة وحفظ واجباتهم.

السّهر لساعات متأخّرة، وتعويضه بالنوم صباحًا إلى العاشرة، أو بعد ذلك، وأحيانًا يمتدّ إلى أذان الظهر.

من حُسن حظّي أنّ كأس الماء البارد جاءني مع فنجان قهوتي الصباحيّة، قبل أن تضع زوجتي الصّينيّة على الطربيزة التي أدنتها قريبًا منّي، بحيث أصبح ما يوضع عليها في متناول يدي.

تناولت كأس الماء لتلهّفي الشديد إليه، في الواقع أنقذتني بحُسن التوقيت.

ذبول مشاعري ألهاني بنفسي عن نفسي. تحيّة الصّباح ترتحل عنّي بعيدًا، فلم أتذّكرها أبدًا. غادرتني هذه السّاعة إلى غير رجعة.

زوجتي تتصارع مع مشاعرها المتزاحمة للإفصاح عمّا يُجيِّش نفسها، عجيب أنّها استطاعت كتمها هذه المرّة، أدهشتني بلامبالاتها الفريدة، لعلّها قالت في نفسها:

-"طنّش تَعِش..، تتعش".

وما أدراني؟. سوء ظنّي بها غير مُبرّر في مثل هذا الظرف الطّارئ. أعلنُ ندمي وإنّ كثيرًا من الظنّ كذلك، ليس بإثم.

❖❖❖

جرس الهاتف رنينه يقرع سمعي هذه اللّحظة، بفظاظة مترافقة مع الصوت الأجشّ من عامل المقسم. بنبرته المميّزة: "خلّيك معي". وصوت الضّابط ثلاث مرّات: "خليك معي".

صديقي ذاك اليوم لم يأت في موعده؛ فكان فرجًا لي، هاهي السّاعة تشير إلى الحادية عشرة موعدنا. لم يتّصل، رنين الهاتف من جديد. ذو الصوت الأجشّ:

-"خلّيك معي.. سيّدي هذا المطلوب معك ".

-الضابط: "آه..". قالها بمطّ حروفها؛ وكأنّه يُعلن لي قَرَفَه وتعبه:

-"معي فاضل مو هَيْك؟".

-: "نعم سيدي".

أسمعُ خربشة تقليب الأوراق بين يديْه، تراءى لي أنّ مَلفًّا ضخمًا يتمدّد على طاولة المكتب، وسُحُب دخان سيجارته تصنع هالة حول رأسه؛ فيطلّ من خلالها على ما هو مكتوب أمامه في الأوراق والتقارير.

-الضّابط: "شوف يا فاضل، الملفّ عندي كامل، وكلّ ما نشرتموه على منتدى (أتاو)، منقول بالحرف، وصورة طبق الأصل عن مقالاتكم، يعني ما في مجال للكذب بإخفاء أيّة معلومة مهما كانت، واللفّ والدّوران. أتمنّى عليك التعاون، والإجابة على المطلوب، كي لا أضطرّ إلى جلبك مخفورًا إلى هنا، ولايغيب عن بالك أنّني درسته جيّدًا، ويمكنني القول بأنّني حفظتُه عن ظهر قلب".

صوت شفتيْه في ارتشاف شيءٍ من كأس أو فنجان، يغلب على تخميني أنّها القهوة على الأغلب.

عندما تضيق مساحة الخيارات، تتقلّص الحريّة، ولا أملكُ إلّا خيار الإجابة عن جميع الأسئلة بما أعرف؛ فهو الأسلم والأنجى، ولن أقول إلّا الحقيقة.

- أجبته: "طبعًا بكلّ تأكيد..، سيّدي".

- الضّابط: "هل وقّعت على بيان المُثقّفين السوريّين الذي اجتمعوا في دمشق، وأعلنوا انسحابهم من المنتدى؟".

-: "في الواقع أنّ الذين اجتمعوا لم يكونوا سوى عدد من الأشخاص، لايتجاوز عددهم على أكبر تقدير عدد أصابع الكفّيْن، وأكلوا

وشربوا هناك، وأحدهم كان مسؤولًا ومُشرفًا في اللجنة الاستشاريّة، فقام بلصق أسماء الشباب جميعًا، وصدر البيان مُذيّلًا باسم الجميع، وهم لا علاقة لهم أبدًا بما حصل".

- الضّابط: "يا فاضل، وأنتَ ما موقفك الحقيقيّ من الموضوع الذي أثار الجدال والنقاش على صفحات المنتدى؟".

-: "موقفي كان واضحًا من خلال ما كتبتُ في مقالتي، وأشرتُ فيها إلى الاستقرار والأمان الذي ننعم فيه جميعًا في سوريّة".

- الضّابط: "ما هي علاقتك بالمهندس معن؟".

-: "علاقتي بالمهندس حديثة، لامعرفة سابقة لي به، إلّا من خلال المنتدي وكتاباته، وكان لقاءً عابرًا من خلال زيارته لآثار بصرى الشّام مع صديقه سعيد".

- الضّابط: "أيضًا عندي اسم هالة نجم الدّين، ما معرفتك بها؟".

- : "أعرفها فقط من خلال المُنتدي، واسمها هالة نجم فقط، وهي فنّانة تشكيلية مهاجرة في إيطاليا".

- الضّابط: "صورتها المنشورة في صفحتها الشخصيّة، هل هي حقيقيّة؟".

-: "حقيقة لا أدري".

❖❖❖

كثيرًا ما يضيق العقل على اتّساع آفاقه بقِصَر العبارة؛ لِتَحُول بينه وبين طرق التعبير عنها؛ فتتخفّى تحت ملاءات مُسايرة للواقع؛ فالخيط الرفيع من النّور المُتسرّب من فوق الأرض يرسم ملاذاتٍ آمنةٍ تبثّ في روحي وقلبي الطمأنينة، وبأنّ قطار الزّمن ما زال على عهده الرّاسخ في داخلي، لا ينتظر المتأخّرين والمتكاسلين.

شبحيّة الظلام هنا في باطن زنزانتي، تتزاحم بمناكب أوهام جوفاء، تُعاني العمَاء، وفرادة البؤس، تُشكّل رتلًا من بقايا وَخْزٍ في أعضائي وخاصّة قدميّ.

كلّما ضغط ثِقَلي عليهما في أيّة خطوة على أرضيّة الزنزانة الباردة؛ تنطلق موجات تنميل تسري في بواطن أعصابي الدقيقة منها والغليظة، لا تدعني أستريح إلّا بكثرة حكّها بأظافري، كثيرًا ما ألجأ إلى الجدار الخشن لحلّ المشكلة؛ عندما تسيل الدماء منهما نتيجة للاحتكاك الحاصل، لحم طريٌّ مقابل صلابة جدار ثابت لا يتزحزح عن عهده الذي أخذه على نفسه.

تذكّرت مقولة أمّي رحمها الله، وهي توصيني دائمًا:

-"يا فاضل دير بالك، الله يحاسب على رفقة ساعة".

اعتقاد أمّي موروث مما سبقها، نبراتها تأتيني لحظتي هذه نديّة مع ابتسامة فَمِها الذي يقطر حنانًا وصدقًا، وتدويرة وجهها الوضيء، "يا

أللّه.. انقشع الظلام من حولي، بانت الجدران على حقيقتها التي كنتُ أُجلّ معالمها وتعرّجاتها الحقيقيّة".

عيناي ضاقتا رغم ضيقهما من العتمة، مقاومة النّور المفاجئة بعد افتقاده لفترات طويلة، رغم أنّه نور وبهجة، قاومته بكلّ ما أوتيته من قوّة بتغطيتهما بكفيّ، بعد إطباق جفنيْهما بشدّة.

ابتسمتُ للجدار، يا إلهي ما زال عابسًا كالحًا، سأحاول تليّين موقفه. ابتعاده عنّي يُغريني للاقتراب منه.

أنا على قناعة تامّة بأنّ عقلي بكامل قدراته، وأنّني أسبحُ في عوالم من الأحلام، التي كانت مؤجّلة هناك فوق الأرض.

يهمّني أن لا يتسرّب إلى تفكير أحدهم الشّطح؛ ليشكّك بقدراتي العقليّة؛ خاصّة ممن يعرفني، ليصدر عليّ حكمه الغيابيّ حبسًا في زمرة المجانين.

بثثتُه مشاعري. تمنّع عليّ، كتمنّع الحسناء عمّن يمتدحها بإطراء محاسنها؛ طلبًا لرضاها، أخيرًا أخبرني بأحاسيسه المكبوتة: "أخافُ خيانة مبدئي، أنا هنا حاجز لك ولأمثالك، مانعٌ عنك حريّتك، كمٌّ كبيرٌ من أمثالك قابلتهم وقابلوني، وسمعتُ ثرثرتهم واعترافاتهم، لكنّني لم أشِ بأحدهم أبدًا، بقيتُ وفيًّا لمُهمّتي فقط، دون التدخّل في شؤون الآخرين، هكذا أنا. سامحني رغم تعاطفي معك".

ساد حجاب ثقيل من الصّمت عندما عمّ الظلام من جديد، بغياب وجه أمّي، غابت نبضات قليلة من الحياة نَعِمَت بها زنزانتي.

❖❖❖

آثار التعذيب تركت بَصْمَتها المنقوشة في أعماقي جُرحًا نازفًا، بعد حفلات نِلتُ منها وجبات دسمة، ضيق زنزانتي رحمة، ظلامها فُسحة مضيئة من الهدوء، أتاحت لي لملمة ذاتي.

توارُدُ الأفكار سيطر على احتجاجات أعضائي المُتضرّرة من الكبل الرباعيّ، الوسيلة الأشدّ إيلامًا وتأثيرًا في يد الجلّاد؛ عندما يهوي به عليّ بحقد أعمى ظاهر، لا رحمة ولا رأفة.

استرجاع لما سبق من أيّام اعتقالي على أحد الحواجز قبل شهرين، لسبب تافه. قيل لي وقتها:

-"إنّ بطاقة هويّتي البلاستيكيّة مكسورة".

باعتقادهم أنّني أرفض الهويّة السوريّة، وقد كسرتُها عمدًا، هذا الادّعاء تولّد لديهم بعد انفجار المظاهرات في درعا بقليل. ما زال ذلك الحلم اللّعين يحتلّ مساحة من نفسي، وجلب لي معه من هناك مساحة من فوق الأرض كلّها إلى هنا وضعها أمامي؛ فتساوى عندي الفَوْق والتَحْت، هذا التقارب؛ أطلقني للتّفكير على سجيّتي وبلا قيود.

❖❖❖

حقيقة لا أدري على وجه الدقّة ما الأمر الذي حصل، حتّى استعدتُ حادثة الحلُم القديم المُزعج من جديد، بعد ثلاث سنوات من نسيانه، عاد إلى ساحة الذّاكرة الأماميّة.

مُجسّدًا ما حصل معي، عندما لاحقتني مفرزة الأمن السياسيّ، جرّاء نشاطي في منتديات (أتاو) على الشّبكة العنكبوتيّة.

ربّ ضارّة نافعة، أشياء كثيرة تعتدي على حياتي بشكل سافر، ولم تُتِح لي الفرصة للوقوف أمام نفسي أو مع ذاتي. منافذ الصّفاء في روحي أفسدتها طبيعة العلاقات على مختلف الأصعدة.

مُعطيات الحياة العصريّة تُجفّف المنابع الروحيّة ليس عندي وحدي، بل عند جميع النّاس الذين عرفتهم، ومن لا أعرفهم.

منذ ذاك اليوم.. ورنين الهاتف ذو الصّباح المبّكر، كأنّي به..!!، وما زال رنينه يشدّ أعصابي.. وتتفر منه أُذناي؛ أيقنتُ بما لا يدع مجالًا للشكّ، أنّ اسمي تصدّر قوائم لوائحهم، وأصبحتُ من غير المرغوب بهم لدى الأجهزة الأمنيّة.

يعني بالعاميّة: (حطّوا تحت اسمي خط أحمر).

خاصّة بعد مجيء عُنصريْن من الأمن السياسيّ وقتها، وأخذوا منّي تَعُهّدًا خطيًّا بعدم الدّخول لمنتدى (أتاو)، وعلى سبيل الدردشة أخبرتهما:

-"أنّني انسحبتُ من المنتدى برغبتي، وبكامل إرادتي، وأعلنتُ صراحة ذلك على الملأ فيه، فلا يُمكنُني الرّجوع إليه مهما كلّف

الأمر، أيضًا أنّ السّلطات المُختصّة حجبتِ المنتدى عن المستخدمين، كنتُ آملُ أن تعطوني كتاب شكر".

هزّا رأسيْهما مع ابتسامة خفيفة، تُخفي وراءها كثيرًا من الأشياء المخيفة، وعلى سبيل المجاملة لي. قال أحدهما:

-"لو كان الأمر بيدي لفعلتُ ذلك، أنتم حقيقة أوفياء للوطن والقائد، من خلال المعلومات التي وصلتنا أنّكم تستحقّون..".

وسكَتَ عند هذا الحدّ. تلبّستني حالة رُهاب جديدة رغم الانفتاح في الجلسة، وفناجين القهوة تُدار بيننا.

-"يا إلهي ما الذي قصده هذا اللّعين بكلمة، تستحقّون؟. أقَصَدَ .. أم قَصَدَ.. أم قصَد؟. كل شيء جائز".

ولم يتوقّف الأمر عند ذلك، وبعد فترة كان دور مفرزة الأمن العسكريّ، فقد جاءني عنصرهم المكلّف بهذا الملف، وعمل دراسة تقييم أمنيّ عنّي، وأخذ منّي المعلومات المُعتادة. والباقي هم يُكمِلونه من عندهم، ومن مصادرهم المبثوثة هنا وهناك.

❖❖❖

برودة بلاط أرضيّة الزنزانة، رطّبت حرارة ألم الذكريات البعيدة والقريبة، صدى الصوت الأجشّ تردّد مُحدّدًا في أذنيّ:

-"خلّيك معي".

أنساني الرُّطوبة المتسلّلة عبر مقعدتي، تململتُ قليلًا. تتميلٌ لا أستطيعُ تجاهله، الجدار وسيلتي للالتصاق به، والاحتكاك به بشدّة.

شعرتُ بأعضائي مُتيبّسة، قمتُ متثاقلًا، وأنا أستندُ على الجدار. وقعُ خُطوات الحارس المُتسارعة، جعلتني أنتصبُ واقفًا مُتحفّزًا؛ وكأنّني بانتظار شيء ما. حدسي لم يخطئ عندما امتدّت يده لإزاحة مزلاج الكوّة التي لا تُفتح إلّا على فترات متباعدة.

تراخى إصرار شريط الذكريات استبدادًا بمشاعري، لا أدري على وجه الدِّقّة كم مضى من الوقت عليّ وأنا مُستغرق في حالة هذيان، وهروب من واقع زنزانتي الكئيب لأعيش لحظات جميلة رغم ألمها.

- العسكريّ نادى عليّ: "كم رقمك؟".

- أجبتُ: "٢٣٠٠".

- العسكريّ: "استعدّ لاستلام طعامك".

-: "حاضر".

- العسكريّ: "يلّلا .. خلّيك معي".

-: "لعنكم الله.. هوايتكم إصدار الأوامر، شعوركم بالفوقيّة كرّهني بكم، تُعاملوننا على أنّنا من كوكب آخر، وكأنّنا لسنا أبناء وطن واحد. عقليّتكم العفنة التي تتعاملون بها معنا جامدة. بطريقتكم في التسلّط علينا. القانون بأيديكم تنُفّذون باسمه أعتى

وأبشع أنواع التعذيب، وباسمه تُلفّقون التُّهَم لنا بما يروق لكم. كأنّما القانون لكم وحدكم".

رفعتُ صوتي حتّى يصله واضحًا:

-"حاضر.. أنا معاك".

يا أللّه ما أغبى هذا العسكريّ..!!، يبدو أنّه غير متأكّد من أنّني في القبو تحت الأرض وفي قبضته، وفي الزنزانة ذات الباب الحديديّ الثقيل الموصد دوني عن باقي أجزاء القبو، موسيقى صريره تبثّ شعورَ فرح في أثناء فتحه، على خلاف الرّتم الرّتيبِ المقيتِ القاتلِ، كلّما استدعوني للتحقيق.

❖❖❖

قصّتي هذه مؤكّد أنّها ستُدوّن، واللّه أعلم..!!، ومن سيقرؤها في قوادم الأيّام؟. أخوفُ ما أخاف منه. أن أُتّهم بالسلفيّة التي تستدعي وَصْمِي بالتعصّب، ومن الممكن أن أُصنّف في عداد الجماعات الإرهابيّة المُتطرّفة، وأن تصدُر بحقّي مذكّرة توقيف دوليّة من دول عُظمى، أو هيئات أُمميّة.

ما قادني لهذا الشّعور المفاجئ، عندما تذكّرتُ عالم الدّين والفقيه (ابن تيميّة). حينما حُبس، على خلفيّة اختلاف آرائه في العقيدة مع علماء السُّلطان الذين أرادوا به سوءًا.

وفي فترة الحبس الثانية على خلافه مع الصُّوفيّة، عندما أنكر عليهم كثيرًا من أفعالهم وشَطحاتهم، رغم أنّه كان صوفيًّا في بعض مراحله.

اسم هذا العالم صار هذه الأيّام مُقلقًا لوسائل الإعلام، والهيئات على مختلف انتماءاتها، هالة التخويف التي نُسِجَت حوله، ومهاجمته على مختلف المنابر، واعتباره أنّه أحد منابع الإرهاب القديمة. المتجدّدة على يد جماعات اتّخذت منه إمامًا، باعتناق آرائه بفجاجة، وبعكس ما أُريد منها حينما قالها في وقتها.

فكانت منهم كلمة حقّ أُريد بها باطل؛ فهو كما اجتمع النّاس حوله في حياته، فقد تمّ استخدام اسمه؛ لتفريق الكلمة فيما بين جماهير الإسلام من خلال إطلاق عبارات التكفير من العيار الثّقيل، والإخراج من الملّة.

تماثُلٌ فيما بين المواقف، لا أدري إن كان الأستاذ هو نفسه المُخطّط الجهنّمي المُصمّم والمُخرِج له، الذي أصدر التعليمات.

هاجسي كلّما عجزتُ عن تحليل موقف ما، أو محاولة فهم كُنْهِه، أذهبُ بعيدًا للتفكير بعقليّة المُؤامرة. وهذا ما حصل بالفعل مع النُّسخة الثانية لقُطبَيْ الأمّة العربيّة في العصر الحديث الإسلاميّون والقوميّون، كما فرّق القَوميّون الجماهير، بتصنيفهم للنّاس ما بين تقدميّين متوافقين مع أفكارهم وآرائهم، ورجعيّين مختلفين معهم.

وربّما إذا شطَح بي الخيال للسير قدُمًا في نظريّة المُؤامرة، وفي جرّة قلم منّي، سأصنّفُ القيادات والزعامات، وبإعلان نفسي عالمًا بالأنساب، وبالأسرار الفضائحيّة؛ لأخرج بنتيجة: أنّ فلانًا يهوديٌّ صريح، وآخر أمّه يهوديّة، وآخر كان جدُّه يهوديًّا أسْلَمَ ظاهرًا، وأخفى يهوديّته، وعمل بكلّ ما أوتي من قوّة على تنفيذ مآربه بحياكة المؤمرات.

يا للعجب..!!.

حينما انتصبت قامات كلماتي قُبالتي شامخة، آمِرةً قلمي بكتابتها. دون تَردُّد، لم يكن من خيار أمامه، إلّا الاستجابة:

(جميعهم وُلِدوا في هذا الوطن.. تنفّسوا هواءه.. شربوا ماءه.. أكلُوا من خيراته، ويَدّعون حُبّه..!!".

كفروا بالقواسم المُشتركة.. وما أكثرها..!!.

وعلى ذمّتهم: "خلافاتهم كانت خوفًا على مصالح الوطن".

تأجّجت صراعاتهم حدّ الاقتتال، واتّهامات متبادلة، وصلت غايتها: "العمالة للعدوّ" و "التّكفير".

شيطانهم أوْحَى لكبيرهم بفكرة: "التقدميّة والرجعيّة". ما زال سيل حماقاتهم مُتدفّقًا بهُرائهم، والسّكين لم تتوقّف في اقتطاع المزيد من الكعكة..!!.

"ماحاجة الوطن لمثل هؤلاء؟".

مسكينٌ أنتَ يا وطن..!!.

كلّ جرائمهم ارتُكِبَت باسمك..!!.

كلّ حروبهم ارتُكِبَت باسمك..!!.

كلّ من قُتِلوا في السّجون من أجل مصلحتكَ..!!.

كلّ من حُرق بيته، وسُرق، باسمك..!!.

وكلّ مَدرسة قُصفت.. وكلّ طفل قطعت رجله.. باسمك..!!

ألهذه الدرجة اسمك غالٍ وعزيز على الجميع؛ فلماذا لم يحترمونه؟.

وبذلك أكونُ قد قبضتُ على ناصية الحقيقة التي لا تقبل نقاشًا، ولا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

وأصبحتُ مَصدرًا للإشاعات الكاذبة الفاجرة بتشويه الحقائق، وحَرْفِ رؤية الجماهير التي تستهويها مثل هذه الخرافات، وحجبتُ رؤية الحقّ، وكنتُ مِنبرًا للكذب والدّجل، ولن أختلف عن حشود قُطبيْ الأمّة العربيّة المُتناحريْن المُتدابريْن، وأكون مِعوَل هدم، وأزيدُ الطّين بلّة.

جاءني هذا الخاطر في نهاية الأسبوع الأول بعد انقضاء الشهرين على اعتقالي، ومالم يخطر على بالي، وكأنّ صدمة فرح ألجَمَت لساني، ودموع فرح غير مسبوقة، عند إخباري بنقلي إلى سجن (عدرا)، الذي قضيتُ فيه ثلاثة أسابيع؛ لتكمل فترتي كلّها تسعين يومًا، كنتُ مُحتَجَزًا على ذمّة التحقيق عند المُخابرات، وبلا مذكّرة اعتقال.

(ماذا يفعل بي أعدائي؟ أنا جنّتي في قلبي. نَفْيي سياحة، وسِجْني خَلوة، وقتلي شهادة).

هذه مقولته الشهيرة، التي جاءتني في هذه الفترة الحرجة، فقويَت عزيمتي. عندما توقّفت ذاكرتي في محطّة قويّة الشّكيمة؛ لتعطيني شُحنة إضافيّة، ودافعًا للتماسك أمام ما كان وسيكون لي في قابل الأيّام في السّجن.

لا أدري..!!، كيف جاءني الإلهام؛ لأتذكّر كل هذا الحديث القديم من مجاهل الذّاكرة، وما الذي قاد مَقولة الروائيّ (واسيني الأعرج) إلى ذهني؟. مُقترنة مع مقولة عالم جليل:

(أنا لا أدمّرُ حلم أحد، أنا عاجز عن فعل ذلك، على أيّة حال، أنا لا أعرفُ ماذا يعني أن يحلم الإنسان؟).

توارد الأفكار سيلٌ لا يتوقّف أمام استغراقي في حالة تأمليّة عجيبة، ربّما هي للمرّة الأولى في حياتي، حيث لم يخطر ببالي أن أختلي بنفسي، صراعات الخِضَمِّ تأخُذُني من أقصى اليمين إلى شمال الشّمال، الشّاعر (صلاح عبدالصّبور)، جاءني بصورته المُرتسمة بقاياها في مخُيّلتي من خلال صُوَرِه القديمة بالأسود والأبيض المنشور بعضها على أغلفة كتبه، وكانت الأوضح حقيقة، ما كانت نشَرَته عنه مجلّة العربيّ والفيْصل، استعرضتُ من جديد بقايا ما عَلِق في ذهني مما قرأته قبل سنوات، في مسرحيّته الشعريّة الشهيرة (مأساة الحلّاج)، خاصّة في حبسه، اتّحاد حالتي واندماجها بتماثل عجيب مع هؤلاء القوم من صفوة الصّفوة، الصّفاء الروحيّ في أعلى تجليّاته المُتسامية على واقعي المُتردّي

في هذا المكان الحقير، والاسترسال في ملكوت الخيال والتفكير، ربّما يصل في بعض الأحيان إلى الجنون.

اقتلوني يا ثقاتـــي إنّ في قتلي حياتـــي
أنا عندي محو ذاتي من أجلّ المكرمـــات
وبقائي من صفـائي من قبيح الســـيّئات

ساقت هذه الأبيات نفسها بنفسها في صورتها البديعة؛ لتضفي بَرْدًا وسلامًا على روحي، وتنتشلُني بعيدًا؛ لتأخذني إلى ملكوت السّماء ارتقاء وألقًا.

جُزءا المسرحيّة، الأوّل بعنوان (الكلمة) والثاني (الموت)، وهي من روائع الأدب، ذات الأهداف السياسيّة، إذ تُسلّط الضوء على العلاقة التزاوجيّة فيما بين السّلطة المتحالفة مع الكَهَنوت الدينيّ، ووقوفها سدًّا منيعًا في مواجهة محنة العقل، فنقلت إلينا شخصيّة الحلّاج القادمة من منتصف القرن الثالث للهجرة.

ويأخذ الأنين مداه على امتداد القرون التّسعة اللّاحقة وُصولًا إليّ، فالظُّلم هو الظُّلم، وإن تغيّرت أساليبه بتبدّل زمانه ومكانه.

سُبحان الله..!!، كأنّني على موعد منذ أمد بعيد مع هذا المُنعزل القسريّ؛ ليكون اللّقاء الأقوى مع نفسي، أعتقدُ أنّني وجدتُ ذاتي،

(ربّ ضارّة نافعة) كما يُقال، وهنا تتجلّى أمام عينيّ أعظم آيات المِنْحَة الوليدة من رحم المحنة.

ألتقي بـ(ابن تيميّة)، و(الحلّاج) جاء مقيّدًا بأصفاد رائعة (صلاح عبدالصبور)، و(واسيني الأعرج).

يا إلهي.. !!.. التهيّؤات تتجلّى إلى تصورّات أعاينها بكامل قِواي العقليّة، الإمام (أحمد بن حنبل) حضر إليّ أيضًا لِيَشُدّ من عزيمتي؛ فانجلت أغشية الظّلام عن روحي، وحكى لي الكثير عن محنته في السّجن، ومُراودته على صلابته في الحقّ، وأساليب الإغراء بالتّرغيب تارةً، وأخرى بالتّرهيب.

أردُّ عليه: "يا إمام حَفِظ الله بك انحراف الأمّة، في قضيّة فكريّة لا يفقه معناها الكثير من النّاس، ما بين خلْقِ القرآن أي هو مخلوق، أو على أنّه كلام الله. إنّه الثنائيّ المقيت، تحالف السّلطان، مع علماء دين طالبين الشُّهرة والجاه والسُّلطة".

أأنا في حلم أم في عِلْم، ولساني يردّد بكلّ ثقة:

-(ربِّ السجنُ أحبُّ إليّ ممّا يدعونَني إليه).

رسخت الفكرة في ذهني، وسكنت روحي، وأنا أنخلع من ظلام زنزانتي بعيدًا إلى رحاب واسعة من رياض الفكر، وما أنا لأن أكون أمام نبي الله يوسف..!!؟.

علائق القواسم المُشتركة للسّجون على مدار التّاريخ هو الظُّلم؛ فكما ظُلِمت هذه الفئة الحاضرة معي الآن، ينشرح صدري، وأتنفّس بعمق الهواء المُلوّث المَمجوج من أنفاس ساكني الزنازين الأخرى، ولا يتجدّد إلّا نادرًا، فقط حينما يُشغّلون مروحة في أعلى الجدار تشفط الروائح الكريهة المنبثقة عنّا جميعًا إلى خارج القبو.

السّجن جاء في حالتي ضريبة مدفوعة من حياتي عن أفكاري؛ فهل منظّمات حقوق الإنسان، والدّفاع عن الحريّات تعتبرني سجين رأي؟، أعتقد جازمًا أنّ السَّبب الكامن وراء وُجودي هنا، ما كتبتُه على المنتدى (أتاو) مع المجموعة.

انبثق الخير من جحيم الظلام، وتولّد في نفسي نورٌ سماويٌّ، اتّسعت مساحة الرؤية؛ فتباعدت الجدران مسافات شعرتُ فيها بانطلاق روحي إلى رَحَابة الآفاق، واستحالت الوحدة والظلمة، وما يحيط بي من مآسٍ إلى انشراح صَدْر وثِقَة ملأت جوارحي، وارتاحت لها جَوانحي.

❖❖❖

كأنّ هذه الفترة من حياتي هي الأغنى بنشاط ذاكرتي، رغم الألم والضغط النفسيّ، ولكنّها العزلة، رغم أنّها قسريّة، لكنّها الأقوى والأجمل؛ لأنّها أتاحت لي التوقُّف أمام نفسي، ومُراجعات لسنوات حياتي كلّها. وها أنا أُحبَسُ بسبب اختلاف الرأي عندما كتبتُ على المنتدى، كم هي بعيدة عنّا ثقافة الاختلاف.

الرأي والرأي الآخر ظاهرة حضاريّة لا وجود فعليّ لها في حياتنا العربيّة بشكل عامٍّ. وحقيقة ثابتة لا مراء ولا جدال فيها. ويتضّح يومًا بعد يوم أنّ في داخل كلّ منّا على اختلاف مُعتقدنا وانتمائنا دكتاتورًا نائمًا، يستفيقُ غاضبًا عند أوّل اختلاف في رأي ما، ولو كان شيئًا تافِهًا، تورّم ذواتنا لدرجة لا تُطاق، هو المنطلق الأوّل والأخير لإثبات مكانة لنفسه على طريقة، (فلأعش ولْيَفنَى العالم من بعدي).

من يحمل العصا يرومُ الاستحواذ على السّاحة له وحده. يضيق ذرعًا بمن هم فيها، أو على أطرافها؛ فيجهد بلا كلَلٍ ولا ملَلٍ؛ بإفراغها من محتواها، ومن إعادة تشكيلها بالطريقة المناسبة لطموحاته في السيطرة.

مُؤكّدٌ هذا أنّه فوق الأرض. وسأتحمّل العبء الثّقيل على نفسي بحلف اليمين، والذي أتجنبّه قدر الإمكان، أهرب منه ما استطعتُ إلى ذلك سبيلًا، في هذه المرّة أحلفُ جازمًا؛ ولتشهد عليّ نفسي أمام اللّه: "أقسم باللّه العظيم، أنّه منذ عام ١٩٠٠م، لم يستطع أحدٌ من العرب تحقيق شيء نافع لبلاده". هذا اليمين المُغلّظ من أجل التّاريخ، لم يطالبني به أحد البتّة.

قال الأرقش:

-"لو كان لي السّلطان المُطلق في الأرض، لأمرتُ بيوم واحد على الأقلّ من كلّ سنة يُكرّسه كلّ شعوب الأرض للسّكوت والتأمّل، لكن

هناك أُمَمًا مِحْنتُها الثرثرة؛ فهذه أُحتِّمُ عليها الصّمت شهرًا كاملًا في كلّ عام".

يبدو أنّ طبيعة الموقف استدعت قصّة الأرقش، الذي كان وجهه كرقعة من الخشب نخرها السّوس، عمل خادمًا في مقهى، حينما عرض نفسه كخادم لصاحب المحلّ بدوره اشترط عليه أن يُطعمَه ويُؤويه ويعمل لديه مقابل ذلك، فقبل الأرقش بشروط سيّده، الذي أصابه من الهمّ والغمّ عندما غادره خادمه بعد سنوات من العمل بلا كَلَلٍ ولامَلَلٍ، واكتفى هو والزبائن بلقب الأرقش أطلقوه على النادل، لم يسأله أحد عن اسمه، ونسبه، وجنسيّته، ومن أيّ البلاد هو، عمل لسنوات عندهم، ولم يُعرَف له اسم سوى هذا اللّقب، الذي لم يختره هو، وإنّما أُجبر عليه وأُلصِق به بغير رضًى وموافقة منه؛ فاضطّر للقبول بالواقع بلا أدنى احتجاج، أو تذمّر ظهر عليه يومًا؛ فبقى طوال السّنوات التي عملها في المقهى، ما انفتح على أحد في أيّ حديث يسترسل فيه مُفصِحًا عن مكنونات نفسه. فقد اختار السّكوت بكامل إرادته، واعتبره خياره الاستراتيجيّ، بينما أنا مُجبر على السّكوت والصمت لطبيعة المرحلة والمكان. ويتابع الأرقش:

-"النّاس قسمان. مُتكلّمون وساكتون، أنا قسمُ الإنسانيّة السّاكت، أمّا البُكمُ والرُضّع؛ فلغاية خَتَمَت الحكمة الأزليّة على أفواههم؛ فلا يتكلّمون، في حين ختمتُ على فمي بيدي، وقد أدركتُ حلاوة

السّكوت، ولم يُدرِك المُتكلّمون مرارة الكلام، لذلك سكتُّ والنّاس يتكلّمون".

لايسعني بعدما سمعتُ من كلام الأرقش، إلّا أن أبصُم على كلامه بلا تردّد، سائحًا بهيام في التفكّر البعيد فيما وراء كلماته النّاضحة حكمة، أحتاجها الآن، ولإيماني بقدرات الأشخاص الذاتيّة، ففي تقديري فإنّ الأرقش لا يقلّ أهميّة عن الحلّاج فيما ترك من أثر في نفسي، أتمنّى أن ينسحب على باقي أيّام حياتي مُستقبَلًا.

ذات يومٍ بينما صراخ المعلّم صاحب المقهى وانفعاله الشديد، وقد أطلق العنان للسانه بالسُّباب، والشتائم المُقذعة لشخص الأرقش؛ عندما تأخّر للمرّة الأولى منذ مجيئه إلى هنا عن واجبه، ومُهمّته التي نذر نفسه لها. قال الأرقش:

-"وبماذا أجيبه؟. هل أقول له – ولا همّ له في الحياة إلّا نقل المال من جيوب غيره إلى جيوبه – إنّي كنتُ أرقب النّجوم؟. وكيف لي أن أُفهِمَه أنّ مُسامرة النّجوم، والأمواج أجدى من طبخ القهوة، وتقديمها للزبائن، وقبض الفلوس منهم". لله درّك يا أرقش، لولا السّكوت والهدوء رغم قسريّته، لما كان تعرّفي إلى نفسي، ولما كانت جلسات التأمّل؛ فبفضله عادت ذكراك إلى ذهني عبر التداعيات، وأنت في مجاهل النسيان من ذاكرتي لتباعد السنين بيننا.

❖❖❖

(٥)

كأجنحة الحمام الأبيض المسافر برسائل العاشقين، بدأتُ رحلتي قبل سنوات مع روما لليوم الأوّل، بجولة تاريخيّة لمشاهدة أجمل ما خلّفته الحضارة الرومانيّة بخلاف منطقة الفاتيكان، والكنائس التابعة لها.

مدينةٌ منسوجة من الأشواق والعشق والرومانسيّة، كلّ ما في المدينة غريب مُسافر الطّيور تسافر جنوب المحيط.

أحلامي الباردة تنتشي مع صيف من اللّذه والجنون. أحِسّ بطعم الهواء في صدري، كَقُبَل حبيبٍ مُشتاق. كلّ شيءٍ فيها لذيذ مسافر.

أتخيّل نفسي الآن أنّي ملكة لا أشبه أحدًا من النّساء. دائمًا أرى نفس في ألوان لوحاتي وخربشاتي.

الشّمس ترسل أشعّتها عبر النوافذ من الحديقه الواسعه الغناء، والطّيور تصدح أعذب ألحانها، تتمايل على نغماتها أغصان الأشجار ترقص طربًا. تتماوج نسمات المساء اللّذيذ في أُفق الأصيل، البُطء سمة الشّمس في مسيرها إلى آخر الممرّ المائي، وكأنّ الغيوم تقنعها بالبقاء، قطع الغيوم رمادية قادمات من الشّرق، بيضاء، وسوداء، كراهبات في قُدّاس ينُشدن نشيدة عن احتضار المطر:

"السماء في الأصيل الذاهب لمعانقة الشمس، كعاشقيْن يتواعدان ممارسة العشق في آخر ساعات النهار خلف الممرّ المائيّ، زوارق من الخشب الأبيض المصبوغ بألوان الرّبيع تتهادى ببطء مسيرها، كأنّها أكفان جُنّاز تخافُ القبور.

أشعر بخدر في زنديّ المتكئيْن على حافّة نافذة غُرفة في المعيشة في بيتنا؛ المُشرف على أحد الميادين هائلة الجمال والبهاء، وفي الجانب الآخر حديقة واسعة يستمتع النّظر بمناظرها الخلّابة البهيّة.

تكادُ الابتسامة تتفجّر في شفتيّ إلى قهقهة، وأنا أستعيدُ منظر موظّف الاستقبال في بهو الفندق.. نُزلنا المؤقت الذي كان لمدة شهر، بملامح وجهه الطفوليّة، عندما تهجّى أحرف اسمي المكتوبة باللّغة الإنجليزيّة، ومقابلها بالعربيّة على نفس الصفحة.

بادرتُ لمساعدته، وقلت له:

-"هالة نجم الدّين".

بعينيْه الذّابلتين على اخضرار لونهما، بدت ملامح الغرابة الممزوجة بالخجل من انكشاف أمره أمامي؛ لعجزه عن نطق اسمي بالإنجليزيّة، لأنّه من المفترض أنّه يتقن أكثر من لغة بطلاقة، استعاد ابتسامته بصعوبة، وأنا أراقب تقاطيع وجهه.

ارتسمت هذه اللّحظة التي التقطتها له عدسة دماغي، وعندما يحين الوقت، سيكون وجهه على موعد مع لوحة (بورتريه)، سأرسمها، أتوقّع

لها سلفاً أن تُضارع بشهرتها لوحة الطّفل الباكي العالميّة، من الصعب أن أقول أنّها ستُنافس (الجيوكندا) في موطنها الأصليّ.

❖❖❖

هناك على طرف الميدان وتحت عامود للكهرباء أرى أحد الفنّانين التشكيليّين، يرسم جداريّة على جدار أوهنه الزّمن هشاشة من كثرة الرّسم والمسح.

رجل سمين ذو وجه روميّ أحمر، يدفع بعربة الطماطم الحمراء التي قاربت على الذُّبول.

عيون تشتهي كلّ شيء في الحياة، وعيون سكرى كعيون العشّاق.

المكان مليء بالبشر لا تُرى منهم سوى العيون، وهسهسة ابتسامات كَرَتابة مسير الشّمس إلى نهاية حتفها اليوميّ. أرواح تنعكس مسحة ضياء فَرِحٍ على الوجوه.

الظّلمة تهجم بلا هوادة لطرد بقايا خيوط الشّمس، وهي تجرّ أذيال هزيمتها. كثيرون يخافون ظُهور أشباح اللّيل. في الشارع الضيّق هناك.

أنظرُ باهتمام إلى الرّجل ما زال يرسم على الجدار الواهن في تعب.

أركّز أكثر في معاينتي له. إنّه يعتمر قُبّعة عتيقة من الصوف الرماديّ، وكأنّ الزمن لم يعطه سواها، مليئة بالغبار.

يلبسُ معطفًا طويلًا من الكتّان الأصفر مُلطّخًا بالألوان. فوضويّة بتوزّعها على صدره وأكمامه، كبدلة جنديّ، عاد من أرض المعركة ببقع لم تتمح آثارها بعد أن توقّفت الحرب، وَحَلّ السّلام.

يُحاول أن يرسم شيئًا على الجدار، يضعُ غُليونًا من الخشب الأحمر الغامق، أفخم من أن يكون في فمه هو بالذات، لا تخرج منه أيّة سحابة دخان لتُحيط بوجهه كهالة حول القمر. أظنّ أنّ أنفاسه مُهترئة لا تقوى على سحب ونفث الدخّان خارج فمه. وكأنّي به يضعه موضة مكمّلًا به شكله الكاريكاتوريّ، وعلى الأغلب أنّه مُستغرق في فكرة يحاول تجسيدها على جداريّته.

أتخيّل أن غُليونه لم يكن إلّا كـ(البُرُوش) الماسيّ، يتصدّر فُستان أرملة قاطعت الأفراح منذ عهد بعيد.

أغمضُ عينيّ فجأة أفركهما بظاهر كفيّ.. أدهشني شيءٌ ما، بكلّ تأكيد ليس الجدار المليء بلُطاخات فراشي الألوان.. ولا بالرسّام المُنهمك فيما بينه وبين نفسه. منعزلًا عن العالم المحيط به. لا يشغله كلام العابرين، ولا ضجيج الأطفال، وهم يتراكضون بفرحهم الغامر، الذي يُضاحك المكان بقوّة؛ ليُفصح عن عبقريّة السّرور والبهجة بجلاء.

صمت الدّهشة يقودني لإعادة تركيز نظري.

"يا إلهي..!!".

إنهّا هناك، فتاة صغيرة شقراء، مُتشابكة الشَّعر، وكأنّ يومها وما قبله قرّرَا وضع كلّ أحزانهما في شعرها المُشعّث.

فتاة من البراءة المفقودة من أحمال الأحزان القلقة في قلبها، كأنّها آلهة رومانيّة، عيناها تبدوان حائرتيْن فزعتيْن تحكيان خوفًا مكبوتًا. كبحيرة من كبريت يكتسي وجهها قذرًا، لكنّها لا تُخفي ما في باطنها، إنّها قطعة من القدر تمشي في شارع الحياة، المُثقلة بأحمال الخوف من الجوع، تتكوّر كالثكلى، لا يستر جسدها سوى أسمال بالية. يترفّع عنها كثير من أهل النعمة، لو احتاجوا أن يمسحوا أحذيتهم بها.

اهتزّ قلبي خوفًا عليها. في لحظة ما. خِلتُها أنّها فتاة رواية (بائعة الكبريت)، عندما ماتت غرقًا في هذيانها. ولا أدري ما الذي نقلني إلى توارد الأفكار، وأنا أستعيد ما قرأته في رواية (بائعة الخبز) المرأة التّعيسة التي فقدت زوجها، وعملت لتربية أبنائها. البؤس لا يستحي بالإعلان عن نفسه سواء كان في روما أو الدانمارك أو باريس أو دمشق أو بغداد أو صنعاء.

جيوش البائسين جميعها تتحرّك فوق الأرض. تحت سمع ونظر العالم المحروم من إنسانيّته. وعجزت البشريّة عبر تاريخها الطويل عن محو البؤس وآثاره من مجتمعاتها، كما عملت بعض الدول في عصرنا العمل

جديًا على محو الأميّة، لاستخدام الموضوع إعلاميًّا. على كلٍّ لستُ مكلّفة بالبحث عن النوايا وتفنيدها.

كأنّ الزمن قرّر مُلاعبة اللّيل دَوْرًا من الشطرنج فوق ثوبها، السواد يغالب البياض لطمس نقائه. أُمعن النظر. إنّها لا ترى من الألم سوى ما تحسّ به من عضّة جوع نهشت بطنها.

إضاءة أرجوكم.

لا أكاد أرى ما بيدها. كم هو مُعتِمٌ مسرح الحياة، لا يُرى على خشبته إلّا ما يلمع فقط. لقد تحقّقتُ ممّا تحمله بيدها، عندما خرجت من أسوار الحديقة، عابرة الشّارع الموصل إلى مدخل الفندق الذي يحمل طابعًا كلاسيكيًّا قديمًا، عبقًا بسحر روما؛ إنّه برواز صغير من الخشب، فيه صورة امرأة، انعسكت بقايا خيوط شعاع الشمس المتسرّبة عبر فراغات بين أغصان الأشجار على بِلّورة البرواز؛ تتوهّج الصورة بداخله؛ فتبرق عيناها بوميض اخترق عقلي، ورسم لوحة جديدة في قلبي. إنّها روما مُلهتمي.

كم سمعتُ عن جاذبيّة المكان، وقرأتُ في هذا الموضوع كثيرًا من المواضيع المُؤنْسِنة له، وبثّت فيه شيئًا من الرّوح والحياة والعبقريّة.

ولم أكن لأُصدّق ذلك، إلّا حينما لمسته بيدي خلال وقفة قصيرة لا تتعدّي نصف السّاعة على نافذتي، بلا فنجان قهوة المساء، وبلا انتظار الإلهام، المكان طبَع نفسه فيّ بلا إذن منّي، وبلا تفكير وتصميم على

استنباط أفكار وليدة وهجه؛ المُوحي بأفكار جديدة غير مُستهلَكة سابقًا.

❖❖❖

حرارة الموقف أشعلت قلبي بلهيبها انْتِحابًا على مرارة العيش لمجموعة من البشر، تناءت عنهم سُبُل العيش بكرامة، حتّى في بلاد التمدّن والحضارة ذات الغِنى، وكم صادفتُ شبابًا من بلدي أثناء دراستي في كليّة الفنون الجميلة في جامعة دمشق، جميعُهم يسعى بلا كللٍ أو ملَلٍ لبصيص أمل، سعيًا وراء تأشيرة (فيزا)، حتّى ولو كانت مزوّرة، كما حدث مع زميل لي كان يسبقني بسنة دراسيّة، عند تخرّجه. وحالفه الحظّ بالعثور على شخص جلب له تأشيرة إلى اليونان.

جرى حديث مع زوجي بعد عودته من مشواره. بعدما اسْتردّ قِسْطًا من أنفاسه اللّاهثة من صعود الدَّرَج وُصولًا إلى بيتنا في الطّابق الثاني، وكان لأكياس الأغراض ثقلها الذي احتملته يداه، وأرهقته.

ما إن جلس طلبني كأس ماء بارد؛ ليروي ظمأه، لم أستطع كتمان مشاعري وأحاسيسي. من فوري فتحتُ (الأنترنت) على صفحة المنتدى (أتاو)، شهيق أنفاسي المُتقطّعة يغالبُني بخروجه، لم أستطع التكلّم بكلمة واحدة، ولا حتّى مُجاملة التّرحيب بزوجي بعد قدومه، وبدأت

أقرأ له ماكتبتُ من وحي منظر الفتاة التي علمتُ فيما بعد أنّها غجريّة:

(دموع الياسمين تمسح كآبة الواقع في دهاليز اليأس..!!،

أيهّا المُتَشَبّث بحبال القهر..،

أيّها الشّاكي.. الباكي.. الكثير الرّقاد..،

يا حزين النَّغم..!!، أما تعبتْ أحزانك؟.

ألم تُبكِك شُجونك المُتراكمة في أعماق قلبكَ؟.

أما جُنّ قلبُك الرّهيف من وجع أبلاه، وشَجَنٍ أعياه..؟.

تأمّل تقاسيمَك الشّاحبة في مرآتكَ..!!،

ألم تسمع صوت أنينها يُبكيكَ؟.

ويرثي شَبَابَك الضّائع بين أزقّة الأحزان..،

الأفق اكتسى أصيله بالسّواد من متاهة ليل طويل،

أوّل قطرة ضياء تُزيحه بلا مهادنة..؛

فيتنشر نور التفاؤل أرقُّ من أنفاس الصّباح).

أنهت هالة قراءة كلمات خاطرتها المؤثّرة، وأطلقت تنهيدة ارتياح؛ كمن انزاح عن كاهلها حملٌ ثقيل؛ عندما أيقنت من إنصاته باهتمام.

عيناه مُركّزتان لملاحظة انفعالاتها، المُترافقة مع حركات شَفَتيْها ويديْها، وخيط دمع يترقرق على حافّتيْ جَفنيْها، يُحاول اجتياز خطّ الكُحل بلا فائدة.

فرح غامر كَسَى وجهها. أضاء دواخلها بنشوة أنجبت ابتسامة مترافقة مع هزّة من رأسها علامة شكر عميقة. فهِمَ منها أنّها جائزة فوزه بسُكونه وانتباهه لما تكتب، فالكاتب يسعى جاهدًا بكلّ ما أوتي من قوّة أن يجد قارئًا، ولو كان على قارعة الطّريق، أو في العالم الافتراضيّ. ومتعة النّقاش تروق للبعض أكثر من الكتابة نفسها، وهو من مولّدات الأفكار، ومحرّض إبداعيٌّ لا يُستهان به: "الردود التي تأتيني من القُرّاء جيدة، وأهمّها على الإطلاق من المهندس معن، وفاضل السّلمان، وهُما من القرّاء ذوي الفهم العميق بما يتطرّقون له في ردودهم، يطيب لي مُتابعة كتاباتهم".

❖❖❖

يقول نصّار: كان عليّ أن أودّع صديق طفولتي الأحبّ إلى قلبي فاضل السّلمان مُكرهًا، الحسرة تعتصر قلبي؛ فينزّ ألمه مُنعكِسًا على وجهي، ليس من السّهل إمساك الدُّموع، وهي تفضح دواخلي المُنهكة، انهيار حُصُوني التي كنتُ أظنّ أنّها عصيّة، بَدَت هشاشتي ظاهرة للعيان، تُنبىء عن ضعفي.

الأماكن من حولي جامدة، نضبُت الحياة فيها، نسائم المساء العليلة صارت حشرجات مؤلمة في مجرى تنّفسي، قدماي اهتزّتا، ارتجفتا،

هبط جسمي مُفترشًا الأرض بلا تخطيط وإرادة منّي، لكنّ الذي لا بدّ منه، لا مفرّ منه، عاجلًا أم آجلًا.

آخر كلمة قلتُها له؛ رغمًا عن تجمّدها بين شفَتَيّ: "وداعًا".

كأنّها آخرُ كلمة نطقها لساني، وآخرُ نظرة زائغة عن وضاءة وجهه المُرهَق اختزنتها ذاكرتي، كانت آخرَ لقطة لشيء جميل أحببتُه، وآخرَ نبرة لصوته الملائكيّ لامست سمعي؛ كانت كهمسة حمدة الحبيبة التي لا تُنسى أبدًا ما حييتُ، عندما سمعتُها لأوّل مرّة عند فَوْرة الشّباب.

كم عاشرتُ وعاصرتُ من أصدقاء وأحبّة، فلم أكن لأشعر بما أنا عليه الآن، هاجسٌ يصرخ في أعماقي، أيقظ انتباهي المُتراخي بعد فوات الأوان: "ربّما هو الوداع الأبديّ الأخير، أيقنتُ أن لا لقاء بعد هذه اللّحظة التاريخيّة الفاصلة".

ضاق الوطن بأهله، فلم يعُدّ هناك مُتّسعٌ في ربوعه لفاضل السلمان؛ لأن يمارس حياته بهدوء وأمان، اللّجوء صار سِمَة إنسانيّة عامّة؛ تُحاكي مُخرجات الظُّلم بكثرتها الكاثرة، وهو هروب للأمام باتّجاه المحافظة على الحياة.

فاضل واقف على أبواب اللّجوء، في خُطوته الأولى باتّجاه (مخيّم الزعتري) في الأردنّ. تهيّأ نفسيًّا بداية، ثمّ تفقّد احتياجاته الضروريّة جدًا، ووضعها في الحقائب.

❖❖❖

انتظار مملٌّ مُقرفٌ أمام (كرفانات) مكاتب مُفوضيّة اللّاجئين في (الكامب) المُنفصل عن ساحات المخيّم بأسلاك معدنيّة متينة، الدّخول إليها مُتاح عبر بوّابة وحيدة تُفضي إلى ممرّات تتعرّج مُلتوية كأفعى تلتفّ على نفسها غير آبهةٍ بما يجري حولها، تحترس من أيّ خطر داهم مفاجئ.

رجُلُ أمْن أسمر البشرة شارباه يتدلّيان كذَيْل غراب، تختفي تحتهمان شفتان غليظتان كَمِشْفَرَيْ جَمَلٍ، خطوط الزّمن حفرت مساربها على جبهته، عيناه واسعتان بلونهما البُنيّ الدّاكن، صرامة ملامحه رواية بوليسيّة تبثّ الرّعب في نفس قارئها، تأخذ بتلابيبه لمتابعة الحدث المشوّق لبلوغ النّهاية، وانتصار البطل على أعدائه.

إشارة معيّنة من يده، مَتبوعة بحركة اهتزاز من رأسه، مُترافقة مع رفع حاجبه الأيمن للأعلى، مما يعمّق خطوط جبهته كخطوط ممرّات إنسانيّة آمنة صالحة لخروج المُحاصرين باتّفاقات مُعقّدة عبارة عن خارطة طريق فقط، وبضمانة وساطات أُمَميّة، عيون من تجمّع اللّاجئين الجالسين على إسفلت السّاحة الواسعة مُتعلّقة به تتغرز نظراتها في وجهه، والأسماع مرهفة للتمكّن من معرفة الاسم الذي يُنادي عليه ذلك الحارس الجامد كَصَنَم لا يبرح مكانه أبدًا.

❖❖❖

من الأن فصاعدًا صرت من رعايا دولة الـ (UN) الأُمَميّة، وقّع هنا على استلام بطاقتك الرقميّة، حافِظ عليها.

-"احذر المساس بالشريط الأسود اللّاصق على خلفيّتها؛ فإنّه يحتوي على كافّة معلوماتك الشخصيّة، ومن خلاله نتعاملُ معكَ، لأنّك أصبحتَ تحت حمايتنا، ألف مبارك؛ صرت الآن لاجئًا، وستحصل على كلّ امتيازاتك المُتاحة لك، اعتبارًا من الخَيْمة والبَطّانيّة وكوبون الخبز".

تأمّلتُ بقايا من نضارة قديمة باهتة على وجه الموظّفة، صرامة ملامحها حادّة كقرارات الأمم المتّحدة القاسية، ومقرّراتها التي لا ترحم مَنْ صَدَرت لأجلهم، مكتب الكَرَفان نظيف أنيق بطاولته الخشبيّة البيضاء، والموظّفة جالسة خلفها، وعن يمينها طابعة موصولة بجهاز (اللابتوب).

تمدّ يدها لسحب أوراقٍ منها، وإيداعها في مصنّف حَوَى ملفّات ممن سبقوني بالدخول.

زوجتي تجلس على الكرسي المقابل لي أمام الطاولة، على صدرها الطفل سامر.

يلهو بمصّ الحليب من ثديها، المُغطّى بطرف منديل رأسها المُتدلّي على صدرها، الطفل لم يتجاوز عمره الأربعة أشهر، ذكرى مولده كان يوم اعتقالي.

تاريخ لن يُنسى، سيبقى محفورًا في سُويداء قلبي، ومجدٌ ذو الثلاث سنوات، عيناه تدوران في رأسه كَلَوْلَب دائم الدَّوران. مُتّكِئٌ على رجل أمّه، صامتٌ درجة السُّكون على غير عادته. وجهه يحكي ألف وألف حكاية، رغم أنّه لم يفهم شيئًا مما سمع ورأى، فقط انتبه حينما أجابت أمّه على سؤال الموظّفة عن اسْميْ وعُمْرَيْ طِفليْها.

❖❖❖

تداعي الذكريات لا يستأذن صاحبه، سارحًا مارحًا شاطحًا في دروبها، ينبش قديمها الجميل؛ فيُستطاب له متابعتها. ويأتي الألم مُتقدّمًا إلى ساحة الشُّعور الأماميّ، والفَرِحة منها تهرب بعيدًا جامحة يصعب السّيطرة عليها في مثل هذه الظّروف القاسية.

فاضل يتأفّف. تدافُع يأتي من الخلف وأحيانًا من الأمام والوسط؛ فيضغط الصفّ شبه المستقيم ليتموّج اعْوجاجًا، وتعود ردّة فعل الموجة من الأمام، والضغط الأشدّ على من هُمْ في الوسط، تضيق أنفاسهم، التصاق الأجساد حدّ الإحساس برطوبة متعرّقة عند الاحتكاك، تختلط الروائح؛ كأنّما خرجت من زريبة تتكدّس فيها حيواناتها.

نتانةٌ مُقرفةٌ تُقصّر العمر، وغوغائيّة المُتدافعين الّذين لا يروق لهم الالتزام بأماكنهم حسب دورهم النظاميّ.

انكماش الرّغبة في البقاء، وترك الدّور والعودة إلى الخيمة، والفشل يبسط أشرعته على أهل الخيمة، ووالدهم أو أخوهم الأكبر يأتي خالِيَ الوِفَاض يَلُوح بيديْه؛ يتولّد لديه شعور، ويأس قاتل من عبثيّة الحياة.
لأخذ قسط من الرّاحة من الوقوف المملّ لساعات تأخذ معظم وقت النّهار منذ الصّباح البّاكر، ومنهم من يذهب منذ الفجر أو قبله بساعة.

❖❖❖

عادت به الذّاكرة إلى ساعات حرجة. عقارب ساعته توقّفت عن مُتابعة سيرها الطبيعيّ، أعلنت تواطؤها مع الإرهاق الشّديد، والملل القسريّ الذي لا مفرّ منه سيّد الموقف، بانتظار دوره في الطّابور الطويل، لاستلام موادّ الإعاشة الشهريّة. سرحت أفكاره بعيدًا موغلة في شَرْخِ ذاك اليوم الموغل بالألم وُصولًا إلى اللُّبّ؛ فيُحرّك قاع القاع من الأعماق، باستثارة تتقطّع لها نياط قلبه المحزون:
قاتلكِ اللّه أيّتها السّاعة الشّاهدة على قتل الوقت في حياتي، وأنت المعنيّة الأولى عندما اقتادني العسكريّ الفظّ ذي الملامح القاسية، إلى مكتب جانبيّ، ذكّرني منظره بما ارتسم في ذهني عن مُقاتلي التّتار، وهمجيّتهم وهم يجتاحون بغداد عندما صبغوا ترابها بدماء أهلها، وخيارهم الآخر كان بتلوين مياه دجلة باللّون الأسود، وهُم يُتلِفون تراثًا إنسانيًّا عريقًا من مكتباتها، وأحالوها دمارًا خاوية على عروشها.

الجداران تُناجي ذاتها مُعلنة وحشتها، الأرفُف الخشبيّة تلفظ آخر أنفاسها، بفقدان حمولتها الروحيّة.

للمرّة الأولى يجتاحني شعور بذُلٍّ مَهين؛ عندما امتّدت يد ذلك التتريّ الهمجيّ مشيرة إليّ بأمرٍ فاحش مُخجل، إشارة بحركة سوقيّة دنيئة، أستحي أن يعرفه الآخرون عنّي، وأنا أتجرّد من ملابسي كاملة؛ كيوم ولدتني أمّي، كما خلقتني يا ربّ.

أذابني الخجل من نفسي؛ فتواريْتُ من ذاتي. اعتقدتُ جازمًا، أنّني غير ذلك الإنسان فاضل المعروف عندي أوّلًا؛ فتمثّل أمامي بنظرات الازدراء المقيتة، وهي تخترقني، كما لو أنّ جسمي شفّ عن داخلي ليكشف بوضوح عن أحشائي. شعوري بالتضاؤل، إحساس داهمٌ بأنّني أتلاشى شيئًا فشيئًا، لا أستطيع مواراة عورتي.

❖❖❖

العسكريّ تمتدّ يداه لتفيتش جيوب ملابسي -ألا تبّت يداه -، وهو يسحب منها حافظة نقودي الجلديّة السوداء، يُفرغ محتوياتها على الطاولة، النّقود يدّسها في جيبه خفية، نظراتي تتغاضى عن سرقته المشهودة عَيانًا، صوته الأجشّ، يملأ المكان:

-"اقترب إلى هنا يا (ابن الشرموطة). هات حافِرك الأيسر؛ لتبصم على ضبط أشيائك الشخصيّة، مِشان إذا خرجت من هَوْنِ على قيد الحياة..!!، ولا أظنّ ذلك، كي نُسلّمك إيّاها".

تهيّأ القبر أمامي فاغرًا فاهُ بفجاجة مُرعبة، سيكون بلا شكٍّ مجهولًا لا تتقدّمه ناصية لوحة رُخاميّة تحمل اسمي وتاريخ ميلادي ووفاتي، ربّما فقط يُكتب عليه رقمًا ما، هذا إذا رقدتُ فيه وحدي، مُصيبتي العُظمى إذا تشاركته مع آخرين، على كُلٍّ شناعة الموت عظيمة..!!، والأعظم منها على الإطلاق أن يكون القبر جماعيًّا.

أحسستُ بطقطقة عظامي، ثقل الجثث المتراكمة فوقي بطريقة عشوائيّة أرهقني، وأكوام من التراب انهالت فوق الجميع، لسوء حظّي أنّني كنت في القاع، تحت هذا الكمّ الهائل تتضغط جُثّتي الأقرب إلى النحافة، فلا تتردّد أضلعي بإعلانها الصَّريح وهي تتكسّر.

❖❖❖

أوغلت تداعيات أفكاري بعيدًا في متاهات الألم، أخذتني على متن أثيرها لتعرض من جديد تجربة السّجن البغيضة التي نالت منّي تحطيمًا.

استفقتُ من نوبة شُرودي على تساؤل مازال يُلِحّ عليّ:

-"لا أدري إن كان مُبرّرًا وقتها أم لا". عندما امتدّت يده لتصفعني على وجهي؛ شعرتُ بأنّ الكرة الأرضيّة تمَيدُ اهتزازًا على وقع ارتطام كفّه

المبسوطة، وصوت خدّي الملطوم ارتّجت له أرجاء المكان بضجيج رجْع الصّدى مُعلنًا تضامنه الخفيّ معي، بعيدًا عن ملاحظة الغُول المُتوحّش لذلك.

تحوّلت الأشياء إلى خيالات هكذا بدَت لي حينها، دوخةٌ مفاجئة فتَلت رأسي، ثمّ أتبعَها برَكلةٍ من قدمه اليُمنى، اختلّ توازني؛ فتأرجحتُ ذات اليمين والشّمال، ثم اتّكأتُ على الجدار. شُكرًا لك أيّها الجدار العظيم على مناصرتي في هذه المحنة القاسية، كنتَ لي خير مُتّكىءٍ فاحتملتَ ثقلي، وساندتَني في الثّبات وعدم السُّقوط.

شكرًا لك ثانية رغم أنّك تُطوّقني بقسوتك وظُلمتك القُبوريّة، وأنّي ببطنك لا أملك إلّا المقاومة من أجل الصُّمود بالبقاء والدعاء لله أن يُخلّصني من هذه الورطة.

بخطوة بطيئة مُتثاقلة استطعتُ التقدّم بمحاذاة الطاولة، والغُولُ المتوحّش يقفُ خلفها. حملقتُ جيّدًا في راحة كفّه الصافعة:

-"يا إلهي..!!، إنّها بمساحة سهل حوران كاملًا؛ بشطريْ المُوزّعَيْن على جانبيْ خطّ (سايكس بيكو)، كلّ اصبع منها خطّ مكانه على خديّ، كأنّه عصا فأس غليظة، أو ميسمٍ من نار ".

غابت يدي اليُسرى في راحته العملاقة وبين أصابعه، وهو يمسك إبهامها، يضغطه بشدّة على سطح (الإسطمبة)؛ فتلوّنت بلَون (الكوبيا)؛ تتطبع بَصْمَتِي على الإيصال، الذي يُثبت تسمية مُتعلّقاتي من بطاقة

الهويّة، رفع السّاعة يُعاينها وأعادها كي يسجلّها، يبدو أنّ شكلها القديم لم يعجبه، فبانت تكشيرة وجهه الصّارم، ثم سحب الحزام الجلديّ وربّاطات حذائي ونظّارتي، قدماي تزوغان يمنة ويسرة، بالكاد استطعتُ تثبيتهما أثناء المشي إلى الزنزانة داخل الحذاء المُستَرسِل، وقد انفلت عقاله بعدما سحب ربّاطاته.

تبادر إلى ذهني ساعتها حذاء (أبو قاسم الطّنبوري)، ضحكٌ في داخلي تغلّب على الألم الجسديّ والنفسيّ، فطنتُ إلى العسكريّ الغليظ واستدارته لتناول ملفّ من الخزانة القابعة في الزاوية أضاف إليه أوراقي ثمّ أعاده إلى مكانه أغلق بابها بإحكام، سحب المفتاح من القفل، بفظاظته البغيظة، أمرني:

-"لا تتحرّك من مكانك قيْدَ أُنمُلَة، لأنّني سأجعل من عذابك صنعة لي، لا أريد إضافتك إلى قائمة الذين أرسلتُهم إلى القبر،عملاء.. إرهابيّون.. لا تستحقّون الحياة، ولا تنفع معكم المعاملة الطيّبة، لعنكم اللّه. لا أدري ما الذي ينقصكم، يا كلاب..!!، حتّى تقوموا ضدّ الدّولة؟.

ألا يكفينا العدوّ الخارجيّ إسرائيل وأميركا؟. لكن يا عملاء سيكون يومكم أسودًا أنتم وأسيادكم، بسيطة..!!. المعاملة مع اللّه. أنتم لا تستحقّون الرحمة والرأفة، وسنبقى نفتخر بأنّنا إنسانيّون بتعاملنا معكم".

هززتُ برأسي علامة تنفيذ أوامره. صاح مُزمجرًا كالرَّعد، جنبات المستودع ارتجّت خوفًا، صدى صوته اخترق سنوات حياتي الثلاثين، وألصق عليها دمغة الذُلّ، وما زلتُ عاريًا؛ أنتظرُ مجيء الثياب من المكان الذي دخل إليه من باب داخلي في زاوية المكتب الكئيبة بعتمتها، بالكاد تتّضح معالم الأشياء، والأكياس المتراكمة فوق بعضها، بصعوبة تبيّنتُ بعض الأرقام المكتوبة عليها، علمتُ فيما بعد أنّه كتب رقمًا على كيس ملابسي المدنيّة بقلم أحمر عريض الخطّ؛ ليستطيع التفريق بين ملابس، وأغراض المساجين المدنيّين عند نقلهم إلى سجن آخر، أو خروجهم، أو انتقالهم إلى الرَّفيق الأعلى، ثمّ رمى بوجهي قميصًا وسروالًا بَهُتَ لونهما؛ كأنّهما من بقايا الأقمشة التي كانت تلتّف بها مومياءات الفراعنة، تنفّستُ بارتياح عميق غمرني شعور، أبهجني بأن ذاتي عادت لي، وأنا أرتدي بدلة السّجن الفضفاضة، شددتُ السِّروال حتّى استقرَّ على خصري النّحيل؛ استعدتُ شيئًا من توازني، نسيتُ ألم الصّفعة والرَّكْلة مؤقّتا، الشّعور بالهباء تبدو معه الحياة تافهة لا قيمة لها أبدًا، هذا الموقف حصل لي بعد أن غادرتني ذاتي فترة تجرّدي من ملابسي.

بينما الأهل والأصدقاء هناك على الطرف الآخر من الحياة فوق الأرض، يعيشون على قيد أملٍ بعودتي، وإن طالت. بينما الدُّود يكون قد التهمني، وبَلِيَت عظامي. لكنّني أعتقد جازمًا أنّ هناك شخصًا، لا

يمكن أن يُصدّق خبر موتي أبدًا ، حتّى وإن كان مُؤكّدًا له ، إنّها أمّي.. ليس غيرها :

-"آوّاه يا قلب أمّي المحزون، نامت الأعيُن، وعيناها ساهرتان، لاينقضي سيلهما رغم توالي الأيّام".

ما زلتُ واقفًا في الطابور الطويل المتلوّي كأفعى (الأناكوندا)، ينتفخ في بعض أجزائه ويستقيم بأخرى، جاء صراخ لم أتعرَّف على مصدره، سمِعتُ من يقول إنّه شجار بين اثنيْن من الشباب، كلٌّ يدَّعي أنّه الأحقُّ بالمكان قبل الآخر.

مجيء الشّرطي المكلّف بحفظ الأمن أوقف المشاجرة، والتي من الممكن أن تتكرّر في نفس هذه السّاعة مع آخرين.

ما حدث أعادني من زنزانتي إلى هنا من جديد، أتلمّس وجهي الذي أحرقته أشعّة شمس الظهيرة، والدّور مُثقل ببطئ فلم يتحرّك إلّا بضع خطوات، فلا حساب للوقت هنا في المخيّم، يبدو أنّني لن أعود إلى عائلتي إلّا في الرَّابعة من بعد العصر؛ فيكون قد انتهى الدوام، ألمٌ قديم يمتطي ظهر ألمٍ جديد. ينابيعه لن تجفّ على ما أرى، على الأقلّ في الوقت الحاضر.

قراءتي للحدث أنّه سيصبح حكاية آلام البشريّة الجديدة. دربها طويل كدرب آلام السيّد المسيح وعذاباته.

❖❖❖

"استوقفتني لعنة دموعها مرّتين". هذه العبارة ردّدها نصّار كثيرًا فيما بينه وبين نفسه، ولم يَبُح بها إلّا لصديقه الحميم فاضل، الذي يُفضي إليه بمكنونات نفسه العميقة، وما يدور في خُلده من أفكار وأحلام وآمال، وما يتصعّد في صدره من نفثات وهموم، مما يصادفه في يوميّاته على صعيد الحياة الاجتماعيّة والوظيفيّة.

(ما أَريدكْ..، ما أريدكْ حتّى لو تِذْبَحني بيدك..، ابن عمّي.. ومثل أخويْ..، ودم وَرِيدي من وَرِيدك..، هذي القصّة.. قصّة حمدة..، حمدة الرِّمش إلّلي يتحدّى، الرّمش إلّلي ياخذ قلب النّاس، الرّمش إللي ما عُمرُه ما وَدّا).

لن أسامح ذاكرتي بخياناتها لي عندما أكون محتاجًا لشيء منها، فهي تعاندني، كم ردّدتُ قصيدة حمدة مع الشاعر عمر الفرّا أيّام زمان، وأنا أُعيد سماعها من آلة التَسجيل من خلال أشرطة (الكاسيت)، التي انتهى دورها هذه الأيّام مع ظهور الأقراص المضغوطة (سي دي – دي في دي)، وكانت في وقتها ثورة تقنيّة، حرص كلّ من سافر خارج البلد على اقتناء آلة تسجيل في بيته. ما إن يأتي ذكر حمدة ابنة عمّتي؛ إلّا وتحضُرُني هذه القصيدة الخالدة، أراها تُناهز أجمل ما قيل في كلّ أشعار العرب جميعًا. لا أستثني منها شيئًا. ماذا أفعل بالنسيان، إذ اجتاح معظم محفوظاتي؟، وأنا أقف عاجزًا أمام أطلال ذاكرتي.

❖❖❖

لعنةُ دموعها بموت أخيها فادي أيّام ولعي بعينيْها، متأكّد أنّها ما زالت تلعن ذاك اليوم البيروتيّ الكئيب، حرب ظالمة من الأخ الأكبر على الأخ الأصغر، لفرض الإرادات والإملاءات بطريقة بشعة، ولتصريف الاحتقان السوريّ الداخليّ من خلال السّاحة اللبنانيّة، مساكين هم أهل لبنان لاحول لهم ولا قوّة، مقابل الآلة الهمجيّة للجيش السوريّ، بإمكاناته الضّخمة التي سُخّرت للنّهب والسّلب، وانحرفت بوصلته عن وجهتها الحقيقية فلسطين، ومُقارعة العدوّ الصهيونيّ، وتحرير واسترداد هضبة الجولان فضلًا عن فلسطين؛ اكتفت إرادة مُسيِّري وصانِعي القرار السّوريّ على اعتبار لبنان مزرعة لهم أضافوها لما بين أيديهم فوق الأرض.

ولعنة دموعها على أخي نادر، الذي كانت تحمله بين ذراعيها، تداعبه وتُناغيه بحبٍّ أموميّ لم أر مثله في حياتي.

إضافة إلى لوعة هجرتها في السعوديّة طوْعًا، للعيش هناك بصحبة زوجها المُدرّس، عندما ذهب لتدريس اللّغة العربيّة وعلومها هناك في مدارس المملكة؛ لتحسين الوضع المعاشيّ، وبناء مستقبله في بناء بيت وعيش كريم).

رقّ قلبي رحمة لغربتها.

❖❖❖

صراعٌ داخليّ استحوذني، شلّ تفكيري، جرّني لموقف عصيب، ثقيل على نفسي، خاصّة عندما أريدُ اتّخاذ قرار، وكأنّني برئيس المنظّمة الأمميّة، عندما اتّخذت قرارها (١٨١) نبع الشؤم، بتقسيم فلسطين، مازالت وَيْلاتُه تتوالى إلى لحظتي هذه.

أعطيْتها صفحاتي بيضاء، سلّمتها قيادة قلمي، قائلًا: "تفضّلي سيّدة حمدة، اكتبي أفراحك بماء القلب، وأحزانك بالدموع، بمشيئتك، سأتابعك لحظة بلحظة، الأشواق تحدوني للمواصلة حتّى النهاية.

ولن أكِلّ أو أملّ، ستجدينني مُتجمّلًا بالصبر، ولن أقول لك يومًا ما، كفى، ولن أقول للأميرة السوريّة المهاجرة، إلّا ما قيل للأميرة الهيمالاويّة: (عودي إلى بيتك، فإن البرد يؤذيك)".

إذا ذاب الثّلج ..، من المؤكّد أن هذه الأكوام، من التلال الثّلجيّة؛ ستذوب لكن..متى؟.

طالت أيّام البرد القارس، المعاطف الصوفيّة أتدثّر بها على مدار السّاعة، حركتي بطيئة، لئقل حِملي على عاتقي، لا مفرّ لي من خلع أيٍّ منها.

فالأميرة الهيمالاويّة لم تستمع إلى نصحية الشّاعر (عمر أبو ريشة)، وتعود إلى بيتها؛ صدَقَها القول: فالبرد فعلًا يُؤذيها.

الأميرة سادِرَة في غواية جسدها، يتمايل طربًا في اهتزاز حركته أثناء تنقّلها. تفكيرها كان مُنصبًّا على لوحة جميلة مرسومة في ذهنها عن

حالها حريصة على أن يراها الآخرون كما تُريد وتتمنّى، صَمّتْ أذنيْها عن سماع ما قاله الشّاعر بهُزءٍ.

تُتابع الحديث مع وصيفتِها، تتعالى ثرثرتها على حافّة البحيرة، ضحكاتها المغناج أنْسَتْها انخفاض درجات الحرارة، عند المغيب ارتمتْ في فراشها، حرارتها المرتفعة تتناوبها على مدار اللّيل، لم يُغمض لها جفنٌ، العرق يتفصّد على صفحة جبينها لآلئ، تتماوج كالسّراب صيفًا. وصيفتها لم تتركها لحظة واحدة بلا كمّادات الماء الباردة.

عادت بذاكرتها لذاك الشّاعر الحكيم، تتألّم لإعراضها عن سماعه، وهو يناديها: "أيّتها الأميرة".

ما فائدة النّدم بعد فوات الأوان؟. أعتقد أنّ حمدة تتذكّر مقولة أمّها، وندائي من وراء الغيب يطالبها بالعودة: (كانت النّصيحة بجمل، واليوم ببلاش وما حدا سمعها). هذا حديث النّفس عند نصّار، يتحوّل إلى هواجس، تتشكّل صورًا تستحوذه احتلالًا لذاكرته.

❖❖❖

فاضل السّلمان النّاشط قدّم لكتابة مذكّراته، ما قرأه منذ سنوات عن(توفيق الحكيم) في مقدّمة روايته الشهيرة، (يوميّات نائب في الأرياف):

(لماذا أدوّن حياتي في يوميّات؟. ألأنّها حياة هانئة؟.

كلّا إنّ صاحب الحياة الهنيئة لا يُدوّنها، إنّما يحياها.

إنّي أعيشُ مع الجريمة في أصفاد واحدة.

إنّها رفيقتي وزوجتي، أطالعُ وجهها في كلّ يوم، ولا أستطيع أن أحادثها على انفراد.

اليوميّات.

ما أنت إلّا نافذة مفتوحة أطلق منها حُريّتي في ساعات الضّيق).

هذه الكلمات فتحت عينيّ على موضوع لم أكن لأنتبه له. الحكيمُ حكيمٌ بحصافة رأيه، وعندما أكتبُ وأُسوّدُ بياض الورق، كنتُ أدّخر فائض عمري ليومي الأسود؛ فأضمن طوله وتمدّدهُ؛ لأعيش بعد موتي أكثر بكثير مما مارستُه وعشتُه منه.

فلماذا لا أعيش وأمارس حياتي ببساطة، والتقاط لحظات السّعادة، وتصالح داخليّ يضفي الرّضا؛ تلك النّعمة المفقودة لدى الكثير من البشر، بدل كتابتها ليقرأها الآخرون، وأُطِلُّ من نافذة أُطلِقُ منها العنان لـ (أمل دنقل)، كي يُشاركني الرأي فيما أكتبُ:

(ما أقلّ الحروف التي يتألّفُ منها اسم ما ضاع من وطن،
و اسم من مات من أجله،
من أخ أو حبيب..،
هل عرفنا كتابة أسمائنا بالمِداد
على كُتُب الدّرس؟،
هاقد عرفنا كتابة أسمائنا،
بالأظافر في غُرف الحَبْس،
أو بالدِّماء على جيفة الرّمل والشّمس،
أو بالسّواد على صفحات الجرائد قبل الأخيرة،
أو بحداد الأرامل في رُدُهات (المعاشات)،
أو بالغُبار الذي يتوالى على الصُّور المنزليّة للشهداء،
الغُبار الذي يتوالى على أوجُه الشّهداء،
إلى أن تغيب..،
لقد كانت الشّمس ميّتة حين كتب عليها المجاهدون أسماءهم).

❖❖❖

قُصاصات أوراقي، تطايرت بفعل تيّار الهواء المُتدفّق عبر النّافذة المفتوحة على كامل مساحة أرضيّة الغرفة.

زوجتي الجنديّ المجهول ذو الهمّة والنشاط بلا كللٍ ولا مللٍ، تمتّد يدها لالتقاط الأوراق، وإعادة ترتيبها لمشروع كتابي القادم. كلّ قصاصة تحمل فكرة أو أكثر، وبعضها ما زالت تحافظ على نقائها، ولم يعكّر صفو بياضها نقطة واحدة.

دُوارٌ مفاجئ شعر به، تأرجح جسمه ذات اليمين والشّمال، مادَت به الدّنيا، تماسك، استعاد توازنه لحظة اكتمال الزَّوجة من عدّ الأوراق حسب تسلسلها الرقميّ، إلّا أنّها سهِيَت عن واحدة لم تلحظ أنّها طارت إلى الطريق عبر النّافذة.

❖❖❖

من فوري لم أتمالك نفسي، خرجتُ عن طَوْرِ رزانتي المعهودة، ونزلتُ حافي القدميْن إلى الطَّريق باحثًا عن الورقة، خِلتُها قطعة من قلبي.

يتذّكر فاضل فيما كان حديثه مع نفسه:

-"يا للمفاجأة عندما رجعتُ، وأمام إصرار زوجتي لرؤيتها؛ لتكون صدمتها كبيرة، عندما رأت قصاصة ورق بيضاء، خالية تمامًا".

أطلقت ضحكتها المدويّة بجلجلتها في أرجاء البيت، قائلة بسخرية لم أعهدها منها بهذه الطريقة الوقحة التي شعرت فيها للمرّة الثانية في

حياتي بالتَّضاؤُل، بعد تلك الأولى أيّام سجني؛ عندما تجرّدت من ثيابي أمام السَّجّان:

- "رغم أنّها بيضاء فقد طار صوابُكَ خلفها، فماذا لو كانت تحمل أيّة كلمات أو عبارات؟".

- "عزيزتي أمّ المجد، لا تنسي أنّها جزءٌ من القُصاصات، حتّى وإن كانت خالية تمامًا من أيّة كتابة، فهي تُعلن نقاءها المُضارع لنقاء قلوبنا، فكيف بي أو بكِ..!!..؟ وأن يتخلّى أحدُنا عن قطعة من قلبه".

انخرطتْ في نوبة ضحك من جديد، وضاعت الكلمات ما بين حلقها وفمها، ولم أفهم شيئًا مما كانت تريد قوله.

أعتقد أنّها للمرّة الأولى في حياتنا الزوجيّة أرى أنّها على حقٍّ في تقييمها لقضيّة الورقة البيضاء، أخاف أن تكون قد تنبّهت لتلاعبي بالألفاظ والكلمات للتغطية على سوء ما قمتُ به. بصراحة لم أكنْ أدري أنّ الورقة بيضاء؛ لكنتُ قد تركتها وشأنها، ولتحملها الرّيح إلى حيثُ شاءت.

مُشكلتي الكبرى الأفكار، خاصّة التي تقلقني من هناءة منامي؛ لأكتبها قبل أن تودّعني إلى غير رجعة، وكم ندمتُ على وميض بعضها، عندما جاءتني طائعة من تلقاء نفسها، ولم أُحسِن استغلال الوقت في تدوينها.

❖❖❖

كتبت هالة:

بين البدء والانتهاء مسافة جديرة بأن تكون وليدة البدء، حاملة مقوّمات الحياة بكافّة صراعاتها المُفضِيَة إلى تمدّد الأقوى بأدواته، وانتفاخ عضلاته؛ فتكون قبضته قوية بما فيه الكفاية للإمساك بالعصا..، والتلويح بها للتخويف، فيأتي الإقصاء والتغيّيب والنفي نتيجة حتميّة للتزاحُم على ترسيخ النّفوذ، ومن قطعوا له تذكرة ذهاب بلا عودة؛ فهو مستقرّ في مثواه الأخير هناك تحت الأرض.

من يحمل العصا يروم الاستحواذ على السّاحة له وحده، ويضيق ذرعًا ممن هم فيها، أو على أطرافها؛ فيجهد بلا كللٍ ولاملٍ بإفراغها، ومن ثمّ إعادة تشكيلها بالطريقة المناسبة لطموحاته، ومنافسته الشديدة على كسب الجغرافيا، ومجادلته للتّاريخ في محاولته تطويعه؛ إشباعًا للتورّم الزّاهي في عينيه؛ ليكون هو التاريخ بعينه، يكتبه على صخب طبول أمجاده، يخطّه بسنان الحِراب، وعلى صفحات جماجم معارضيه.

و(ما كان للتتار أن يجثموا على صدر الصُّبح)، على رأي (إلكسندر سولجينتسين).

البشريّة كلّها، ومنذ بدء الخليقة، تتشابه بقواسم الظُّلم المشترك عند الغالبيّة مع غياب العدالة كاملة، أو بعضًا منها.

حيث مال الكثير من الفقهاء والمفكّرين قديمًا وحديثًا إلى نظريّة المُستبِدّ العادل. وقيل: (إنّه الحاكم الأفضل، وعلى الرعيّة السّمع والطّاعة، وهو ظلّ الله في أرضه، على اعتبار أنّه يُحقّق المصالح العامّة للشّعب، ولكن إذا لم يُحقّق شيئًا، فما هي الفائدة من حُكمِه؟).

هذه المقالة نشرتها مؤخّرًا هالة نجم الدّين على صدر صفحات منتدى (أتاو)، حيث كان هذا سببًا وجيهًا، لإثارة نقاشات حادّة فيما بين القرّاء والكتّاب على مختلف انتماءاتهم، الجدل لم ينته، إلّا وجدّدته إدارة المنتدى؛ بطرح موضوع ساخن عن أحد المعارضين السُّوريّين من جيل الثمانينيّات، وأنّه لماذا لم يُسمح له بالعودة إلى سوريّة منذ ثلاثين سنة.

❖❖❖

فاضل السّلمان: أنا على قناعة تامّة بأنّه لا بدّ من الكتابة، لأنّها هي الحلّ برأيي، رغم قناعتي بما قاله (توفيق الحكيم). الظّروف تُملي عليّ حُكمها. بكتابتها، وعدم تركها تفلتُ إلى غير رجعة، وتضيع مع ما ضاع من حوادث وحكايات.

ربّما يتوجّب عليّ كتابة الكثير بالتفاصيل المملّة، ومقال هالة هو المحرّض والمشجّع لإدارة المنتدى حتّى تنشر موضوعها الجدليّ، الذي استَنْفَد طاقات أعضاء لهم علاقة أو لا علاقة لهم من قريب أو من بعيد،

على اعتبار أنّ الحياة العربيّة متشابكة، من غير الممكن الفصل فيما بينها.

كما أنّني لا أستطيعُ إطلاق صفة حوار على ما جرى من الرُّدود فيما بين مؤيّد للنّظام، أو معارض له، بل كانت نقاشات حادّة مفتقرة لأدنى درجات اللّباقة في الحديث، أو بما يليق بالمتحدّث نفسه، فضلًا عن مطالبتي للمُخاطَب بالاستماع، وسلوك أساليب حضاريّة، من كانوا في الدّاخل أطلقوا سيولًا من الشّتائم والسّباب الذي يجلّ قلمي عن ذكرها، والإسفاف في إطلاق التّهم جزافًا بالعمالة (للموساد) وال (سي آي إي)، ومن في الخارج لا تقلّ أهميّة عن نظيرتها تلك، من عمالة للأجهزة الأمنيّة السوريّة، أو أنّهم من يكتبون الرّدود وهم في الحقيقة أحد الأفراد والضبّاط النظاميّين في الأجهزة. مُتَخفّين تحت ستار الثقافة والأسماء الوهميّة.

المعمعة في ذروتها، بينما كنتُ مشغولًا بكتابة موضوع عن الحمير، اضطررتُ من خلاله للبحث عن كتابيْن (حماري قال لي) و(حمار الحكيم)، كلاهما لـ(توفيق الحكيم)، وقد حالفني حُسنُ الحظّ بإنزالهما عن شبكة (الأنترنت)، خفّف عنّي عناء البحث عنهما بنسختهما الورقيّة، وكنتُ أظنّني لا أجدهما أبدًا.

ولم أنس أيضًا كتاب (صرخة حمار) للأديب التركيّ (عزيز نيسّين)، استغراقي في هذا الموضوع أخذ منّى شوْطًا حتّى اكتمل على الشّكل

الذي يُرضيني؛ تابعتُ بحثي الدّائب على (الجوجل)؛ وبطريق الصّدفة البحتة عثرتُ على كتاب (عودة الحمار) لـ(محمود السّعدني)، وهو ما لم أكن أعرفُ عنه شيئًا فيما سبق قبل هذه اللّحظة، بهذا قد اكتملت أركان الموضوع الأربعة؛ مما أتاح لي الإبحار تعمّقًا في بحثي، ومما صادفني من سخرية أحدهم بقوله:

-"واللّه لو أنّكَ تُريد تقديم رسالة دكتوراه عن الحمير، وأطباعها البليدة لما كان هذا حالك، نحن في وادٍ وأنت في وادٍ آخر، يا أخي فليكن عندكَ إحساس، ألا ترى الهجمة الشرسة على القُطر، والعدوّ مُتربّص بنا، وأنت غير مُبالٍ، وهذا ما لم نعهده بك، بما أنّنا نعرفُ من غيرتك وحرصك على الوطن، فلا يجوز أن تُغرّد بعيدًا عن الواقع والاستعماء عن الواقع الذي نحن فيه".

- قلتُ: "كرامةً للّه اتركوني بحالي، لا أستطيع مُجاراة ما يحدث من نقاشات وتلاسُن وتراشق الشّتائم والاتّهامات على المنتدى".

تابَعَ، وعلى مسمع من الجالسين المُترقّبين صمتًا، لما سيقوله:

-"الوطن في خطر، والهجمة الصُّهيونيّة تستنفرُ عملاءها في المنطقة شرسة، والأمر لا يحتمل تأخّر أيّ شخص منّا على الأقلّ. الحياة موقف..!!، وهو الذي يبقى في الذّاكرة، وتكتبه صفحات التّاريخ".

- رددتُ: "يا أستاذ.. الموضوع بالنسبة لي لا يعدو إلّا أن يكون نوعًا من المُهاترات فيما بين خصميْن، ولا مصلحة لي في الدّخول بمثل هكذا

موضوع، أتوقّع ضرره مستقبلًا، ليس عليّ فقط وإنّما على باقي الأصدقاء من أعضاء المنتدى".

- تابع بانفعال ظاهر، وزاد عدد الخطوط المُتغضِّنَة على جبينه، وهو يرفع حاجبيْه للأعلى، مُبحلقًا في وجهي، وكأنّه يريد افتراسي لمخالفتي آرائه، وعدم استجابتي له:

-"ما هذا الهراء..!!.. مؤكّدٌ أنّه بهذه الطريقة العقيمة لا يمكن أن تصل إلى نتيجة، وأنت كمَنْ يريد البقاء في المنطقة الرماديّة الممقوتة؛ لأنّها لاتسمح للموقف الحقيقيِّ بالظُّهور..!!".

همهمة من الحضور الصّامت، الذي اكتفى بالسّماع، لا أدري لعدم اقتناعه بما يسمع من صديقنا الأستاذ، أم خوفًا من إبداء أحد منهم رأيه، بما يكون مناصرًا لرأيي، وبما يشاطر صديقنا رأيه.

وكأنّهم آثروا السُّكوت على رأي المثل: (إذا كان الكلام من فضّة، فالسّكوت من ذهب)؛ فالبوْن شاسع ما بين سُكوت وسُكوت.

قبل نهاية الجلسة عند انتصاف اللّيل، وتطابَق العقربان في ساعة الحائط المتصدّرة مجلسنا. استطاع الأستاذ انتزاع مُوافقتي على المشاركة برأيي كتابيًّا على صفحات المُنتدى، بعدما أذعن له باقي الأصدقاء بلا عناء وتعب مثلما حصل له معي.

على وقع نقاشنا الذي جاء استكمالًا لحوار الطُّرْشان على المنتدى، لم يخطر ببالي عنوانًا لمقالتي التي كنتُ بصدد كتابتها، سوى (هل الحمير تُشبهنا.. أم نحنُ لا نُشبهها).

للتعبير عن غضبي المكبوت في دواخلي، وعن الحالة المُزرية التي وصلتُ إليها معهم، حتّى الرأي لم يسمحوا باتّخاذه بعيدًا عن دائرة تأثيرهم المباشر؛ فلو أدرتُ ظهري لهم، وسلكتُ طريقي. حقيقة أنّهم لن يتركوني لنفسي، والاستحمار غاية لا تُدرك.

❖❖❖

بعد انصرافنا، بقينا وحدنا في طريقنا المشترك إلى بيتيْنا القريبيْن في نفس الحارة. قابلني صديقي نصّار بالضّحك، وهو يتأمّل تداعياتي المُتهاوية كقشّة في مهبّ الرّيح، وآثار الغضب المكبوت رسمتْ ألوانها الغامقة على وجهي؛ فزاد على سواد اللّيل سوادًا. ولم يزل يُردّد:

- "الموجة التي لا تستطيع مقاومتها، انحني لها قليلًا حتّى تمرّ بسلام، كي تستعيد قِواكَ، وتقف مُجدّدًا بثبات، وتعيد النّظر في استعداداتكَ للجولة القادمة".

- فاضل: "عن أيّة موجة تحكي يا نصّار؟، كما رأيتَ بأمّ عينيْك، تَسلُّطٌ واعتداء بالقوّة على كلّ منّا، واستغلال لعلاقتنا، ويعلمون علم اليقين، أنّنا لا يمكن أن نؤذيهم بألسنتنا على الأقلّ، لم أكن أعرف

حماقاتهم؛ تلك التي كانت مغمورة في قعر بواطنهم، يُخيّل إليّ أنّ في داخل كلٍّ منهم دكتاتورًا.

من قلبي أُحيّي صديقنا المهندس معن؛ على خروجه الشّجاع عن صمته، وأعلن على صفحات المنتدى تكذيب بيان الانسحاب المُذيّل بأسمائنا جميعًا، الشّجاعة سجيّة ذاتية لا يمكن أن تأتي بلا مُقوّمات".

- نصّار: "المهندس معن شخصيّته مستقلّة وقياديّة، رغم أنّني التقيتُه مرتيْن أو ثلاثة، لكنّ إعجابي به تلبّسني من رأسي حتّى أخمص قدميّ، وتغلغل في أعماقي، كأنّ معرفتي به كمعرفتي بك منذ صغرنا".

- فاضل: شوّقتني يا رجل للقائه، لهفتي تُسابقني بالوصول إليه، كأنّ الأرواح إذا أحبّت تلهفّت بفارغ الصّبر، لانتظار ساعة اللّقاء الأوّل، وهو الأهمّ في حياتنا على الإطلاق. ألا تذكر ذاك الشّاعر، وهو يتشبّب بحبيبته: فما الحبّ إلّا للحبيب الأوّل".

-نصّار: "كرامة لله لا تحكي عن الحبيب الأوّل، لاتزال عينا حمدة تؤرّقان مضجعي، وتنخَزان بجمالهما قلبي، حتّى هذه اللّحظة رغم زواجي وإنجابي، غيابها الطويل عنّي منذ زواجها، ولم تكتحل عيناي بمرآها ولو لمرّة واحدة، رغم سفرها وبُعادها مازالت نظراتها لم تفارق مُخيّلتي يومًا ما، وكما تعلم كم كنتُ أردّد قصيدة المأفون (عمر الفرّا)، أعتقدُ أنّ كبير عبقر هو من أوحى إليه بهذه القصيدة، التي حفظتها كما حفظتُ اسمي، والفاتحة حينما أرتّلها في صلواتي.

- فاضل: "أخاف ما أخاف عليك يا نصّار، أن تُؤفن على كثرة ما تستعيد ذكراها، وتصبحُ كمجنون ليلى".

- نصّار: "أقسمُ أنّ الجُنونَ أهونُ ألف مرّة من عذابات أصدقائنا المُقرّبين، وهم يفعلون بنا مالم تفعله معنا الأجهزة الأمنيّة التي ما زالت كامنة، تُراقب فقط من بعيد، وبراءتي من ذمّة التّاريخ، أقولُها جازمًا، أنّ الأجهزةَ داخلةٌ بثقلها في الموضوع، تديره بحنكة وأناةٍ، وعرفتُ أنّها كانت تدفعُ بالموضوع للواجهة، على الأقلّ بما يظهر لنا، وأيديهم تُعَسعِسُ عند كلّ شاردة وواردة، ويقفون في الجانب المُظلم من الزاوية وإن كانت حادّة، وأقنعتهم على وجوهم بانتظارنا، حتّى تنتهي المهاترات فيما بين الفريقين، وهم ينكؤون الجُرح الدّامي برَشّ الملح عليه، والضَحكات تدغدغ دواخلهم النتنة بفحيح الفتنة النّائمة".

- فاضل: "أحيّيك على طريقة تحليلك الدّقيق للموضوع، كأنّك تقرأ ما يدور في ذهني قبل أن أحكيه. هناك فئة من النّاس، تعرض خدماتها مجّانًا من غير أن يطلب أحدٌ منها تنفيذ أيّ شيء، أعيدُ عليك كلمتي: الاستحمار غاية لا تُدرَك".

- نصّار: "صحيح أنّني معكم في المنتدى، أقرأ وأتابع، وعندي إلمام بجميع ما يُكتَب ويُنشَر، لكن لن، ولن أكتبَ كلمة واحدة مهما كلّفني الأمر، وعندي استعداد تامّ لمقاطعتهم، ولن أنحني لعاصفتهم

كما نصحتُكَ قبلُ، وكنتُ مُتهّكمًا مازحًا، أخاف أن يبقى ظهري بانحناءته مدى الحياة، ولن يعتدل ويستقيم ثانية".

- فاضل: "تنصحني بالانحناء، وأنت مُتصلّب برأيك..!!، يا للعجب ممّا أختمُ به لقائي معك هذه اللّيلة، في وقت آخر سيكون بيننا كلام كثير وتحليل موسّع للموقف. اللّه أكبر على هذه اللّيلة، أتمنّى أن تنتهي على خير ويُصبح الصّباح، وكلّ قليل يأتيني ما قاله أحد المأفونين (أمل دُنقل)، وكأنه قال ما قال من قصائد لي أنا وحدي، ليس إلّا:

-(رفرفْ..\ فليس أمامكَ\ والبشر المُستَبيحُون والمُستَباحُون صاهّون\ ليس أمامكَ غير الفرار\ الفرار الذي يتجدّد كلّ صباح)".

سيطول الحديث ولا نهاية له، على أمل لقاء قريب، ربّما يكون غدًا. توادعا. وفي نفسهيْما البقاء معًا. مُتطلّبات الدّوام الصباحيّ لا ترحم تعبهما، أو اشتياق أعينهما للنّوم. والأعذار المشفوعة بأسبابها ربّما لا تحظى بإذن من المدير المسؤول في بعض الأحيان.

❖❖❖

للمرّة الثّالثة على التوالي، داهمتني من جديد خلال هذه الفترة، حالة التصاغر عندما تلبّستني، هناك كما ذكرتُ سابقًا في السجن، بداية اعتقالي، على إثر هذا الموضوع الذي أجْبِرتُ على الإدلاء فيه برأيي في حقيقته لا هو مدح، ولا هو قدح، ولا هو مع، ولا ضدّ، و لاتزال ذكرى

ضحكة زوجتي الهستيريّة، عندما لاحقت الورقة البيضاء التي طيّرها الهواء من النّافذة.

أمّا ثالثة الأثافي؛ فأعتقد أنّها جعلتني أكثر تصاغرًا، واحتقارًا لنفسي، شعور غريب تمكّن من دواخل أعماقي حوّلني هباء منثورًا، كقشّة صفراء يابسة من سنابل البيْدر، تذروها الرِّياح كيفما تشاء، قبل ذلك تَصَرْصَرْتُ؛ خِلتُ أنّني صِرتُ بحجم الصّرصور، ثمّ النّملة، ثمّ مرحلة الذرّ ما قبل الهباء.

عيناي ترقبان..!!، من الذي اتّخذ وقرّر عنّي، وحَكَم عليّ بالانسحاب من المنتدى، مُشهرًا اسمي، واسم غيري من الأعضاء على لائحة الاحتجاج الرَّافضة البقاء فيه، والمُطالبة لإدارة المنتدى بسحب الموضوع، والتي بدورها أصرّت على رأيها.

الأنكى من كلّ ذلك، فِعلُ الإجبار، ومحاولة إقناعي بشتّى السُّبُل للعُدول عن موقفي بمتابعتي الصّامتة للموضوع، أقرأ وأمشي، وعدم الإدلاء برأيي بخصوصه صراحة. التجمّع المضادّ في الجهة الأخرى بدأ يُشكّك بوطنيّتي، والتقليل من شأن انتمائي.

مرحلة حرجة مررتُ بها على مدار عشرة أيّام أو يزيد، حتّى عندما أبتعدُ عنهم ليوم أو يومين، يُلاحقُونَني إلى بيتي من خلال الهاتف.

رغم أنّني غير معنيٍّ بإدارة معارك الآخرين نيابة عنهم، فالمعركة ليست معركتي؛ فلماذا أجعل من نفسي وقودها. معركة لا ناقة لي فيها ولا جَمَل لا تهمّني..!!.

من الصعوبة بمكان وصف شعوري بالمهانة، والأصعب من ذلك عندما يحتقر المرء نفسه، أمام تحديّات جارفة كالتيّار لا تُبقي ولا تذر.

ذات مرّة التقيتُ بشاب غريب الأطوار، لفتَ انتباهي حمله الدّائم لكيس مليء بالخضار والحشائش.

غالبني الفضول استفسارًا عن شأنه، وهو يقضِمُ من جُرزة البقدونس بما يملأ فمه، ويُعيدها للكيس ثانية، تكرّر الأمر خلال نصف السّاعة التي جمعتني به.

فأخبرني:

-"بأن والده عرضه على الأطبّاء الاختصاصيّين؛ أجمعوا على أنّه لا يحمل مرضًا ما له أعراض عضويّة ظاهرة يمكن تشخيصها بعد أخذ التحاليل مع صور الأشّعة اللّازمة.

ولمّا عجزوا في هذا المضمار، في مثل هذه الظروف جميع مَنْ هم حولهم من الأهل والجيران والأصدقاء، يُسدُون لهم النّصائح المُتوافقة والمتضاربة بالمجّان، ويُدلُون بدلائهم، من خلال إبداء آرائهم.

أخيرًا أجمعوا على التحوّل نحو الطبّ الشعبيّ والرّوحانيّ، الذي أجمع دهاقنته على الجنّ الذي تلبّسني، وبعد جولات عديدة من هنا إلى

هناك، ومن مُشعوذ إلى دجّال، إلى معالج بقراءة القرآن، أرشدني هذا الأخير لأكل البقدونس على الدَّوام، وأن لاينقطع من عندي".

قطعتُ عليه استرساله المُسهِب في مُتابعة شرح حالته، مُجيبًا على دهشتي المُستغرِبَة لِنَهشه المُتكرّر للبقدونس، فسألته ثانية:

-"المهمّ في الموضوع، أنّك لم تُخبرني، ما هو مرضك بالذّات، وما الذي تشعر به؟".

تابع، بحرارة حديثه المؤثّر، بعد نَفْثِ أنفاسه الحرّى البادية من تأوّهِه الخارج من أعماقه، كما ظهر لي، وبما أحسستُ به أنا على الأقلّ:

-"تأتيني حالة؟ لا أعرفُ كيف أصفها لك بدقّة، أشعرُ بشيء يتملّكني من رأسي حتّى أخمص قدميّ، ويضغطني من أطراف جسمي. في هذه اللّحظة؛ أخالُ بأنّ حجمي يصغُر شيئًا فشيئًا، وأرى إخوتي الصّغار كأنّهم عمالقةٌ وأنا كَقَزَمٍ أقف إزائهم، أراهم أمامي، ولا أستطيع التعبير لهم عن ذلك.

من فوري أبادرُ بحثًا عن البقدونس؛ لأستردّ ذاتي بحجمها الطبيعيّ، لكن ما يُحيّرني، ويشغلُ بالي، كيف يراني من يكون أمامي؛ عندما تتلبّسني الحالة". الدردشة مع الشّاب المُبتلى بحالته النفسيَّة، هَدَتْني لالتقاط رأس خيط ربّما يقودني إلى السبب الحقيقيّ وراء حالته، قال:

-"كنّا نلعب في ساحة الحارة، لعبة الطُمّيمة، وفشلتُ في هذا الدّور عن تحقيق تسجيل أيّة نقطة لصالحي، ضحكات سُخريَة جماعيّة من

الأولاد بلا استثناء، بعدها جاءتني هذه الحالة للمرّة الأولى، بعد هذا بفترة لا أستطيع تقديرها زمنيًّا سيطر عليّ شعور آخر عزّز في نفسي.

أثناء دراستي في الصفّ التّاسع، كانت والدتي تحاول إيقاظي للدراسة مُبكّرًا؛ أسوة بابن جيراننا الذي لم يتوقّف عن القراءة على سطح المنزل بصوت جهوريّ، يصل إلى مسامع أمّي، وهي تتحسّر على حالي، ولا مُبالاتي بمتابعة دراستي، شهادة التّاسع يُطلقون عليها (الكفاءة)؛ فمن أخذها يكونُ قد جاوز مرحلة الإعداديّة إلى الثانويّة".

فاضل يُحاكي نفسه: برغم الألم من تتبّع هذه الذكريات، لكن تبقى الذكرى الوحيدة التي سأحملها في قلبي، هي الحبّ الذي أخلّفه ورائي بعد مغادرتكم، وسأبقى مُتّحِدًا بكم أصدقائي، أتمثّل وجوهكم، ابتساماتكم، فرحكم، غضبكم، مرحكم، لهوَكم. حتّى ولو أنّني كنتُ أُتَمتِمُ بشيء آخر في هذا اللّيل الطويل.

❖❖❖

قبل أن يستيقظ الفجر من غفوته المعتادة، وأنا أكتبُ بسعادة غمرتني، أذهبَتْ هُمومي، ومُعاناتي مع التفكير السّابح في ملكوت واسع من التهويمات والترسيمات، فلم يَقُدْني إلى مَرسَى أو محطّة يستريح بها المحارب.

بينما انبثقتْ من أعماقي حماسة قويّة لمتابعة التّدوين، عندما حصلتُ على وعدٍ أكيد من المؤلّف بإدراجها ضمن روايته فوق الأرض.

ولأكون شريكه في عمله، فلا يُذكَر اسمه، إلّا ويكون اسمي إلى جانبه، مع فارق بسيط أنّي لايمكن الاستفادة من الأرباح الطّائلة التي سيحصل عليها مستقبلًا من المبيعات، بعد طباعتها ونشرها، وأتوقّع أن تنهش الغيرة قلبي، عندما تأتيه أموال إحدى الجوائز التي سيحصل عليها، حَدَسي يُؤكّد لي ذلك، كما أنّ الشُّهرة سيحظى بها وحده، في الواقع أنا أكتفي بوجود اسمي (فاضل السّلمان)، ونفَسي بين سطورها، وفي طيّات صفحاتها، وأكبر نجاح حقّقتُه في حياتي كلّها، هو صفقتي تلك، أنّني دخلتُ التّاريخ من أوسع أبوابه، عندما أصبحتُ أحد أبطال الرِّواية، وكم من العُيون سترى اسمي، وكم من الألسنة ستقرأه، ومؤكد أنّ الطّبقات المثقّفة في العالم ستعرف عنّي شيئًا، وكم ستكون سعادتي؛ إذا ما قابلتُ أحدهم مصادفة، وعرف أنّني فاضل من أبطال رواية فوق الأرض. شعورٌ مشاكس عنيد، يقول لي:

-(لا أظنّ ذلك. لا تعدو إلّا أن تكونَ مثل ذاك الرّجل في قصص (كليلة ودمنة)، وهو يجلس على الأرض بعد تعب أصابه من جَنيِ عسل نِحَالِه، ووضعه في جرّة فخاريّة، الأمنيات والأحلام تباعدت به مساراتها ومآلاتُها، فما زال يُردّد مع نفسه:

- "سأبيعُ العسل بالشيء الفُلانيّ، وأشتري بثمنه عروضًا تجاريّة، وسأربح منها كذا وكذا وكذا..!!، وسأصيرُ من أثرياء البلد وأعيانها، وألبسُ أفخر الثياب، وأرشّ أندى العطور رائحة وأعلاها قيمة، وأبنى قصورًا، وأشتري الأراضي، والناس سيتزاحمون على بابي يطلبون العمل عندي، وسأصدرُ أوامري لهم، وستكبر سعادتي حدّ السّماء، وأنا أراهم لا يرفضون لي طلبًا، ويسهرون على راحتي بعدم إزعاجي، وكلّ يوم أركبُ حصاني؛ لتفقّد أملاكي ومن يعمل فيها).

قصورُ أوهامٍ بَنَى عليها أساطير أوهامه المنبوشة من خفايا نفسه، وخيال جامح شاطح؛ أسرف في استعراض أحلامه، بحركة يد غير محسوبة، كأنّه أراد الإشارة بعصاه لشيء ما خطر في ذهنه، فما كان منها إلّا أن لَكَزَتِ الجرّة؛ فانكسرت؛ وسال عسلها فوق رأسه، وهو ما زال جالسًا بمكانه لم يتحرّك، وراح يلعق آماله وأحلامه المنكوبة.

❖❖❖

استفاضَةٌ في الكتابة، أخذتني في مساربها على غير إرادة منّي، ووجدتُني مُنساقًا لتباريحها، ونُواحها، وحزنها، وسرورها، إنّها ذكريات، ولا أستطيع تسميتها مُذكّرات؛ لكي لا تأخذ طابَعِي الشخصيّ، وبالتّالي أعترفُ أنّ ما حصل لي كان تجربة خاصّة بي وحدي لم يَكْتَوِ بنارها إلّا أنا، ولم يتأثر أحد بنتائجها سِوَاي، أنا

وحدي من انعكست عليه مؤثّراتها؛ فقلبت مسارات حياتي بمئة وثمانين درجة تمامًا عكس الاتّجاه.

وسأفسح المجال لأصدقائي أن يقولوا بأنفسهم، ويكتبوا ما يريدون، وما سيُكتب عنهم، من خلال صفحاتي المتواضعة هذه التي أضعها بين أيديكم.

تفضّلي سيّدة هالة، هاهي صفحاتي بيضاء بين يديك اكتبي بنفسك ما يحلو لك، قبل ذلك، فاتتني نقطّة مهمّة نسيتُ تسجيلها، وقبل البدء مع هالة.

ففي إحدى اللّقاءات؛ التي كنّا نعقدها يوميًا في غرف الدردشة، أخبرتني على الخاصّ، صراحة لم أعرف شكل وجهها، ولم ألتفت للتدقيق في صورتها المنشورة على ملفّها الشخصيّ في المنتدى، وصديقي الحميم نصّار أيضًا مثلي لم ينتبه لهذه النّقطة، ولم يكن يخطر ببال أحدنا سؤالها:

-"إن كانت صورتها الشخصيّة الحقيقيّة، أمْ أنّها رمزيَّة تُخفي حقيقتها خلفها".

❖❖❖

<u>كتبت لي على الخاصّ:</u>

-"سأكون غدًا ضيفة على شاشة قناة الجزيرة يُفترَض أنّه لقائي الأوّل بعد موجز نشرة التّاسعة مساء، سيُبثّ تقرير صورّوه معي في برنامج

(لقاء اليوم)، لأتحدّث عن حتميّة انتصار الثّورة السلميّة كناشطة سوريّة في إيطاليا، وجاء ذلك على خلفيّة إقامة معرض للوحاتي في محيط نافورة تريفي".

– فاضل: "سيّدة هالة من فضلك، إذا أمكن إعطائي فكرة عن هذه السّاحة ونافورتها، لأنّني لا أعرف عنها شيئًا".

- هالة: "بكلّ سرور، تشتهر مدينة روما بجماليّات نوافيرها المنتشرة في ميادينها وساحاتها العامة، سأشرح لكَ من ذاكرتي عن المكان، هي أكبر نافورة مَبنيّة على النَّمط (الباروكي).

انتهى بناؤها عام ١٧٦٢، وهي من تصميم (نيكولا سالفي)، و هي من أجمل هذه النوافير على الإطلاق، تشغل حيّزاً كبيراً من الساحة بتماثيلها التي ينطلق الماء من حولها، حيث ينساب على شكل شلّالات صغيرة، تصب داخل البركة، وهذه المياه تُنقل عبر قنوات مُعلّقة، وتنتهي في هذا المكان الذي يعرف الآن بنافورة "تريفي"، وهي حوض لتجميع مياه القنوات المُتفرّعة من مناطق أخرى، وهناك صخرة تجتمع عليها تماثيل عرائس البحر.

وتُرْوى هنا الأساطير عن هذه النافورة:

-(أنَّ كُلَّ من يُلقي بداخلها قطعة نقود، لا بُدَّ وأن يعود مرة ثانية لروما. كما يعتقد النَّاس على أنّها قادرة على تحقيق الأمنيات. هذا بالمختصر المفيد، لأنّ الوقت تأخّر، وغدًا سيكون يومي حافلًا

بالتَّحضير، والاستعداد لمشاهدة حَلَقتي التي صوّروها قبل أسبوعين من الآن. ولو تتخيّل كَمَّ النقود المعدنيّة التي يجمعها عمّال البلديّة على مدار العام، والأجمل من ذلك، لو تعلم أين يذهبون بهذا الكمّ الهائل؟. بعد البحث والسّؤال، تأكّدتُ أنّها تذهب لمساعدة الفقراء، وهذا الجانب المُشرق من الأسطورة".

- فاضل: "رائع هذا الشّرح المفيد، وصورة النّافورة ارتسمت في مُخيّلتي حسبما تصوّرتها، وكم أتمنّى السّفر إلى تلك البلاد، ولو على سبيل الزيارة السياحيّة لمدّة أيّام، وإن كانت قليلة".

- هالة: "عندما تنوي، وتعتمد أخبرني فقط، لأرسل لك دعوة (فيزا)، تصبح على خير، لا تنسى تبليغ الأصدقاء نصّار ومعن وسعيد بموعد مقابلتي غدًا، إنّهم غائبون عن المنتدى منذ أيّام لم أرَ لهم أيّ نشاط على صفحات الفيس، حفظكم الله جميعًا من كُلِّ مكروه".

- فاضل: "بكلّ تأكيد، سأخبر كلّ أصدقائنا لمتابعتك، نحن في فترة حرجة، وبحاجة لصوت يحكي هُمومنا بحريّة مُطلقة دون قيود، أو خوف الاعتقال، وأنتِ بألف خير يا رب".

❖❖❖

اللّقاء الأخير لا يقلّ حرارة عن اللّقاء الأوّل الذي كان، وما يحمل في ذهني من بقايا ألق ينير دروب أيّامي.

بعد خروجي من السِّجن بفترة قصيرة. توقّفت سيّارة أمام باب بيتي، نزل منها الصديقيْن معن وسعيد، أدهشتني مفاجأة حضورهما قُبيل الغروب بدون موعد مُسبق، أو اتّصال يُنبّهني لضرورة تجهيز نفسي؛ للقيام بواجب ضيافتهما بالشَّكل اللّائق بهما، هي المرّة الأولى التي يدخلون بها بيتي، وهما من أعزّ الأصدقاء على قلبي، رغم حداثة علاقتي بهما، فالعلاقة الفكريّة تُشعِلُ الحالة الرّوحيّة.

-: "كان عليكما إخباري بمقدمكما؛ فقد أخذتُماني على حين غِرّة".

من الوهلة الأولى حينما وقعت عيناي عليهما، أيقنتُ أنّهما مُتتكّران بلباس الرأس الشّماغ والعقال، فأدركتُ من فوري مدى المخاطر التي تكتنفُهُما. فقرأتُ الحالة في سرِّي، والمكتوب يُقرأ من عنوانه، وسأكتفي بها، فلا أريدُ شرحًا مُطوّلًا واعتذارًا منهما.

معن يضحك من عميق قلبه، يتلفّت حوله، وهو يضع قدمه على الأرض، وقبل أن يُغلق باب السيّارة ويقفله، أخذ السِّيجارة من فمه، وبقي المفتاح معلّقًا في خنصره؛ لتقبيل صديقه فاضل، وتهنئته بخروجه من السّجن:

-"حقّك علينا أخي فاضل، ولكن ما نقول ونحن جميعًا أمام تحدّيات تعيق حركتنا؛ فالمُلاحقة لم تتوقّف ساعة منذ أوّل مظاهرة خرجتُ

فيها، وكما تعلم؛ فالاحتياط واجب، وما من سبيل لي غير هذا؛ للقائك الذي كنتُ أتمنّاه بأن يكون طويلًا، بعد لقائنا العابر ذاك اليوم أثناء زيارتنا للقلعة والمنطقة الأثريّة، فلم يشف غليلي".

- فاضل: "أهلا بكما، تفضّلا".

– سعيد: "في الحقيقة أنّنا كنّا نخطط لزيارتك منذ خروجك من السِّجن قبل شهر، وفي كُلِّ مرّة نهمّ فيها، تأتينا عوائق من غامض علمه، لا نستطيع مقاومتها ومعاندتها، وأخيرًا .. جاء اللِّقاء المُرتقب".

فاضل من فوره أمسك جهاز هاتفه النقّال، بدون استئذان من صديقيْه، لعلمه بمدى العلاقة التي تربطهما مع صديقهما المُشترك نصّار، الذي كان السَّبَب الرئيس في مَدّ جسور صداقة فاضل مع معن وسعيد. علاقته القويّة بسعيد من خلال لقاءات تكرّرت بحكم وظيفته في مركز المحافظة درعا.

جاءت قضيّة المنتديات الثقافيّة على الشبكة العنكبوتيّة؛ لتمتين العلاقة الفكريّة، وسرعة الانتشار لمن يكتب، والطموح لكلّ منهم بالانتقال من العالم الافتراضيّ إلى الواقعيّ، باللِّقاء والمشاهدة وجهًا لوجه، واجتماع اليوم جاء على غير ترتيب، ومن دون موعد، هذا أحد ثمرات شبكة التواصل على الأنترنت.

❖❖❖

حضور نصّار كان فوريًّا، لم يستغرق أكثر من ربع ساعة بعد اتّصال فاضل معه، كان اللّقاء حارًّا.. كلقاء السَّحاب؛ دارت فناجين القهوة المُرّة، مرارُتها طيّبة مُستطابة المذاق، والمزيد منها بفنجان آخر يرطّب الجلسة، ويبتعد بشاربها مسافة حُلُم عن مرارة الواقع المؤلم.

عناق الأحباب صدّر الأشواق من الضُّيوف إلى المعازيب (أهل الدّار)، نصّار لم يتمالك نفسه، غالبته دموعه، وهو يرى صديقيْه سعيد ومعن في هذه اللّحظة.

أشهر عديدة مضت على آخر لقاء عابر جمعهما. عند خروجه من دوامه قبل انشقاقه.

فكان الرّصيف هو المحطّة التي جمعتهم بالصُّدفة وحدها، خطر له ذاك اللّقاء العابر من سنين بعيدة أثناء ذهابه للمدرسة الثانويَّة، وكان وقتها في الصف العاشر، قال في نفسه:

-"للمرَّة الألف كان الرّصيف هو الشّاهد الوحيد على لقائي العابر بابنة عمّتي (حمدة) الأكبر منّي بسنوات عدّة، لا أدري كم هي بالضبط. تلاقت العيون بنظرات عميقة، بينما لُغَة الصّمت سيّدة الموقف، والاتّجاه المقصود من كِلْينَا لا يفتأ في جذب كلّ واحد منّا إليه. مضت هي وابتعدت، وما زالت عيناها مغروستيْن في وجهي، إحساسي بهما طيلة نهاري أخذني إلى حالة شُرود لم تحصل لي من

قبل، وعلى ما أذكر أنّني ابتعدتُ كثيرًا عن قاعة الدّرس، ولم أفقه أو أسمع شيئًا من شرح المدرّسين".

بعد بُرهة من الصمت حتّى استطاع نصّار استعادة ذاكرته مما ذهبت إليه، والإفلات من نظرات حمدة.

خرجت ابتسامة من بين شفتيْه على خجل، وأتبعها بكلمات ترحيب:

-"أهلا بكما، فاجأتماني حقيقة، لم أستطع تصديق عينيّ أنّكما أمامي بشحمكما ولحمكما، لأنّي أدرك تمامًا المخاطر المحتملة حتّى وصلتما".

- سعيد: "الفضل يعود للطُّرُق الالتفافيّة رغم صعوبتها في مراحل كثيرة منها، ننحرف إليها مُجبرين احترازًا من خطر الحواجز الطيّارة؛ فهي المنقذة والأكثر أمانًا".

- معن: "أظنّ أيضًا أنّ اختيارنا للتوقيت الحالي، لملاحظتنا بأنّ دوريّات الأمن والمداهمات تهدأ في فترة ما بعد الغروب، ولم يعودوا يخاطرون بعناصرهم بالخروج خوفًا عليهم، بينما يستعيدون حركتهم النَّشيطة مع فجر كلّ يوم".

فاضل استجاب لدقّات خفيفة نقرت على باب غرفة الضّيوف، رجع بعد دقائق يحمل صينية لمّاعة عليها أربعة فناجين قهوة، وسُكريّة فيها ملعقة صغيرة مع كأس ماء بارد.

من فوره تذكّر سعيد سهرتهم الماضية مع أصدقائه عندما سرد لهم جزءًا من قصّة الرحّالة فائق نقلًا عن صديقه نصّار، ووجّه لومه للوقت الضيّق، وزاده ضيقًا التحديد من معن بربع ساعة فقط:

-"والله يا معن لا أدري ماذا سأفعل؟ وأنا آمل أن أبلّغ باقي القصّة المُشوّقة للحضور، الآن لم يعُد لي كلام بحضور نصّار، وعلى رأي القائل: (لا يُفتى ومالكٌ في المدينة).

ضحكة جماعيّة، فتحت شهيّة المُسامرة مع رائحة بخار القهوة المتصاعد، لمصافحة الأنوف، وبعض رشفات تصدُر عنها أصوات مليئة اشتياقًا لها، قال معن: "إذا حضر الإمام بَطُل الكلام".

تنحنح نصّار بعد أن هاجه الشّوق للدُّخول في حديث، وفهم من كلام صديقيْه أنّهما يطالبانه بإكمال باقي القصّة، قال: "وإذا حضر الماء لم يَجُز التيمّم، صديقي سعيد إلى أيّة نقطة رويتَ لهم".

- سعيد: "في الحقيقة أنَّ الوقت أجبرني على التوقُّف عند عودة فائق إلى بيته من تلك الرِّحلة، وهي من الأهميّة حتّى يستمع إليها المهندس معن، ربّما أنّها لا تختلف في كثير، أو قليل مما حصل مع العديد من الشباب".

- معن: "ربّما أنّها لا تدهشني بالقدر الكافي، فيما مضى استمعتُ، وعاينتُ أشياء من هذا القبيل يشيبُ لها شعر الرأس، ولا غرابة فيما سأسمع أبدًا مهما كان طريفًا".

نكهة اللّقاء طازجة كأرغفة خبز التنّور، تفوح مثيرة شهوة الشوق لرغيف ساخن، كنكهة اللّقاء الأوّل بينهما.

❖❖❖

نصّار: "ثلاثة أيّام لا غير قضاها الرّحالة هناك في ضيافة إدارة القبر، التي تولي جُلّ عنايتها لتوفير الخدمات المميّزة خاصّة للضُّيوف القادمين من أماكن بعيدة من داخل القطر وخارجه. والسّهر على راحتهم؛ لأنّهم سيكونون بكلّ تأكيد لسانَ حمدٍ وشكرٍ لا يتوقّف؛ لتدوم الرّحمات تنطلق من أفواههم عن روح الرَّئيس ووالدته. كما تكفّلت الإدارة بتأمين المنامات لمثل هذه الحالات، وتُقدّم لهم وجبات مجانيّة صدقة جارية.

حظي فائق بالاهتمام به، خاصّة كلمته التي دُعي لتسجيلها في سجلّ زائري القبر بصفته رحّالة، رياضة المشي بغرض الاستكشاف فقدت أهميّتها في ظلّ التطوّر التقنيّ في أدوات الاتّصال والتواصل. والرّحالة كما تعلمون يرى ويحفظ في ذهنه، ويُعيد انتاجه بالقصّ والسّرد على النّاس كما فعل قرابتي فائق، ومنهم من دوّنها كما فعل ابن بطوطة وابن جبير، وكثيرون غيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم؛ فجعلوها على شكل مُذكّرات تروي طُرفًا وحكايات.

من حُسن حظّه أنّه وصل ليلًا إلى بُصرى بحدود السَّاعة العاشرة، لم يذكُر أنّه وضع رأسه على وسادته، حتّى غطّ في نوم عميق. التّعب أخذ منه كلّ مأخذ. رجلاه مُتورِّمتان. فقاقيع انتفخت في قدميْه من أثر المشي المتواصل من مركز حدود درعا إلى القرداحة؛ لمدّة أسبوع كامل يسير من الصّباح إلى الغُروب. يجلس في كلّ مرحلة ليستريح ويستعيد شيئًا من نشاطه.

يتوقّف نصّار عن سرد القصّة، بينما اعتدل في جلسته لإحساسه بِخَدَرٍ تسري خيوطه في ساعده المتّكئ عليها؛ ليُبدّل إلى الجانب الأيسر، وعيون أصدقائه تنغرس في وجهه تتأمّل حركات وجهه المثيرة، على وقع صوت ارتشافهم من فناجين قهوتهم، بينما فنجانه ما زال على حاله لم يشفط منه رشفته الأولى.

تتعالى سُحب دخان السجائر؛ فتصنع حولهم هالة ضبابيّة؛ أبعدتهم عن بعضهم مسافات عظيمة سرحت فيها أذهانهم باتّجاهات تفكير شتّى. عيونهم تتفرّس وجه نصّار على غير وعي، تتداعى الأفكار إليهم من متاهات بعيدة، لا يعلم مكنوناتها إلّا الله.

استعاد نصّار وضعيّته، واستقرَّ كما يريد، تنحنح بعد شفط رشفة من فنجانه، أحسّ كأنّ شيئًا شحط في حلقه، ثم تناول كأس الماء. بشكل مفاجئ انطلقت حنجرة نصّار بأغنية (فؤاد غازي)، طالما سمعوها من الرَّاديُو أو جهاز التلفزيون:

- "تعب المِشْوار..
من خُطواتي وخطواتَكْ.. تعِب المشوار،
وانسينا الدّار.. وانسينا الدّار،
جِنّي يا دار.. جِنّي يا دار،
وعلى وَيْن الدّرب مُوَدّينا
وعلى أيّ شطّ مرسِّينا، يا بحر تَرّدنا على المينا.. خلّينا زغار".

العيون ما زالت مُبحلقة باندهاش غريب، ظنّوا الجُنون قد استولى على نصّار، عندما توقّف عند هذا الجزء من الأغنية، انفجرُوا جميعًا بالضَّحك الهيستيريّ؛ أنساهم ما يمرُّ بهم في يوميّات حياتهم الصّعبة المليئة بالخوف والقلق، وعلى النّقيض يتشوّقون مُتأمّلين مُتفائِلين بغدٍ مُشرق قريب.

فاضل، والابتسامة لم تفارق شفتيْه بعد نوبة الضّحك:

-"ظننتُ أنّ مسًّا من الجنّ أصابك يا صديقي، لا تؤاخذني على سوء ظنّي بك."

- سعيد: "هل تستطيع إخباري ما الذي جرى لك، وما الذي خطر ببالك، حتّى انطلقت حنجرتك بالمفاجأة السّارة غير المُتوقّعة؟".

بينما نصّار صامتٌ لم ينبس ببنت شفة، وكذلك معن يسحبُ نَفَسًا عميقًا من سيجارته، وينفث دخانها إلى أعلى، علّه لايحول بينهما بفاصل يحجز بينهما المسافة.

أنزل نصّار فنجان قهوته من أمام فمه، عندها طفرت دمعة من عينه لم ينتبه إليها سقطت في الفنجان، بينما سيجارته استقرّت بين شفتيْه آخذةً مكان الفنجان، ودخانها ينطلق أمام وجهه مُشكّلًا مِلاءة بيضاء حجبت بعض ملامحه لوقت قصير، وانطلقت من أعماقه كلمة:

-"آآآآآه ... أأأأأوف".

وتابع: "ما إن جاءت السّاعة التاسعة والنصف صباحًا، حتّى كانت دوريّة الأمن السياسيّ تقف فوق رأس فائق، المفاجأة ألجمت لسانه، تململ..!! نهض مُتّكئًا على كوعه الأيسر، فركَ عيْنيْه؛ ليتيقّن أنّه في صَحْوِه أو يتابع في حُلُمه.

- الرّقيب رئيس الدوريّة: "هيّا انهض بسرعة".

ترقرق الدّمع في عينيّ نصّار من جديد. ثمّ أخذ نفسًا عميقًا، وقال:

-"أعلمتم الآن سبب انطلاق حنجرتي المفاجئ بأغنية (تعب المشوار)؟".

هزّ الحضور رؤوسهم. الدَّهشة استحوذت على وجوهم، وأطبقتِ الشّفاه على الألسنة، فانخرست الكلمات مُتجمّدة كالصَّقيع في ذروة الشتاء. صمتٌ عميق أثقل كاهل المكان.

❖❖❖

لم يتأخّر تواجده بين أيديهم في المفرزة أكثر من ساعة، اتّصالاتهم مع الفرع؛ وإرسالهم برقيّة عاجلة تُخبِر قيادتهم باعتقال فائق. هم ما زالوا بانتظار الأوامر بالخطوة القادمة.

مضت نصف ساعة منذ إدخاله إلى حمّام المفرزة، وإغلاق الباب عليه، وتوكّل أحد العناصر بالمرابطة أمام الباب، وأمروه بعدم إصدار أيّة أصوات تثير شيئًا ما، الوقت ما زال مُبكّرًا، وكثير من المراجعين للمفرزة يدخلون ويخرجون؛ فالمحافظة على السريّة أمر محتومٌ لا مفرّ منه.

رنين الهاتف في غرفة رئيس المفرزة، استتبعه رنين من جرس مكتبه، الآذنُ بخطواته المُتعجّلة في الممرّ لم تسمح له بالالتفات نحو أيّ من المكاتب.

دقّ الباب بهدوء ورزانة، دخل بعد سماعه الإذن بالدُّخول. لم تمض دقيقة حتّى عاد للخروج كما دخل، مُغلِقًا خلفه الباب، توجّه من فوره إلى الدّيوان، طالبًا من المُساعد رئيس الدّيوان، إرسال الرقيب رئيس الدوريّة إلى مكتب النّقيب.

نشطت حركة العناصر في الممر ومن مكتب إلى آخر، بينما أخرجوا فائق من الحمّام مغطّى العينيْن بطمّاشة جلديّة سوداء، تحجُب عنه أي بصيص للنور ربّما يتسرّب من خلالها، ويداه مُكبّلتان للأمام بقيد حديديّ مُحكم الإغلاق لا يستطيع معه تحريك رُسُغَيْه بحريّة تريحهما،

ووقف عنصران مسلّحان بجانبه، وآخر من خلفه يلكزه في ظهره حاثًّا إيّاه على التعجّل في خطواته العرجاء.

الممرُّ خالٍ تمامًا، عند هذه اللّحظة فُتح باب المفرزة الحديديّ، لأنّه أغلق بعد صدور أمر رئيس المفرزة.

سيّارة (البيجو ٥٠٤ ستيشن) تقف مباشرة تسدّ البوابة، من فوره صعد العنصر المسلّح من الجانب المقابل، بينما العنصر الآخر دفع بفائق إلى وسط الكرسيِّ. ودخل خلفه؛ فصار يتوسّطهما.

❖❖❖

(البيجو) تنهب الطّريق تُسابق الرّيح في سبيل الوصول بالسُّرعة القُصوى، بينما الهواجس تنهش قلب فائق:

-"مؤكّد أنّهم يقتادونني إلى مقرِّ الفرع في درعا، يا إلهي..!!، ما هذه البلوى التي سقطت عليّ، لم يتركوني لحالي عدّة أيّام لأستريح من تعب مُضنٍ هَدّ جسمي، وألم مفاصل كأنّي مُصاب بالرُّوماتيزم والنُّقرُس، وجعٌ غير معقول في قدميّ، البارحة عند وصولي للبيت لم أُطِق لمس ما بين أصابعهما، فقاقيع جلديّة مُنتفخه مُحتقنة بماء تحجزه داخلها. لو أنّهم تركوني، وطلبوني بعد فترة؛ لكنتُ ذهبت من تلقاء نفسي إليهم.

يبدو أنّ رحلتي المُقدّسة لم تشفع لي، واللّهِ صدق المثل: (ماعندهم لحية ممشّطة أولاد هالكلب)، و(الطّايح بين إيديهم رايح)، أخذوني على حين

غِرّة، لم يتركوا لي مجالًا أبدًا، أدعو الله أن لايضربوني؛ فإذا استجاب الله دعوتي؛ ستكون قد حصلت لي بركات مُعجزة.

رغم يقيني أنّ ذهابي بطريقتهم المعهودة هذه، حتمًا ينتظُرني مصيرًا أسودا؛ فإذا كان مُجرّد سين وجيم فقط أو اشتباه بالاسم، لا أتوقّع خروجي قبل ستّة أشهر، التسعيرة معروفة سلفًا لا تحتاج لاثنين؛ ليختلفوا حولها.

صمتٌ مُطبقٌ داخل (كابينة) السيّارة، وهدير محرّكها يعزف لحنه العتيق بتآخٍ عجيب مع طبيعة حالنا، الأوامر واضحة للعناصر بعدم فتح أفواههم بأيِّ حديث مع بعضهم، ولا معي وأمثالي أبدًا، ولا إفساح المجال لي بالكلام، فقط مسموح استنشاق الهواء، رائحة دخّان السّجائر تجتاح أنفي؛ فتثير عندي رغبة جامحة بالتدخين، أوّلها شعرتُ به جاء من عند السّائق، ثم عن يميني وعن شِمالي. من المستحيل الحصول على سيجارة، أحسّ بتوتّر أعصابي، يداي ترتجفان باهتزاز لا إراديّ، وَخْزُ القيْد الضّاغط حرّك خدر الأعصاب بالتميل مُتجاوزًا كفّيّ إلى ما فوق رُسُغَيّ، أمنيتي لو أستطيع الحكّ بأظافري لأشبعتهما هَرشًا.

المانع حديد أقوى من عضلاتي اللّحميَّة، أحاولُ تحريك أصابعي فقط رائفًا بِمِعصَمَيّ عدم الاحتكاك المؤلم، خفتُ أن ينزّ الدم منهما، فلا

أملك قوّة شمشون لأحرّرهما، وأطلقهما ليتحرّكا بحريّة، لأستطيع الحكّ والهرشَ فقط هذه أمنيتي، آه لو تتحقّق..!!.

انعطاف الطريق يُجبر (البيجو) على مسايرة الالتفاف، ونصيبي المنعكس عليّ، مرّة أنضغط من اليمين عندما يميل العنصر الضّخّم عليّ، أنفاسي تختنق ما بين شهيق وزفير، وتتكرّر العمليّة إذا ما جاءتني الضغطة الأخرى من يساري.

والأمر الذي استَحسَنته منهم أنّهم لم يقيّدوا قدميّ، لكانت مصيبتي أعظم مئة مرّة مما أكابده وأعانيه الآن.

أربعون كيلو مترًا ما بين بصرى ودرعا، إحساسي بتعبها وإرهاقها أعظم من سفري للثلاثة الأيّام بلياليها من ليبيا إلى سوريَّة.

ليس من السهل عليّ في مثل ظرفي هذا استجماع أفكاري، حالة التشتّت والارتباك استولت على عقلي، أعصابي متعبة، أحاول استعراض رحلتي كلّها من نقطة الانطلاق والعودة؛ لعلّني أضع يَدِي على خطأ ما ارتكبته بكلمة، أو تصرّف ممكن تأويله على أكثر من محمل. لا أدري..!!.

أكبر ظنّي أنّ جلوسي في فرع الحزب، وممازحة من كانوا هناك بسخريتهم مما سأقوم به، لا أعلم غير ذلك..!!.

خفّ هدير محرّك (البيجو)، وخفّت حدّة الهواء المندفع من الشبابيك المفتوحة، أيقنتُ أنّنا دخلنا المدينة، ومسيرها الدائريّ أكّد أنّها عبرت

دوّار الحمامة، وصوت أبواق السيّارات وهدير مُحرّكاتها يأتيني عنوة بلا استئذان.

خمس دقائق مضت بعد خروج (البيجو) من الدوّار توقّف هدير محرّكها تمامًا، وانعطافها ثلاث مرّات مُتتالية، تأكّد لديّ وصولنا إلى المقرّ، نزل السّائق، بعد ثلاث دقائق تقريبًا وعاد، تحرّك بنا ثانية حوالي مئة متر ثمّ توقّف.

ترّجلوا جميعًا. صدَرَ لي أمر من أحدهم:

-"هيّا انزل بسرعة..!!".

❖❖❖

مازال دُخان السجائر يتصاعد من أصحابها، وهم يستمعون باهتمام لرواية نصّار، ومثلما حدثَ لسعيد في السّهرة الماضية هناك، فقد طلب فاضل من نصّار الاختصار قدر الإمكان، لاستغلال الوقت القصير في أشياء أهمّ تخصّ اللّحظة الحاسمة، ولم يُعقّب سعيد بكلمة، رغم أنّه قد سمع من نصّار نفس القصّة للمرّة الثانية.

فاضل مُرهِفٌ سمعه الدالّ على انسجامه، وهو الذي يعرف القصّة وصاحبها فائق ابن عمّ صديقه نصّار.

المهندس معن وحده من لم يسمع شيئًا سابقًا عن هذا المقطع الذي يُروى للتوّ خلال هذه الدقائق العشر الماضية.

- فاضل يتدخّل: "أخي نصّار رجائي الاختصار قدر الإمكان".

نصّار هزّ رأسه إيجابًا، ودخان سيجارته يتصاعد من فُتحتَيْ أنفه ومن فمه، وتابع:

-"قبيل الظهر كان وصولهم إلى الفرع، لكنّهم لأمر ما، أنزلوه إلى القبو، ووضعوه في زنزانة منفردة احتوته، وتكتّمت على نوافذ الفرح في نفسه، وأغلقت كلّ شبابيك الأمل في قلبه، كان ظنّه أنّه سيحصل على وسام استحقاق؛ لأنّه قام بفعل يُحتسب له عندهم، ولم أعلم أنّ أحدًا من المُزاودين والمُنافقين مُدّعي الوطنيّة قام بما قام به فائق.

لكن أن ينتهي به الأمر هنا، نتيجة غير مُتوقّعة أبدًا ولا حتّى في الأفلام، التعب والإنهاك الذي حلّ بأعضائه، أغلق عليه نوافذ اليأس والإحباط، أو أن يلجأ لتأنيب نفسه. ما إن أُقفِل باب الزنزانة من دونه، استسلم لنداء جسده المرهق؛ وغطّ في نومٍ عميق، لم يشتكِ أحدٌ من نوبات شخيره المُدوِّية في أرجاء المكان الهادئ في كسر رتابة الصمت، فيرتدّ صدى الصوت إلى أُذنيْه، لم يَبدُ أيّ احتجاج على هذه الأنغام الليليّة الطّاردة لعصافير النوم.

انتصف اللّيل عندهم، صدر أمر الضّابط المناوب بإحضار فائق، لا صرير باب القبو، ولا صلصلة الجنازير والأقفال عند فتحها استطاعت تنبيهه من نومه، خلال هذه الفترة الطويلة لم يشرب أو يأكل شيئًا؛ فهو لم يطلب من الحارس الخروج إلى الحمّام.

سلطان النّوم سيطر عليه حدّ الموت؛ فصارت نومته كنومة أهل الكهف، رغم أنّه لم يجد إلّا بطانيّةً عتيقةً تفوح منها رائحة العَطَن والعفونة، تلمّس برجله أرضيّة الزنزانة لم يجد فيها أي أغراض منسيّة أو مرميّة. لمبة صغيرة تتدلّى من السقف على مسافة شبر، قسم من ضوئها الخافت ينير ظُلمة المكان، ملامح ما حوله من الباب والجدران باهتة برماديّتها المائلة إلى قتامة السّواد.

خلع حذاء النّعال من قدميّه المتورّمتيْن، ووضعه تحت رأسه بديلًا للوسادة المُفتقدة في مثل هذه الأماكن، قساوة الأرض لم يُفكّر بمقارنتها مع فَرْشَة سريره الصوفيّة، برودتها سرَت إلى جسمه بمجرّد اضطجاعه، وهو غير آبه لأحاسيسه المختلطة اشتياقًا لإغماضة من عينيْه".

المهندس مشدود إلى طريقة نصّار المُشوّقة في سرد الحدث، مُترقّبًا حركة شفتيْه مُتتبّعًا للكلمات تخرج من بينهما طازجة، مُحتسيًا من فنجان قهوته، ولم تفارق السِّيجارة فمه:

-"أخي فاضل بالله عليك، دعهُ يُكمِل ما ينقصني من قصّة فائق الذي أثار اهتمامي..!!. وددتُ لو أنّه الآن بيننا يروي لنا هو بنفسه عن نفسه، لكان الموقف أقوى وأبلغ، يبدو أنّ هذا الشّخص مُختلفٌ تمامًا عن محيطه، ومُتقدّم بخطوة أمام جيله، منذ الجلسة الماضية هناك، فالجزء الذي لم يتمكّن سعيد من إكماله لنا بسبب ضيق الوقت حينها، ما

زلتُ مُتشوّقًا لمعرفة ما حصل مع الرّحالة العتيد، بكافّة التفاصيل حتّى المُمِلّة منها، لغرابة القصّة وطرافتها".

– نصّار: "والله منذ فترة لم ألمح له أثرًا هنا في البلد، يبدو أنّه يعمل في مكان ما، وعلى الأغلب أن يكون في العاصمة على ما أعتقد. ولو كنتُ أعرف أنّه في بيته؛ لأرسلتُ إليه خبرًا ليكون بيننا ونسعد به".

❖❖❖

فترة استراحته في الزنزانة جاءته منحة من السماء؛ فعندما يفعلون ذلك، ويتركون المعتقل قصدًا هكذا بلا سين وجيم؛ لتكثر الهواجس في قلبه، فتعمل على انهيار معنويّاته لإضعاف صلابته؛ فيسهل عليهم انتزاع المعلومات منه، وينصاع لهم بكلّ يُسر وسهولة. كثيرًا ما (تجري الرياح بما لاتشتهي السّفن).

ويتابع نصّار سرد الحكاية على لسان فائق:

-"المُحقّق يجلس خلف طاولته يُطالع أوراقًا مُتتالية يسحبها من ملفٍّ أمامه كبطن الحُبلى مُنتفخٌ، دخان سيجارته يُضفي عليه حالة من الانهماك في عمله، وبيده قلمان أحدهما أحمر، يتناوبان في التأشير على الأوراق التي بين يديه.

الحاجب أدخل الرّحالة المعتقل، لم يأت من المحقّق ردّ السّلام على تحيّة فائق إلّا بعد نصف ساعة؛ وقتها رفع رأسه باتّجاهه. قائلًا:

-"أهلًا بالرّحالة، هل تعلم أنّني تشوّقت لرؤيتك، كنتُ أحبّ أن أراك في غير هذا الموقف، لأرى الفرحة على وجهك، وأنت تؤدّي عملًا عظيمًا في مَوَازيننا، بإظهار ولائك لقائد وباني هذا الوطن، هذه نُقطة تُحسب لك، وتشفع لك كما شفاعة النبيّ لأمّته يوم القيامة. على كُلٍّ اجلس، سأطلب القهوة لي ولك، بس أخبرني ما هي قهوتك؟.

فائق بالكاد تخرُج الكلمات متلعثمة خجولة من فمه، لم يُصدّق ما تسمعه أُذُناه، هذه ليست من عوائدهم هنا، وما أدراك ما هنا، هل بالفعل الأمور تبدّلت، أم أنّ هُناك خطأً ما؟. لا أدري..!!، كأنّما اختلطت الأشياء عليّ واشتبهت كما اشتبه البقر على بني إسرائيل؟. ومن أين لي بسيّدنا موسى حتّى يُخبرني عن أمرهم هذا. لعلّها خُدعة من المُحقّق لاستدراجي واستمالتي إلى صفّه، ليَخرُج بكمٍّ هائل من المعلومات التي يحتاجها في عمله.

ما إن هممتُ بالجلوس، حتّى امتدّت يده نحوي بعلبة دخّان حمراء طويلة، يُطِلّ من فُتحتها رأس سيجارة؛ سحبتها وأنا غير مستوعب لما يحصل، بعد أن عرضها عليّ مع ابتسامة ندّت عن شفتيْه، ما إن استقّرت مؤخّرتي المُتيبّسة من أثر برودة أرضيّة الزنزانة؛ حتّى شعرت بدفء الكرسيّ، وطراوة فرشته المخمليّة.

هززتُ برأسي مع ابتسامة بادلت ابتسامته مجاملة. انزاح عنّي نصف خوفي وهواجسي، ثم بادر بمدّ الولّاعة اضطررتُ لمدّ رأسي الذي أمال

جسمي معه إلى الأمام؛ للوصول قريبًا من يده، قبل سحب أيّ نَفَس من السِّيجارة رغم غليان دمي تشوّقًا لها؛ كأنّما روحي عادت إلى صدري من جديد. قلت له:

-"لكَ كلّ الشكر سيّدي المُحقّق، صراحة أفضل خدمة قدّمتها لي هذه السِّيجارة، أنت أوّل إنسان نبيل أصادفه في حياتي، وسمعتُ عنه في مثل هذا الموقع".

– المُحقّق: "هذا واجبنا تجاه المواطنين الشّرفاء من أمثالك".

دقّ الحاجب الباب من جديد قطع كلام المحقّق، وأحضر فنجانيْن من القهوة، وضعهُما على الطّاولة أمامنا وانصرف.

أغلق الباب خلفه. وتابع:

-"الأمر بسيط، وأبسط ممّا تتصوّر، أنا درستُ ملفّك جيّدًا؛ فلم أجد فيه شيئًا أبدًا ممكن أن يأتيك منه ضرر. لكن وصَلَنا خبر ، أنّه عند ذهابك لفرع الحزب، صدر عنك كلام؛ فَسّروه على أنّه استهزاء بالقيادة".

- فائق: "بكلّ صدق، وأنت تعرف لا مجال للكذب في مثل هذه الأمور، وإذا أردتَ التّثبُّت من صحّة كلامي، أنا على استعداد لمواجهة من نقل الخبر، وممن كان حاضرًا في الجلسة. حيثُ شعرتُ بالإهانة منهم". عندما قال أحدهم:

-"أأنت مُتزوّج من زمان، ونذرتَ نذرًا إذا رزقك الله بطفل؛ أن تزور قبر الرَّئيس؟.

-وقال آخر: "أأحججتَ، وأردتَ إكمالها بزيارة قبر الرَّئيس؟. وحدث هرج ومرج في غرفة مكتب هؤلاء الحُرّاس، وضحكهم السّاخر أساء لي بشكل مُباشر، ولكنّي كنتُ في موقع لا أستطيع الردّ عليهم، وفي حالة غير محسود عليها من الارتباك، لأستطيع الدّفاع عن موقفي. الظّرف الطارئ حال بيني وبينهم".

المُحقّق منهمك في كتابته على الأوراق، أرى يده تتحرّك انتقالًا بالقلم الأزرق من سطر لآخر، وأحيانًا يأتي دور الأحمر، لم يرفع نظره عن الأوراق. ارتياح قلبي، وانتشاء روحي، كأنّما انتُشِلتُ من بئر عميقة.

عيناي تتفحّصان المكتب، صورة بالأبيض والأسود ببروازها القديم للسيِّد الرّئيس المرحوم، وعلى زاويتها اليُسرى خطٌّ مائل باللّون الأسود، رمزُ دلالة على الانتقال إلى الرّفيق الأعلى. وبجانبها صورة مُلونّة بنفس الحجم لابنه الرّئيس الحالي مُبتسمًا مُتفائلًا، هكذا بدا لي.

مقابلتي الأولى لصورة الرئيس المرحوم في مكتب العميد رئيس قسم الحدود لم تكن بهذه الروحانيّة، تقابلنا بعدوانيّة هامسة، على خلاف ما أنا فيه الآن. تبدّلت رُؤيتي، ربّما كنتُ مخطئًا..!!.

حمل وُريْقات ممّا كتب بعد أن وقّع عليها، وقام بنسخ صور (فوتوكوبيّة) عنها، ليضُمّها مع بعضها بعد أن خَرَزَها بالآلة، وثقَبَ الأخريات؛ ليكون مُستقرّها ومُستوْدعها في الملفّ. وقال:

-"لاتقلق يا فائق ألف مبارك لكَ؛ بإمكانك العودة إلى بيتك من هذه اللّحظة مُعزّزًا مُكرّمًا". السّاعة تُشير إلى الثانية فجرًا.

في الحقيقة لا أدري ما الذي دهاني لأنسى أنّني انتقلت من عهد إلى عهد آخر؟، ومن حقبة زرعت الكآبة في حياتي إلى حقبة ها أنا أرى نتائجها بأمّ عيني، ربّما أنّني خِلتُ نفسي للمرّة الأولى في حياتي إنسانًا مُحترمًا، أو أنّني في بلد أوروبيٍّ مُتحضّر فوق الأرض؛ يُقدّم لمواطنيه هذا الودّ والاحترام.

❖❖❖

استفقتُ من غفوتي بعد أسبوعيّن من الجولة الأولى مع الأمن السِّياسيّ، وجاءت صحوتي؛ لتُذهب سَكْرَتي من رأسي، عندما وصلتُ بين يديّ محقّق الأمن العسكريّ الوقح الجلفِ بسوء معاملته لي أثناء التحقيق معي في نفس هذه القضيّة، وبالتهديد والعُنف حاول انتزاع أقوال واعترافات منّي لم تصدُر عنّي، ولا قمتُ بفعلها هي موجودة فقط في مُخيّلته.

من خلال قضيّتي أقفُ بين مرحلتين فتحَتْ عينيّ على ما لم يلفت انتباهي سابقًا، عادت ذكرياتي السوداء السَّابقة الرَّاسخة برسوخ سجن تدمر في ذهني.

وذهبتُ بعيدًا مُتأمّلًا في نبش منسيّاتي من مستودع الذّاكرة، الجذور السّابقة عميقة قويّة؛ فتمتَصّ منها نُسُغَ بقائها على قيد الحكم، والرّئيس الحاليّ ابن الرّئيس السّابق. لا أستطيع التعرُّف على الاختلافات الجوهريّة التي حصلت لنا خلال العهد الجديد. ما زالت الأجهزة ماسكة بخناق البلد، بطريقة مُهذّبة قليلًا عمّا سبق.

بكلِّ ثقة أقول: "إنّ مُحقّق الأمن السِّياسيِّ مُختلف بأدبه ولباقته، عن زميله ذاك العسكريّ؛ بتعامله الخشن المفتَقِد لأبسط قواعد التعامل الإنسانيّ".

جاءت مقارنة موضوع المُحقّقيْن على شاكلة الرَّئيسيْن الحالي والقديم.

التعامل ضمن سياق المصالح الضيّقة؛ تتآكل معه مساحات النّظر بمنظار آخر للتفريق بين الأمور؛ فيذهب الصّالح بحجّة الطّالح، أخاف أن تصلني حالة النّدم على ما فعلتُ، ويُضرب المثل بندامتي كما ندامة الكُسَعيّ.

العهد الجديد لايختلف كثيرًا عن العهد القديم. توقّف نصّار عن الكلام مُوحٍ لأصدقائه بانتهاء قصّة فائق، وتوقّف عند هذه المقارنة.

❖❖❖

هناك مساحات من العلاقات العامّة تُعتبر بِكْرًا ، وكذلك على مستوى حياة الأفراد ، من الممكن استثمارها في مقاصد نافعة للجميع، هذا إذا جرى الاتّفاق والإجماع على أمرٍ ما بنسبة عالية من مُؤيّديه.

هذه المساحات ستكون أرض استنبات غِراس مُعافاةٍ؛ يُؤمَل منها عميم الخير، إذا أحسنوا توزيعها بلا مُحاباة ولا مُداراة. الفئة الواعية على قِلّتها تستطيع بإخلاصها لفكرتها استجلاب العموم لاحتضانها؛ رجاء الفوائد وحصد النّتائج الإيجابيّة لتليين صعاب حياتهم.

عندها تكون فكرة مساحات التواصل عبقريّة؛ تتكلّم عن نفسها بفصاحة غير قابلة للتأويل والمراوغة في فهمها؛ فتنتفي الحُجّة لمن اشتطّ تباعُدًا عن طريقها وحدودها.

علاقة روحيّة ارتبطت بواقع فكريّ ربطت هذه الثُّلّة بوثاق متين، جعلتهم يُخطّطون للآخرين. تميُّز معن بخطوات عنهم، جعل منه شخصيّة تحمل بذور قيادة الحَدَث وتوجيهه في مسار صحيح، مَكْمَن السِّرِّ في شخصيّته جعلت منه محطّ أنظار المُعجبين؛ وتأجيج حسد؛ وبُغض الكارهين، وصيدًا ثمينًا للمُتربّصين من الأعوان والغلمان؛ يتلهّفون للإيقاع به في شِبَاك قذرَة في مياهٍ عَكِرِه.

الجميع كأنّ على رؤوسهم الطّير، ينظرون باهتمام لما سيقوله معن:

-"أصدقائي. رأيتم بأمّ أعينكم التخريب الذي حصل في البلد على صعيد معظم القرى مثلما حصل في المدينة أيضًا، من الفوضى التي

أحدثها السّلاح بين أيدي بعض الشبّاب العابثين الذي أطلقوا عليهم لقب ثوّار، افتعال معارك وهميّة استدعت اختباء النّاس في بيوتهم؛ وعدم الخروج بعد المغرب ليلًا مهما كانت الظّروف؛ لأنّها مُخاطرة بالنّفس تؤدّي للتهلكة.

السّاحة خليت للحرّامية واللّصوص المتلهّفين على هذه الفُرصة النّادرة من فَلتَة الحُكُم، وكما يُقال: (موت الكلاب فرج للحراميّة).

ماذا يفيد الثورة السَّطو على مدرسة، وتكسير أبوابها، وسرقة ممتلكاتها من أجهزة الحاسوب، ومما غلا ثمنه وخفّ حمله؟.

وماذا يُفيد الثّورة، كما حصل عندكم هنا من حرق للمركز الثقافيّ، هل هذا يُسقط نظامًا أو يُثبّته؟.

وماذا ينفع الثّورة، سرقة كابلات الهاتف الأرضيّة، عندما قام أحدهم بقصّ الكابل الرَّئيسيّ بالمنشار، وربطه بحبل يجرّه تراكتور لسحبه من باطن الأرض، وبيعه بالخُردة على أساس أنّ مادّته من النُّحاس؟.

وماذا تستفيد الثورة من تفكيك أعمدة الكهرباء، وسرقتها مع سحب أسلاك الخطوط الرئيسيّة، وقصّ الأشجار التي استغرقت سنينًا من التعب والمتابعة والرعاية لتصبح وارفة، وحسّنت منظر البلد بشكل عام؟".

- فاضل: "باشمهندس ما قُلتَه، وما تفضّلتَ به هو غيضٌ من فيضٍ، هل نحن نُطبّق ما وعدت به (كونداليزا رايس) من إشاعة الفوضى

الخلّاقة. يا إلهي..!!. انظروا إلى دهاء الأمريكان في جمع المتناقضات..!!.. وجعلها مفاهيم قابلة للتطبيق فور اتّخاذهم القرار في ذلك. تُذكرني أفعال الشّباب في الفترة، بما ورد في القرآن الكريم بخصوص بني إسرائيل ووصفهم تعالى بقوله: (يُخربون بيوتهم بأيديهم، وبأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار). نحن نُخرِبُ بيوتنا بأيدينا خدمة للشيطان".

- نصّار: "في الواقع هذه أعظم هديّة قدّمها هؤلاء الهَمَج للنّظام، بقيامهم بمثل هذه الأفعال الشّنيعة التي تقشعرّ لها الأبدان، ويأباها العقلاء، فلا تُرضي البشر وتُغضب الخالق، على طبق من ذهب قدّموا خدمة مجانيّة للآلة الإعلاميّة التي استخدمها النّظام بمهارة واقتدار".

- سعيد: "شيء يُدمي القلب، هذه الأشياء لنا وُجِدَت لخدمتنا، تتبّعتُ سيرة الكثيرين من هؤلاء الفوضويّين، واتّخذتُ قراري بشأنهم، وفي أحسن التّقييمات هم حَراميّة مُغفّلون، بينما أكثرهم مدفوعين بأيد خفيّة تلعب بهم، لأنّهم في الأساس مشبوهين بعلاقاتهم المُعقّدة بالأجهزة الأمنيّة التي دفعت بهم لمثل هذه الأفعال الشّنيعة، ودور الإعلام خاصّة للخارج، ولمن لا يعرف حقيقة إدارة الأزمة بهذه الطريقة. لا يمكن استهجان ردّة فعل النّظام الفاشيّ".

- معن: "الواجب يُملي على الجميع التوعية العامّة لخطر هذه الفوضى في تخريب الممتلكات العامّة، لانعكاس أثرها السيّيء على حياتنا

وأولادنا مُستقبلًا، الأمور لا يمكن أن تبقى في مرحلة المراوحة الطويلة، وجمود التّعاطف العالميِّ مع قضيّتنا".

- فاضل: "عالَمٌ مُنافِقٌ لا يتحرّك إلّا ضمن دائرة مصالحه".

- سعيد: "صرنا واقعين بين نارين النّظام والمُسلّحين كلاهما شرّ. ها نحن نعاني من جرائمهم، وهم أعداء للثورة في الحقيقة".

هموم ضاربة جذورها في الأعماق حتّى العظم. تشعّبت الأحاديث حول الأشهر الأربعة الماضية وأحداثها المؤلمة.

دماء الشّهداء والمعتقلين ودموع الأمّهات، والانشقاقات التي لم ترتَق إلى قيادات مُؤثّرة في الجيش، والبطالة والحواجز والخوف والقلق.

السّاعة تشير إلى الثانية عشر، وقد انتصف اللّيل. فاضل يترجّى صديقيْه أن يبيتا عنده إلى الصّباح، ويتحرّكا باكرًا بعد الفجر. الانتقال في مثل هذه السّاعة مخاطرة. تصميمهما حطّم كلَّ مُحاولاته في إثنائهما عن رأيهما. لم يكن من الوداع بُدٌّ. تذكّر فاضل قضيّة مُهمَّة لأربعتهم:

-"نسيتُ أن أخبركم عن موعد حلقة صديقتنا (هالة نجم الدين) ستُبَثّ على قناة الجزيرة، يوم غد الأربعاء التّاسعة ليلًا بعد نشرة الأخبار.

– معن: "توكّلنا على الله.

– سعيد: "وداعًا إلى اللّقاء ثانية".

❖❖❖

عقارب السّاعة تُعلن للمُتابعين قرب انتهاء خطواتها البطيئة وصولًا إلى التّاسعة، ومجيء موجز للأخبار لا يتعدّى الخمس دقائق، التلهّف لرؤية صديقتهم هالة على شاشة فضائيَّة لها شعبيّة مُنقطعة النّظير.
العيون مثبّتة على أجهزة التلفزيون والأعصاب مشدودة، ومن لم يُسعفه الوقت قرّر المتابعة في الإعادة. لكن لم يكن بالحسبان أبدًا انقطاع التيّار الكهربائيّ عندهم في معظم محافظات سوريّة؛ حسب اتّصالات الأصدقاء ببعضهم أفادت بذلك.

❖❖❖

<u>شارة الحلقة على الشّاشة تُعلن الإيذان ببدء الحوار مع هالة نجم الدّين:</u>
المذيع بعد كليشة الترحيب المُتعارف عليها في بداية كلّ حلقة:

-"من المعروف أنَّ الرِّواية يكتُبها راوٍ واحد. كيف حَدَث، وأنتم مجموعة أصدقاء؛ استطعتم القيام بلعب أدواركم دون التأثير على وحدة النَّسيج السَّرديِّ في رواية فوق الأرض، بعد اطّلاعي على تفاصيلها؟".

- هالة: "في الحقيقة إنّه سؤال ذكيّ ومتوقّع. بداية حيّرتني الطريقة التي سأدخل بها في هذا العمل، ارتبكتُ من قرار الروائيِّ فطين المُتسرّع، لم أكن أتخيّل أن أستلم دوري بهذه السُّرعة منذ البداية، كنتُ أخَطِّطُ أن تكون صفحاتي هي الأخيرة في سطور هذه الرواية

"فوق الأرض". أمّا الآن..، فلا أعرف من أين أبدأ، ذِهنيّتي فارغة تمامًا من أيّ شيء، ممكن أن أبني عليه حديثًا ماتعًا شائقًا لمن سيقرأ".

-المذيع: *"معروف أنّك مُقيمة الآن في إيطاليا، هاجرتِ إليها منذ سنوات، وأنت فنّانة تشكيليَّة، ما الذي جاء بك إلى عالم الكتابة؟"*.

-هالة: "أعتقدُ أنَّني كنتُ أغوص في متاهات من متعة العيش في إيطاليا، الآن فهمتُ، وابتدأت الحكاية من جديد، عندما تأكّدتُ من غفلتي عن الحقيقة القاسية. سرقتني دَعَةُ الحياة، مِطرقة الموت طحنت رأسي بقوّة أنستني حالي. بُعادي عن بلدي، بِحدّ ذاته سبَّب لي قلقًا على مدار السّاعة، خاصّة في مثل هذه الظُّروف من الحَرَاك الجماهيريِّ الواسع. وانتهاك حقوق الإنسان بفجاجة ظاهرة. خلقت منّي إنسانة أخرى وأنستني وحدتي في بلاد غريبة، شعور عَرِمٌ بالفرح تفجّر في حياتي عند العمل الجماعيِّ بروح الفريق الواحد".

-المذيع: *"ما هو الأثر الذي تركته سنوات الغربة على الفنّانة هالة نجم الدّين؟"*.

- هالة: "وجه أمّي يستحوذُني لدرجة استغراقي في الحالة، وإخوتي، وأخواتي، شرود ذهنيّ عجيب، تفتَّتت ذاكرتي صارت نهبًا للنسيان لأبسط الأشياء، ضاعت لذّة الحياة التي كنتُ أرفلُ فيها مع عائلتي

وإخوتي. دمعتي لا تنقطع بين الحين والآخر، حنونة مدرارة، لا أبخل بها حتّى على من ظلمني، بالمختصر، قلبي عالمٌ متدفّق بالحبّ للعالم أجمع، يُعانق كلّ حزين، يحتوي كلّ مشرّد".

-المذيع: *"بكلّ تأكيد أنّ تغيّر النمط المعيشيّ ما بين بلدكِ وإيطاليا كبير، ما الآثار المنعكسة عليك؟"*.

-هالة: "أحبُّ الياسمين، والخيل، أحبُّ الطّبيعة، والقراءة والكتابة. أُكرّر أنّ قلبي لا يعرفُ إلّا الحبّ، عشتُ تزاوج حضارتيْن فيما بين الشّرق والغرب في إيطاليا، فُضولي مُتوثّب بقصد المعرفة؛ جعلني أسعى لأعرف كلّ شيء عنهم، مأكلهم ومشربهم، عاداتهم وتقاليدهم، وطرائق تفكيرهم. من صادقتهم وعرفوني، أحبّوني لدرجة أنّني لمّا سافرت، يبكُون بشكل غير طبيعيّ، إذا جاء الحديث على فراقي لهم مُستقبلًا".

-المذيع: *"من المعروف أنّ الموسيقى بشكلٍ عامٍّ هي لُغة مشتَرَكة فيما بين الشّعوب، ماذا تعني لك؟. كونها أحد فروع الفنّ التي يلتقي عندها، ويجتمع عليها الذوق والتذوّق؟"*.

-هالة: "منذ البداية خاصّة في الصّباح كانت أمّي تفتح جهاز الرّاديو الذي لا يُغادر رفّ المطبخ مكانه الدّائم، وتُجلّله قطعة قماش مُخرّمة

بأشكال الورود المختلفة. أمّي كانت تقوم قبلنا؛ لتجهيز طعام الإفطار قبل ذهابنا للمدارس، ونجلس بحميميّة رائعة نتناول إفطارنا مع والدي المُدرّس في مدرسة بعيدة عن بيتنا؛ يحتاج لركوب سيّارة السّرفيس إليها. نتابع نشرة أخبار الصَّباح، ونكون مطمئنّين بأنَّ الوقت معنا نَحسبُه بالدقيقة. وقبل النشرة بوقت تتلاحق أغنيات فيروز التي تُدغدغ مشاعري، أدندن بها على غير وعي منّي، أثناء دخولي للحمّام وأمام المغسلة والصابون على وجهي، أتأمّله في المرآة أكادُ أنفجر من الضّحك من منظري الكراكوزيِّ.

أثناء دراستي الجامعيّة في كليّة الفنون، احتجتُ لزاوية خاصّة بي كصومعة أنقطع فيها عن مُحيطي في البيت؛ لأمارس فيها الرّسم والتأمُّل، لا بدّ من عطر الموسيقى الرَّقيقة؛ فكانت احتجاجات أمّي المُتواصلة من نقلي للرّاديو من مكانه إلى مرسَمي. إلى أن أهداني بابا آلة تسجيل مُتوسّطة الحجم اشتراها لي في عيد ميلادي العشرين.

تحرّرتُ من غضب أمّي الخائفة من انكسار، أو خراب الرّاديو الذي رافق سِنِي حياة زواجها الأولى. صرتُ في كلّ مرّة تُتاحُ لي فرصة التجوّل في شوارع دمشق، أُعرّج على أكشاك بيع أشرطة الكَاسيت التي انقرضت الآن مع آلات التّسجيل؛ فأشتري ما يروقُ لي منها خاصّة موسيقى الآلات الوتريّة، وفي مرحلة أخرى أحببتُ السِّيمفوني؛ فاقتنيتُ معظمها.

أغرمتني موسيقى الأوبِّرا الإيطاليّة والكلاسيكيّة من مختلف مناطق البلاد. ومجموعة من الموسيقى الشعبيّة المُستمدّة من المصادر المحليّة والمُستوردة. تؤصّل للهويّة الوطنيّة التراثيّة، لأنني بطبعي أميل حبًّا للقديم التُّراثيِّ من الأشياء بشكل عامٍّ.

-المذيع: *"بعدما عرفنا الكثير عنكِ من خلال هذه التقدمة، سؤالي الأهمّ، ما هي نظرتك كفنّانة مهاجرة لما يحصل هناك في بلدك سوريّة؟"*.

– هالة: "لم أتمالك دموعي، غالبَتني، أفلتَت من سيطرتي أثناء رواية هذه الصفحات من حياتي، عايشتُ الثورة منذ أوّل لحظة لها، كانت حلمي منذ أن كنتُ في الصفّ السّابع، وحلم أبي رحمه الله، وأتذكّر أحداث حماة، والرّعب الذي عشناه في دمشق. الثّورة غيّرت مساقات حياتي اللّاحقة، وانتزعت منّي الكَسَل واللّامبالاة بتعرية الخوف القابع في داخلي منذ طفولتي.

كنتُ أعرف الكثير من الثوّار على الأرض، أتابعهم في كلّ معركة، يُرسلون لي المعلومات، وأنا أنشرها لهم على المواقع، كوني بعيدة عن أيدي أوباش النّظام.

أهيبُ بالعالم الحُرِّ أن يقف مناصِرًا لقضيّتنا ضد الظُّلم والاعتقال والقتل، وقمع للمظاهرات السلميَّة بأقسى وسائل العُنف بلا رحمة".

-المذيع: *"الانتقال من رومانسيّات الأعمال الفنيّة، إلى المجال الإعلاميّ بأحداثه وضجيجه على مدار السّاعة، ما الأثر الذي تركه على حياتك؟"*.

- هالة: "فما دام دمي عاجزًا عن النُّطق لأسباب كثيرة؛ فلا أقلّ من أنّني أمتلك ناصية الكتابة للنَّاطقين باسم دمي. جاء عصر الدّموع، حينما علمتُ بخبر اعتقال أخي الأصغر على أحد الحواجز؛ فكانت الدُّموع اعترافات صريحة صادرة من الأعماق الخفيّة. تأتي صامتة، وقد قطعَت بطاقة مغادرة لساحات الضجيج.

إعلانات واضحة للوائح الأحزان، معالمها مقروءة على صفحة وجهي، لا تخفى ملامحها الجليّة، مدفوعة الأجر من قلبي، هي تعابير لمعاني متدفّقة حُزنًا، تبًّا للكلام عندما تضيع أسبابه من فمي، ولم يعُد يجري على لساني؛ فكانت الدُّموع بُخار الأرواح النّائمة، تتكثّف كلّما غادرت مَحْجَرَيْ عينيّ.

أعتقد أنّها نعمة منّ الله بها عليّ، هي الشيء الوحيد الذي لا أستطيع التحكّم به، أو منعه، فهي تكشف أسراري وخفايا نفسي".

-المذيع: *"يُقال: بأنَّ الدُّموع تغسل وجع القلوب، فما رأيك؟"*.

- هالة: "كتبتُ يومًا: اغفروا لي، إنّه شجن الرّوح، الدّمع يتدفّق بعفويّته، ربّما في بعض البوْح راحة، وحشة اللّيالي قاتلة، ما الذي

يجذبني إليك أيّها القمر؟ ويخرجني عن طوْري وسكوني. أحاول نكران تلك الصخور، والنتوءات، وهي تناطحني تبًّا لها، لتمحو من ذاكرتي نظراته وابتساماته. نشرة الدّموع رافقتني على مدار السّاعة، كما النشرة الجويّة مترافقة مع نشرات الأخبار، على وقعها أشعر بقشعريرة تسري في أعصابي من أخمص قدمَيّ إلى مفرق شَعْري".

-المذيع: *"عندما سمعتِ بخبر اعتقال أخيك، كيف كان وقعه عليك؟"*.

-هالة: "منذ أن توقّفت عجلات باص السَّرفيس الذي كان يملكه أخي على أحد الحواجز، توقّفت عجلة الزّمن في عقلي. يومذاك كنتُ مُتنقّلة على مدار أسبوع بين بيتي، والمستشفى في مدينة روما، والتحضير لمعرضي الأوّل الذي انتظرته طويلًا، لتحقيق ذاتي الفنيّة من خلاله. على وقع آلام سارة ابنتي المريضة من حُمّى أصابتها قبل ذلك بأيّام قليلة، وتعبها أتعبني أيضًا، انغلقت آفاق الدّنيا ورحابتها في وجهي، والحيرة قتلت كلَّ تفكير عندي للخروج من مأزقي، دمعتي لم تجفّ حتَّى بعد خروج سارة من المشفى وتعافيها، حُزني الأكبر على أمّي وحالتها الصحيّة، وارتفاع السّكري والضغط عندها، ومعاناتها منذ سنوات طويلة قبل مجيئي إلى هنا.

صدمة الخبر أوصلتني إلى القبر، في اللّحظة الأخيرة تغلّبني شقاء الدُّنيا، سدّ كلّ الدروب الموصلة للقبر، وكُتِبَت لي صفحة جديدة في سجلّ حياتي؛ فكانت ابتسامة ومواساة ابنتي سارّة لي، القادمة إلى عالمي لتؤنسني، وتجلس فترة النّقاهة معي، فلا تذهب لمدرستها، فأيقظت فيّ الحوّاس من جديد، لحظة شرودي في اللّاشيء، صحوتُ بعدها، لأجدني على حافّة تغيير غير متوّقع".

أعلن المذيع عن فاصل إعلانيٍّ.

❖❖❖

رحّب المذيع من جديد بالمشاهدين الكرام؛ بعد زوال شارة البرنامج، وقال:

-"*نعود إليكم من جديد لمتابعة الحديث مع الفنّانة التشكيلية هالة نجم الدّين، واسمحوا لي بسؤالها عن حياتها في مدينة روما؟*".

-هالة: "أجراس كنائس الفاتيكان التي أسكن على مقربة منها، توقظ فيّ مَوَاتَ الوقت، صداها بطاقة حمراء تُرفَع في وجهي في الثّامنة صباحًا، والثّامنة مساءً في سائر الأيّام، عدا يوم الأحد يستمرّ رنينها خاصة فترة الصلاة صباحًا.

ساحة القدّيس بطرس مليئة بالحمام، وكأنّني به يحمل رسائل العاشقين. البرندة عندي محطّة للحمام. يحطّ عليها بشكل دائم. ينشر

هديله بسريالية غامضة، وكأنّه مبعوث إلهيّ لمداعبة روحي الهائمة في عوالم رومانسيَّة، تتأجَّج العواطف في قلبي عندما يخبو أُوارُها، جاذبيّة عجيبة يؤسفني مغادرتها إلى بلاد العُرب، تهفو عصافير روحي أن تأوي إليها، تتجدّد في عقلي جدليّة حضارة صاخبة متجذّرة في أعماق التّاريخ، وحضارة اسمنتيّة اغتصبت كثبان الرّمال، ومَحَت دروب قوافل الإبل، وخنقت النّخيل في موطنه الأصليّ.

هنا تناسق حضارة الرومان، وما خلّفته من آثار شاهدة على عظمتها، عدا خلاف منطقة الفاتيكان، والكنائس التّابعة لها، ابتدأت رحلتي مع روما منذ اللّحظة الأولى التي وطئت فيها قدماي أرضها قبل خمسة عشر عامًا".

-لمذيع: *"هل كتبتِ شيئًا أدبيًّا عن هذه المدينة العريقة، وماذا تقولين؟"*.

– هالة: "مدينة منسوجة من عروق العشق، عابقة بالرومانسيّة، كلّ ما فيها غريبٌ مسافر، والطّيور فيها تسافر، أحلامي تتعلّق بها؛ فتأخذها معها مرَّتيْن من كلِّ سنة مع نهاية كلّ صيف وربيع، كتقلُّبه ما بين المتوسّط وجنوب المحيط.

جنون اللّذة مُعَشعِش فِيّ كَمَسٍّ أصاب قلبي، وراح يتضوّر في جحيم القُبَل، وأنا أراقب الحمام يوميًّا بتلذُّذ، وموسيقى هديله تدغدغ روحي، وما يحطّ على الأشجار المقابلة لبرندة بيتي من الطيور المهاجرة.

انتظارها يؤرّقني إذا ما نسيت موعدها السنويّ، تجتاحني حالة استغراق تسرقني من وحدتي القاتلة، وأنا أتقلّب على جمر الانتظار. تآخٍ فيما بيننا، كلانا مهاجر، قلبي مرتحِلٌ طلبًا للشّام وياسمينه، وهي مرتحلة فيه".

-المذيع: *"الاغتراب والحنين صنوان لا يفترقان، ما رأيك بهما؟"*.

-هالة: "في حالات الضّيق كثيرًا ما يحنّ المرء للعودة إلى الجذور، ولكن هيهات لمثلي أن يعود، ارتباطات الحياة وابنتي سارّة ودراستها وعمل زوجي، كلّها موانع شديدة.

قبل سنوات وددتُ لو أنَّ أمّي وأخواتي حولي في هذه المحنة، كانت لي أمنية واحدة، وأنا أكابد متاعب المخاض عند مجيء سارة، أن أجلو قلبي بمسحة وضيئة من وجه أمّي، ولو لمرّة واحدة، وبعدها فليأخذوني إلى مثواي الأخير وما أنا آسفة على شيء أبدًا .

في صباحاتي المتكررّة فإنّ فنجان القهوة رفيقي الدّائم، أنغام فيروزيّة تتناوب بخفّة، ورشاقة على الصّالة الوسيعة في البيت، زقزقة الكنار، حبيس القفص جانب الشبّاك، تغازل الموسيقى المنطلقة بهدوء من راديو أحتفظ به، منذ زمان ما قبل الفضائيّات، لمتابعة الإذاعات العربية؛ للخروج من مأزق الفراغ القاتل في بلاد الرّطانة".

-المذيع: *"وماذا لو قُرعَت أجراس العودة قلبك الآن؟"*.

-هالة: "فيروز تشدو بأجراس العودة هذه اللّحظة تتعانق مع رنين الأجراس في صباح انقشع فيه السّديم عن ارتياح داخليّ لن يدوم طويلًا: (الآن .. الآن، وليس غدًا، أجراس العودة فلتُقرع، سيفٌ فليُشهر في الدنيا، و لتصدع أبوابٌ، تصدع. الآن.. الآن، أجراس العودة فلتُقرع). غامت النظرات في عينيّ، تواردت الأفكار من غير ترتيب، جاءتني بقصيدة نزار قبّاني، المناقضة بفكرتها للأغنية: (غنّت فيروز مُغرّدة، وجميع النّاس لها تسمع، الآن.. الآن، أجراس العودة فلتُقرع. من أين العودة فيروز؟، والعودة تحتاج لمدفع، والمدفع يلزمه كفٌّ، والكفّ يحتاج لإصبع، والإصبع ....، في ... الشّعب له مَرتَع، عفوًا فيروز، ومعذرةً: أجراس العودة لن تُقرع، خازوق دُقّ بأسفلنا من شرم الشّيخ إلى سعسع، ومن الجولان، إلى يافا، ومن النّاقورة إلى إزرع، خازوقٌ دُقّ بأسفلنا، خازوقٌ دُقّ ولن يطلع).

سأعترف لكم: بأنّني في حيْرة من أمري، ولا أدري أين سأكون؟، في حدائق التّفاؤل سابحة في دُنيا الأمل مع فيروز، أم جانحة إلى التشاؤم، وجلد الذّات كما نزار المُنكسر على أبواب الهزيمة.

هنا أبدو عاجزة عن فهم المعاني العالقة، في تلافيف دماغ الشّاعر، وأعتقد أنّ كثيرًا من النّاس يعتبرون كلام الشعراء فارغًا، لا يستحقّ الوقت المنصرف للاستماع".

-المذيع: *"يبدو أنّ الفنّ لم يسرقك من ديوان العرب، فما انعكاس ذلك تطبيقًا في حياتك؟"*.

-هالة: "بسؤالك هذا..!!، أنت تُسابقني في قراءة أفكاري. وهذه تُضاف إلى سجلّك المُشرق في حواراتك التي يتابعها مَن هم في دائرة الاهتمام. لكنّي أميل للالتزام بما سمعتُ من كاتب الرواية "فطين" عن الشاعر "أمل دُنقل"، حينما اعتبر قصيدته "أما قلت لكم"، على أنّها نبوءة سبقت زمانه بمسافات فاصلة، وبالمثل جاء رد الشّاعر "نزار" على فيروز بأنّه نبوءة متقدّمة على الحالة الراهنة، فجاءت هوامشه على دفتر النكسة، هي الحاشية المتمرّدة الرّافضة للهزيمة، أمام انسداد الأفُق في عينيْه؛ فصنع توصيفات عميقة الدلالة عن الهزيمة الروحيّة، والنفسيّة للشَّعب العربيِّ الذي خاب أمله؟".

-المذيع: *"يبدو لي أنّ حياتك في البيت تشاركيّة مع أحياء أخرى، فماذا تعني لك الورود على الشُّرفة أو في الصَّالة، في خضّم المُستجدّات الرّاهنة؟"*.

-هالة: "المزهريّة مليئة بالورود على الطربيزة في وسط الصّالة، كلّ يوميْن والثالث هناك من يأتي بها إلى غاية باب البيت، عُرفٌ جرى منذ مجيئي إلى هذه البلاد، الزُّهور ضروريَّة في معظم البيوت. ما عدتُ أتأمّلها كما في السّابق، عندما كانت تثيرُ فيّ تجدّد الحياة، وإخراجي

من رتابة الرّوتين اليوميّ، مع فنجان قهوتي الصباحيّ، فيروز لا تنقطع عن شدوها. تأخذني إلى عوالم نشوة بعيدًا، قبل دخولي في دوّامَة تنظيف البيت وترتيبه المُتكرّر يوميًّا بعد ذهاب سارّة لمدرستها، وزوجي إلى المُستشفى، دَوَامه طويل لا يعود إلا في السَّادسة مساء، مُناوباته تكرّر ثلاث مرّات في كلّ شهر. في يوم الأحد نستغلّ وجوده بيننا للاستمتاع، كثيرًا ما نخرج معًا إلى الأسواق والحدائق والأماكن العامّة".

-المذيع: *"هل تذكرين آخر مرّة زرتِ فيها دمشق، وما أبرز ما علق في ذهنكِ حينها؟"*.

-هالة: "كنتُ أشعر بتفاهة الأشياء من حولي، رغم أنَّ صديقاتي عندما كنتُ أعود إلى دمشق في إجازتنا السنويّة، لا يتمالكن أنفسهنّ، وهنّ يمزحن معي، ويتمنيْن حظًا مثل حظّي بالعيش في أيِّ بلد أوربيٍّ لا على التعيين، فخيالهُنّ واسعٌ في الانطلاق إلى جنّات واسعة فسيحة، في مثل هذه اللّقاءات أسعى بكلّ طاقتي زرع الفرح والسُّرور في نفوسهن، متجنّبة ذكر مساوىء الحياة هناك، واختلاف العادات والتقاليد، والصِّراع الحقيقيِّ بين قيمنا العربيّة والإسلاميّة، والقيم الأوربيّة المختلفة تمامًا في كلّ معطياتها.

وأجمل ما فيها أنّها تُعلي من شأن الإنسان، وحريَّته الشَّخصيَّة للحدّ الأقصى على خلاف بلداننا المتكرّرة لمثل ذلك. رغم هذا فقد بنيْت علاقات اجتماعيّة ممتازة من خلال صديقات إيطاليّات، وألمانيّات، وإسبانيّات مُقيمات في إيطاليا، وعربيّات أيضًا؟".

-المذيع: *"شارف لقاؤنا على نهايته. سؤالي الأخير. الوحدة قاتلة خاصّة في بلاد الغربة، فهل كنتِ تُعانين من الفراغ؟"*.

-هالة: "رغم أن لديّ مهارات ذاتيّة ومُكتسبة لتعبئة الوقت، في بعض الأحيان كانت محاولاتي تبوء بالفشل؛ لتجاوز الفراغ القاتل المُملّ في بعض الأوقات، ولم يُكتَب لها التوفيق.

أحيانًا أعلنُ عجزي مُستسلمة، ولا حيلة بصدّ هجوم الهواجس والأفكار السَّوداويَّة، لدرجة الخوف الذي يستبدّ بي ساعة من الزّمن. تزيغ نظراتي المحدّقة في صورة بحجمها الكبير لأمّي وأبي، وهما في طوْر شبابهما في بداية حياتهما الزوجيّة بالأسود والأبيض، أغفو على الكنبة الجالسة عليها في الصّالة، تمتدّ يدي لفنجان القهوة، أجدهُ باردًا كبرودة سَرَت في أعصابي.

أتحوّل إلى الجدار الآخر المقابل، متأمّلة صورة ملونّة بنفس حجم تلك، أنا وزوجي، أفتح عينيّ على اتّساعهما، أفركُ بيدي بقايا الكسل العالق

على جفنيّ، تثاؤبٌ. ينفرج فمي على اتّساعه، أتمطّى، عودة للحيويّة من جديد إلى أوصالي.

أقفُ، صوت ناعمٌ يتناهي إلى أذني، أمشي إلى البرندة المليئة بأصُص نباتات الزينة الجميلة، مجموعة من الفتيان والفتيات يعبرون أمام بيتنا، قاصدين الميدان الفسيح على بُعد مئتيْ متر من هذه النُّقطة، علامات الفرح والسرور بادية عليهم جميعًا، كان هذا يبهج قلبي ويُذهب عنّي ما ألمّ بي، وأعود للحياة من جديد".

❖❖❖

استيقظت ذكريات نصّار النّائمة من رُقادها الطويل في مستودع النسيان. وانفلت النشاط يدبّ في حناياه مُتوثّبًا مُجدّدًا منافسًا لتجاعيد الواقع المُستبدّ في نفسه. الدّهشة جعلته يفتح عينيْه وفمه على اتّساعهما، حالة من الذّهول سيطرت:

-"يا إلهي إنّها حمدة ..!!، أمعقول أن يخلق من الشّبه أربعين؟، في حالة حمدة وهالة هذه المرّة جاءتني الصّدمة قويّة لم أستطع الصّمود أمام هيجانها الذي حرّك رواسب من عمري عفا عليها الزّمن مُتباعدًا بنا مسافات لا يمكن اللّقاء ثانية؛ فكان الفراق الذي لاعودة فيه إلينا. صرنا نُشكّل (أنا وحمدة وهالة) أقطاب مثلث حادّ الزّاوية، ما بين إيطاليا والسعوديَّة وسوريَّة".

نظرتُ إلى صديقي فاضل السّلمان المُنسجم مع ذاته بانطباق مع شاشة التلفزيون وهو يتابع مقابلة هالة نجم الدين، وكلّ كلمة تصدر عنها باهتمام بالغ. عصفٌ ذهنيٌّ أخذني من هنا إلى هناك، عندما كنتُ أنتظر حمدة ابنة عمّتي بزيارتها إلى بيتنا لمقابلة أختي، أقابلها لا حرج كوني أصغر منهما الاثنتين.

لم أستطع الكلام مع صديقي المتسمّر كالصّنم. حاولت متابعتها لكن صورة حمدة شغلتني عنها، استعدتُ كلّ نبرة من صوتها الحنون، وكلّ لفتة لي من عينيها اللّتين أعشقُهما حدّ العبادة.

رغم جمال زوجتي البّاهر، لكنّه لم يستطع التغطية على حُبي الأوّل السّلبيِّ من طرف واحد. إلى هذه السّاعة وبعد هذه السّنوات الطّوال من زواجنا ما زالت عينا حمدة هنّ الأجمل، وإن كنتُ لا أصرّح بذلك أمام زوجتي أو أيّ مخلوق في الدّنيا احترامًا لحياتنا الزّوجيّة.

ما زالت كلمات حمدة يتردّد صداها في أذنيّ، وتلامس شِغاف قلبي، في آخر زيارة لها إلى بيتنا قبل خطبتها بأسبوع، ومن زواجها بعد ذلك بفترة بسيطة لا تتعدّى الشّهر حسبما أذكر، وهي تحمل أخي نادر – رحمه اللّه – على صدرها، وتضمّه بشدّة وتُقبّله بحرارة كنتُ أتمنّى لو أنّي أنا بدلًا عنه:

-"ابن عمّتي نادر، أشعرُ أنّه الأقرب إلى نفسي نسبًا، وأمومة، وعيتُ من خلاله على أمومتي مُبكّرًا، كنتُ أعتني به بعد عودتي من المدرسة

قبل انتقالنا إلى بيتنا الجديد، ولا أجدُ غضاضة في تبديل الفوطة له بين الحين والآخر، أثناء انشغال عمّتي في أعمال البيت، أو خروجها لمناسبة. تذكّرتُ الآن، وقلّما تنتعش الذّاكرة، في طفولتي كنتُ أجلسُ اللّيل كلّه أتأمّل وأسترجع قسمات وجهه، وكان سؤالي المتكرّر لأمّي عن سرّ بسمته، وهو ينظر إليّ، وهل كان فعلًا لا ينظرُ إلّا إليّ أنا وحدي؟. كانت إجابتها مؤلمة، ولم أصدّقها أبدًا، حتّى بعدما كبُرتُ، لا زلتُ أرى تلك العيون، وتلك البسمة فيهما، إنّهما يتمثّلان كلّ لحظة فيّ".

بلا استئذان وعلى غير موعد انقطع التيّار الكهربائيّ قبل إتمام المقابلة، لم نستطع إكمال المقابلة التي انتظرناها بفارغ الصّبر، رغم أنّنا نشاهد الإعادة الثانية، في المرّة الأولى قبل يومين انقطعت الكهرباء في مناطق كثيرة وقت بثّ الحلقة، وما عسانا نفعل أمام هذه المُستجدّات من انقطاع الكهرباء المتكرّر وهو ما افتقدناه طيلة سنوات مضت، وفي أحلك الظروف الشتويّة والرَّعد والعواصف الهوائيّة الباردة والثلجيّة، أمّا انقطاع الماء لثلاثة أسابيع أصبح أمرًا عاديًا، وربّما يمتدُّ في بعض الأحيان إلى شهر كامل.

تأفّف فاضل بانزعاج ظاهر، وقال: "كأنّ قطع الكهرباء جاء عمدًا من المتنفذين في النظام لقطع الطريق على النّاس من مشاهدة هذه الحلقة حينما علموا أنّها مع فنّانة سوريّة ومناصرة للحراك السلميّ المناهض لهم، المنادي بإسقاط النّظام".

-نصّار: "أيُعقَل أن يكون هذا سببًا كافيًا لأن يقطعوا الكهرباء؟".

-فاضل: "وهل من سبب كافٍ ومُبرّر في هذا التوقيت بالذّات؟، يا رجل لم يتركوا المذيع أن يكمل سؤاله، فطنوا بسرعة..!!، أو أنّها اتّصالات من المُخبرين السّفلة أعلمَتهُم، وعلى الفور أصدر الأمن أوامره لموظفي محطّات الكهرباء".

– نصّار: "الحرب الإعلاميّة هي الأقوى الآن، من يمتلك الإعلام هو الأقوى، لأنّه يُقولب أدمغة الشّعب، ويغسلها، ويُضلّلها، ويحرفها عن رؤيتها الحقيقيّة. ولا يقلّ أهميّة عن السّلاح الفتّاك، أما سمعتَ عن إنشاء الجيش الإلكترونيّ؛ لمتابعة المواقع الإلكترونيّة، ومحاولة اختراق (الإيميلات) والحسابات الشخصيّة على (الفيس بوك وتويتر)، شباب من المؤيدين والشبّيحة تطوّعوا بهذا العمل خدمة للنِّظام، وهم لا يقلّوا أهميّة عمّن يحمل السّلاح للتشبيح به".

-فاضل: "هذا شيء طبيعيّ في مثل ما نحن فيه، اختلاط الحابل بالنّابل، لكنّ الأهمّ؛ أن نعرف موعد الإعادة القادم لنتابع المقابلة، وهل تظنّ أنّهم سيفطنون لذلك يا نصّار؟".

-نصّار: "بالتأكيد إذا لم يفطنوا لمثل هذه الجزئيّة، فهل ترى أنّهم قادرون على الإمساك بمفاصل البلد؟، لا تبتئس سيفطنون.. وهم متيقّظون أكثر مما تتخيّل، لأنّها حرب وجود، إمّا أن يكونوا أو لا يكونوا".

-فاضل: هل تظنّ أنَّ القطع للكهرباء كان عامًا عن محافظة درعا بأكملها؟.

- نصار: "نعم صديقي، وقسمًا بعينيّ حمدة أنّ ذلك حدث".

-فاضل: "وما دخل عينيّ حمدة في مثل هذا الموضوع. وهذا الوقت العصيب؟".

"نصّار أيقنتُ صديقي فاضل لم ينتبه للشّبه الكبير الذي جاء حدّ التّطابق بين وجه هالة وحمدة، أكادُ أجزم أن يكون مئة بالمئة، ولولا علمي بمكان حمدة البعيد عن مكان هالة، لقلتُ أنّها هي.. هي، لا يمكن أن تكون غير حمدة. بصوت عالٍ هزّ ظلام الغرفة. عندما انتهى نصّار من حديث داخليّ،تابع:

- "لا عليك يا صديقي..!!".

فاضل ينتفض جسمه مما سمع، وجلس بعد أن كان مُتّكئًا؛ ليشعل الشّمعة الواقفة على طرف طاولة التلفزيون، راحت شُعلتها ترتجفُ كأنّما خلعت ملابسها للتوّ، وقال:

-"أما زلت على ضلالك القديم يا نصّار.. أنت فين والحبّ فين..!؟".

❖❖❖

(٦)

"أستاذ فطين أسعدُ باللّقاء معك من جديد بعد غياب عنك لأكثر من سنة، وها نحن نعود من جديد لمشاهدينا الأعزاء، أُحيّيكم بأجمل تحية. ورحّبوا معي بالقاصّ والروائيّ الأديب فطين".

-: "أهلا بك عزيزي أستاذ هاني".

-هاني: "على ما أذكر أنّك حدّثتني في نهاية لقائنا الماضي، عن مشروع عملك الروائيّ فوق الأرض".

-: "نعم".

-هاني: "وأخبرتني وقتذاك: أنّك أفسحتَ المجال لأصدقائك أبطال روايتك كتابة ما يشاؤون وعلى طريقتهم، وقرّرتَ الوقوفَ جانبًا تنظرُ إليهم، وهم منهمكون في رسم أدوارهم.

السّؤال الذي يطرح نفسه في هذا الوقت، ما الأمر الذي جعلك تعود كروائيّ أن تكتب خاتمة الرواية".

-: "سؤال وجيه، في الواقع رأيتُ أنّ فراغًا حصل بعدما تشعبّت طُرُق أبطالها، من طبعي أكرهُ الفراغ، ولعلّك تذكر مبدأ آيزنهاور، وما استجرّ علينا من بلاء وويلات؛ مازالت نتائجه تتسحب على حياتنا العربيّة على الأخصّ، أو مثلما يحصل مع جيراننا اللُّبنانيّين من فراغ دُستوريّ في

كرسيّ رئاسة الجمهوريّة؛ سمعتُ من المحطّات الإخباريَّة أنّه بقي شاغرًا لمدّة سنتين أو أكثر، وما نتج من شلل تامّ في الحياة السياسيّة هناك".

-هاني: "يعني الموضوع بالنسبة لك هو كراهة الفراغ فقط؟".

-: "تأثّرتُ جدًّا بحالة أصدقائي الإنسانيّة، وما حصل معهم. بصراحة خوفي من أن تأتي الرواية مبتورة، كما يحدث مع الرَّقابة على المنشورات في كثير من البلدان، عندما يقطعون صفحات بأكملها ومقاطع من بعض الكتب أو المجلّات، من أجل تَابُوهَاتٍ وضعوها من أوهامهم خوفًا من قراءتها، واطّلاع القُرّاء على أشياء استوجب إخفاؤها.

وكي لا تُزعج القارئ الذي اشتراها من المكتبات، بكلّ تأكيد إنّه سيتأسّف على ما دفع فيها من مال إذا كان مؤدّبًا، أمّا إذا كان من الصّنف الآخر؛ فالشّتيمة والسبّ ستلحق بي؛ وسيبقى يطاردني بها، ومن باب (رحم الله امرءًا جَبَّ الغيبةَ عن نفسه)، كما أنّ النُّقّاد المتهيّئون لصيد ثمين، ممكن أن يأخذ بهم نقدهم لها إلى مصّاف الشّهرة؛ ليكونوا في مقدّمة النّسق النقديّ؛ فهم يتشوّقون أن تكون روايتي بين أيديهم مبتورةً، وتأخذ كلمة مبتورة جُلّ عناوينهم التي ستكون".

- هاني: "رائع وجميل".

قبل أن يُكمل تدخّلتُ لأقطع عليه طريق الأسئلة طالبًا منه:

-"أستاذي، لي طلب خاص ربّما لن تُتيحَه لغيري".

ألجمتِ المفاجأة لسان هاني، وغمرت وجهه، بدا ذلك من خلال الشّاشة:

-"تفضّل".

-: "أن تترُكَني أروي لك كامل قصّتهم، لأنّني أُصابُ بالتشتّت وعدم التّركيز من كثرة الأسئلة".

- هاني: "تفضّل لكَ ما طلبت، رغم أنّ ذلك غير وارد أبدًا في برامجنا".

دخلتُ في الموضوع مباشرة:

تاهت الدّروب بتشعُّباتها المُربكة، ضاعت معها الاتجّاهات الأساسيّة، البوصلة لم تنحرف عن مسارها الحقيقيّ بلا اضطرابات، وأصبحت غير قادرة تمامًا عن القيام بمهمّتها الدَّقيقة في التّوجيه.

الانتظار مملٌّ جدًّا، فالدقيقة تعادل ساعة، والسّاعة بيوم، واليوم بسنة.

تآلفتُ مع الحالة فلا حيلة لي بخيار آخر، فلا أستطيعُ تعديل المسار، ولا التقليل من وقع وتفاعلات الوضع في نفسي، بداية كتابة هذا العمل الروائيّ، اجتمعتُ مع بعض الأصدقاء ممن كان لهم دورٌ بارزٌ بكتابة أحداثها بأيديهم، بخطوة غير مسبوقة من أصدقائي الأدباء الذين تعاملتُ وتعرّفت إليهم، ولاعرفتُ عنها شيئًا فيما كتبتُ سابقًا من فوق الأرض، وكان الاتّفاق بيننا على ذلك، فأنا تطوّعتُ للكتابة عن أمّي لأنّها أميّة، لا تعرف حقيقة تاريخ ميلادها، وكانت تخبرُني عنه أنّه حدث سنة الطّوفة، وتحدُّثني عنها بفرح يغمر ملامح وجهها الباسم، وتنفرج أساريرها بفرح طفوليّ، وهي تعود لِسِني طفولتها وشبابها،

وتتحدّث كثيرًا وكثيرًا، كنتُ أصغي إليها باهتمام واضح، أُنصتُ بكلّ جوارحي، وإذا ما شعرت بشُرودي وابتعادي عن خطّ حديثها قيد أُنملة، تلكزُني بطرف يدها، وما زالت تردّد عبارتها الأشهر على الإطلاق: "عينك في عيني يا فطين، خلّيك معي، تراها (العيون غرّافات الكلام)".

أنتبهُ من غفلتي عن متابعتها، وأتُوبُ إلى وَعْيي عائدًا إلى مسار اهتمامها، وكأنّها تُلقّنني درسًا كي لا أنساه أبدًا، حتّى بعد مماتها، فقد حفظتُ عنها كلّ أحاديثها التي ما مَلَلتُ من سماعها لعشرات المرّات، وبعضها جاوزت المئة باستماعي لها، كنتُ في كلّ مرّة أستشعرُ أنّ أمّي تُريد البقاء معي، وأبقى معها على الدَّوام، وبعد مغادرتها للدّار الدنيا، وانتقالها للعالم الآخر".

-: "ها أنا معك يا أمّي، هيّا تابعي حديثكِ الممتع، وإذا أردتِ سأعيدُ عليكِ ما قُلتِ آنِفًا".

في قرارة نفسها تعلمُ كَذِبي، لكنّها كانت مُضطّرة لطمأنَتي بِصِدقي فيما أقول لها.

-: "لا أطلبُ منكَ الإعادة يا فطين، ولكن كي يستريح قلبي ويطمئنّ".

لا تنقصني الفطنة في هزّ رأسي علامة موافقتها، من جديد أفرُكُ عينيّ لأستطيع التركيز معها، والتحديق في عينيها؛ وهما يغترفان من ماضي

حياتها، إلى أن تأتي اللّحظةُ الحاسمةُ في النهاية غير السّعيدة، والدُّموع تَتَرقرقُ في عينيْها باسوداد الكُحلة الدّائمة منذ وعيتُها طفلًا إلى لحظتي الأخيرة هذه.

❖❖❖

لكلّ شيء نهاية، وأنا على يقين أنَّ الحقائق لاجدال ولامِرَاء فيها، يقع الأمر على الفرضيّات والنظريّات؛ لأنّ مرتبتها دون ذلك بكثير. مجالها يتّسع للأخذ والردّ، والتَّصحيح والتَّخطيء.

مرض أمّي الأخير، جعلني على قناعة تامّة لا نقاش فيها، أنّ الموت ابتدأ بوصول أمّي إلى حالة اللّارجوع إلى بِسَاط الصحّة؛ لأراها مُتوّجة بالتّاج الذي تَغَنّيْنا به طويلًا، نفترضُه على رؤوس الأصحّاء فقط.

لا أدري ما الذي حدا بي لاستحضار هذه الكلمات من بداية الرواية، بعد مُراجعاتٍ مُطوّلة، وقعتُ على النُّقطة الرئيسيَّة، وهي موتُ أمّي في مرضها على قِصَر فترته، أعادني له بعد فترة ذُهولي عند مجيء الخبر عبر الهاتف.

أخيرًا اختلطتِ الأوراق أسوَدها بأبيضِها، الطريق انمحت حوّافها، ومعالمها ضاعت. انفلتتِ الفوضى من عقالها. شوَشُ الرؤية حيّر المُراقِب من بعيد أو من قريب، تدفّقت أموال سوداء تكدّست في الجيوب. نامت الذِّمَمُ والضمائرُ عن مصائرها.

أيدٍ قذرة مُلوّثة لا تكترثُ كثيرًا بمصائب النّاس ولا تعتبر، بل نصبَت منها حِبالًا (للسِّيرك) تتأرجَحُ عليها، ترقصُ على وقع الأنين، تدوسُ الدِّماء؛ ولا يرفّ جفنٌ لها من رأفة أو رحمة لقلوب الأمّهات الثّكالى والأرامل واليتامى.

(دمعاتُها في ذلك اليوم، كانت حربًا مفتوحة على القتلة باسم الوطن، اسْتَدرّت السَّماء بفيْضٍ جارفٍ من الدّموع. اغتسل بها شارع بُصرى الرئيسيّ، فيما بين بُوابتيْها النبطيّة شرقًا، والهوى غربًا، وما بين الشرق والغرب تكمنُ مُعجزَتُها).

على ناصية قبرها المُفترضة في ذهني. وقفتُ أخاطبها:

-"يا أمّي ماذا ستفعلين، لو أنّكِ أدركتِ ما آلت إليه الأمور؟".

وهل ستغيّرين رأيكِ، وتتكسر عزيمتكِ أمام هول الصّدمة؟.

ضائع أنا في لُجّة الحدث، كلمّا تذّكرتُ مقولتكِ شدّت عزيمتي بتوثّبٍ منقطع النّظير، وتمادت عيناي في فسحة واسعة من صُمودي الأسطوريّ الزّاهي بصلابته المقاوِمَة، صدى نبراتُ صوتكِ ما زالت ماثلة في وعيي، يرنّ صداها في أذُنيّ:

(دموعي غير قابلة للدّخول في مزادات المتسلّقين على الواجهات الإعلاميّة، حين صُنِع منهم نُجومًا مُلمّعة، على أن تكون واجهة الثورة، وبديلة عنها، وقيادة للمعارضة في وجه النّظام، وأرفضُ التّفاوض عليها، وستبقى لعنةً للتّاريخ.

دمُ "محمّد" ما زال نديًّا في قلبي، والتُّراب الذي ارتوى منه أعشَبَ، لو كان لي ألف "محمّد" في مثل حالة الأمّهات الفلسطينيّات، لجعلتهم كلّهم فداء. هؤلاء الأمّهات هنّ مثلي الأعلى).

أحمدُ اللّه على أنّه اختاركِ لجواره؛ قبل أن ترى عيناك دوّامةً اختلط فيها الحابل مع النّابل، الأيادي تلبسُ قُفّازاتٍ بيضاء لتخفي سوادها، وتتحرّك وفق إشارات صادرة من يد (المايسترو)، القابع خلف السّتارة يدير الأمور ولا يظهر على خشبة المسرح، بإشارة منه يُعيد تشكيل وترتيب الأمور حسب رُؤيته.

هاهم يتصافحون على مرآى من العالم..، شيء مُذهل أعداء الأمس أصدقاء اليوم. لم أستطع أن أجد الحلّ لهذه المعادلة الصعبة، كيف جرى ذلك؟.

وما الذي حدث لمقاوم يمتلك أدواته وعتاده، وفي اللحظة الحاسمة يتوقّف رافِعًا بين يديْه، وفوق رأسه المحنيّ ذُلًّا تُرفرف راية بيضاء؟.

يا أمّي بعدك أعتمتِ الدّنيا في قلبي، وانطفأ سِراجُك بعد ثمانين حوْلًا من المشاقّ، الدّار تبكيكِ، وكلّ ما فيها يحكيكِ، وأستذكر شيئًا في ذهني عندما هاجرتِ، وتركتِ كلّ شيء نجاة بروحك:

-"عطشت وُرودُ أمّي، عندما فقدتِ اليدَ الحانية. التي تُغدق الماء على الأُصُصِ صُبحًا وعشيًّا في كلّ يوم، يذبُل قلبها عندما ترى وُرَيْقاتِ نباتاتِها مُطأطِئَةً هاماتها، وتيجان الزّهور تنحني متأوّهة؛ من أثر الشّمس

الحارقة في حرِّ الهجيرة؛ الأُصُصُ حزينة على فراق أمّي لها؛ فجفّت تربتها، واحترقتِ الحياة في أنساغ نباتاتها". ما لذّة الحياة بلا هدف؟.

وهل من يعيشها منقوصة الأركان، يُكمِل مشوارها في هدأة بالٍ وصفاء ذهن؟.

لعلّ ندائي يوم هاجرتِ لم يجد أذُنًا صاغيةً حينها، واليوم في زحمة تَشَابُكات المصالح، واختلاط مُريع خافض لمؤشّر القيَم الأخلاقيّة والإنسانيّة، والقبض بالعُملة الصّعبة من تحت الطّاولة، وانتفاخ دفاتر الحسابات في بنوك الخارج:

"أيّها المُتَبتّل في محراب الحريّة.

أوصيك:أن تعتني بمكحلة أمّي، ولا تهملها.

أجزم: أن فيها كلّ الأسرار، والحكايات".

على خُطى أمّي وبرًّا بيمينها الذي أقسمته على نفسها، فإنّي سأتجنّب الأيدي المُلوّثة وهي تتصافح تصالُحًا، ومن هنا جاء تعبير المُصالحات، تمهيدًا إلى طاولة مستديرة، وفي الختام مائدة (البوفيه) المفتوح تحتوي أطايب الأطعمة. وبعده السّهر لوقت الفجر في (بار) الفندق الذي جرى فيه كلّ شيء، تُدار فيه الكؤوس، وتتمايل الرؤوس أينما يميل الخصر الأهيف.

وتُكلّل هذه الاجتماعات والمفاوضات ببيان ختاميٍّ يُوقّعون عليه، والمؤتمر الصحافي في أحد القاعات. وتشتغل ماكينة القنوات الإخباريّة، وتنطلق التحليلات السياسيّة موضة الفضائيّات.

فماذا كسب من صالح؟.

وماذا خسِر من لم يُصالح؟.

ويل قلبي عليك يا كُليب..!!، وأنت المغدور على يد جسّاس، أنفاسُكَ الأخيرة المتأوّهة على لحن جنائزيّ تصطرع برقصتها الأخيرة، كتبتَ وصيتكَ بدمكَ لأخيك سالم: "سالم لا تُصالح".

دمُكَ سال في نفق مُظلم.. أشعل حرب الأربعين عامًا، إنّها البَسُوسُ. ما بال الأيدي الملطّخة بالدم، وقد صافحها عدوّها مُغضِياً عينيْه عن الدم الذي يبرُق بين الأصابع التي تصافحه.

مُتخيّلًا صورة الرّجل الذي لا يستطيع النَّظر في عينيّ زوجته، لأنّها فقدت ثقتها في قُدرته على حمايتها.

يدُ العار مرسومة (بأصابعها الخمسِ) فوق جبهة الأمير المستسلم. جسّاس الغادر مُختبئ بين الأغصان قبل أن يطعن ابن عمِّه، وكليبٌ يتحامل على ساعديْه مُتلفّتاً؛ ليرى نظرة التشفّي في عينيّ الغادر. وما زالت طُبول الحرب تقرعُها الحوادث الصَّارخة، في تقريع كلّ من تُسوّل له نفسه القَبول بالصُّلح المَهين قَرينِ الاستسلام.

❖❖❖

الرّجال بمواقفهم. المواقف مقياس الرّجولة، والذّكر الحسن يدوم ولا ينقطع، ويرسخ في الذّاكرة الجمعيّة للمجتمعات؛ ولا تنمحي بتعاقب الزّمان عليها، وإن طال..!!، تتناقلها الأجيال على أنّها مكارم أخلاق للاقتداء بها، أو لبطولة وشجاعة؛ ليتمثّلها الشّباب الواعد والسير على أثر خطاهم، ولا مناص أن تكون منارة يُهتدى بها يحثّ عليها أهل العلم والفكر.

ومن يدري أن ما كَتَبته يداه على قطعة ورق طواها في جيبه، ستحكي عنه بعد موته؟، وتثير التساؤلات الكثيرة، وإشكاليّاتها الجُزئيّة الغامضة، ربّما تكشف جانبًا، وتختفي جوانب أخرى في الأصل لم تكن هذه القطعة الورقيّة خُصّصت لذلك.

معن الطّامح لأن يرى زوال الدكتاتوريّة والظلم، واحترام حُقوق الإنسان، وصولًا إلى دولة القانون، لم يخالجه أدنى شكّ أنّ حياته مُهدّدة على مدار السّاعة، فلا استقرار له في مكان واحد لفترة طويلة، تنقّل وارتحال دائم، تنكّر واختفاء عن الأعين الواشية، مع كلّ هذا..!!، كان دائم التوثّب لصناعة المستقبل الأمثل، والأفضل للأجيال القادمة. ما دَرى أنّ الأقدار تخطّ المصائر بيدها، وقلمها في غفلة عن أعيُن ووعي البشر.

انْتَخَبَ كتاب (مُذكّرات الأرقش) من بين عشرات الكتب المُرتّبة على أرفُف مكتبة صديقه فاضل أثناء زيارته التي كانت الأولى والأخيرة،

وكان يحتفظ به في حقيبة أوراق سيّارته على الدّوام، يستخرجُه كلّما سنحت له فرصة، أو وجد عنده فراغًا لقراءة ولو صفحة واحدة.

توقّف طويلًا أمام عبارات تستحقُّ التأمّل. القراءة المتأنّية تحفِرُ بنتائجها مسارب العقل العميقة، وتلامس شِغاف القلب. كتبَ بعض المقتطفات:

❖(لقد لمحتُ وجهكِ أيّتها الحريّة فعميتُ، وشممتُ طيبكِ فسكرتُ، ووجهكِ من نورٍ تَرتَدُّ عنه كَلِيلةً النّهار، وطيبكِ من مسكِ ما تَعطّر بمثله قلب اللّيل.

ومن لَكَحَ وجهكِ مرّةً واحدة؛ حجب وجهه عن كلّ وجه آخر، ومن تعطّر بطيبِك مرّةً واحدة سدّ أنفه دون كلّ طُيوبِ الدُّنيا، خُذي بيد الأرقش، أيّتها الحريّة، وانتشليه من قبضة اللّيل والنهار).

❖(أين سهامكم؟. أين بارودكم؟. أين رصاصكم؟. قُمْ يا أرقش، قُمْ، ولا تهولنّك كثرَةُ الجيوش، قُمْ واصرخ بهم: هاتوا سهامكم وبارودكم ورصاصكم. إنّي ضبابٌ تدرّع بالضباب. فإن استطعتم أن تصرعوا الضباب بسهامكم وبارودكم ورصاصكم ربحتم المعركة. وإلّا فالنَّصر لي، ولكم الخيبة والهزيمة).

لم أُتعِب نفسي تفتيشًا عن سبب اختيار معن لهاتيْن العبارتيْن. فيهما ما يعبّر بدقّة عمّا يجيش في نفسه، وما تعكسه تجاعيد واقع لا يرحم، يجلد بلا رحمة، يُقطّع أوصال الوطن، وقلوب مُواطنيه.

طفلٌ في العاشرة من عمُره برفقة أمّه إلى السّوق لشراء حاجيّات للبيت، انحرف بمساره إلى جانب عمود كهرباء على الرّصيف تاركًا أمّه، وقد ابتعدت عنه مسافة؛ انحنى ليلتقط ورقة صغيرة على قفاها نُقَط دمٍ لفتت انتباهه.

تلفتّت أمّه تُناديه، وتحثّه على الإسراع كي لا يتخلّف عنها. الوقت يمضي راحلًا بسرعة لايمكن أن ينتظر أحدًا. الفترة محدودة سمحُوا للنساء في الخروج لشراء الخبز والموادّ الغذائيّة.

منعُ التجوّل على مدار اليوم، سوى من العاشرة صباحًا إلى الثّانية بعد الظّهر. بعدها شوارع المدينة كانت خاليةً تمامًا من العابرين. استمرّ هذا الأمر الطارئ على مدار أسبوعيْن. خوفٌ وترقّبٌ خاصّة بعد مَغيب شمس كلّ يوم.

- الأمّ تسأل ابنها: "ماذا وجدت؟".

- الابن: "ورقة مطويّة، عليها نُقاط دمٍ".

لا تفتأ الأم تسأله عن محتوياتها، والدّموع تنهمر مدرارة على ذاك اليوم الذي حمل خبر استشهاد معن، ومن شدّة اهتمامها سألت وقتها عن المكان بدقّة تامّة، تأكدّت أنّ الورقة ربّما تعود له، وسقطت من جيبه؛ أثناء سحب جثّته من على الرّصيف، بعدما أجهز عليه ضابط مخابرات لئيم أشهَرَ مُسدّسه؛ وأفرغِ رصاصاته الحاقدة في رأسه وصدره انتقامًا،

رغم أنّه شاهدَ الدمّ ينزف من جُرحِه الذي أحدثته رصاصة القنّاص أثناء المظاهرة أرْدَتْهُ أرضًا.

كان انفضاض المتظاهرين القسريّ؛ بسبب هجوم قوّات الأمن من كافّة المحاور مُترافِق مع إطلاق نار كثيف.

رمزيّة قطعة الورق هذه برأيي تُعادل نظّارة. طفل صغير عيناه مُركّزتان على النظّارة؛ عندما سقطت من يد عمرالمختار أثناء اقتياده إلى حبل المشنقة، يفلتُ من يد أمّه المنغمسة في حالة بكاء على شيخ المجاهدين ومعاينتها لوجههِ الملائكيّ؛ عندما صعدت روحه إلى بارئها.

طفلها شغلته النظّارة سعى بكلّ ما أوتي من قوّة مُخترقًا صفوف الحشود؛ ليلتقط النظّارة التي أغرته كثيرًا بمنظرها، وانعكاس الضوء عن عدستيْها، عندما كان يجلس تلميذًا قبل ذلك في الكُتّاب أمام شيخه عمرالمختار؛ لتلاوة وحفظ القرآن الكريم.

أمسك النظّارة بيده، وقفل راجعًا راكضًا، وكأن ذُعرًا أصابه خوفًا على غنيمته، أو من أحد يعترضه ليأخذها من يده. الجميع مشدودون للمشنقة وحبلها، يرقبون بدقّة أنفاس شيخهم الجليل الطّاهرة، وهي ترتقي نفَسًا يتلوه آخر. أرواحهم كادت أن تخرج مع آخر نَفَس لفَظَه. الدُّموع والحزن ممزوجة بالتكبيرات الصّادرة من ألسنتهم، والطّفل مشغول في عالم آخر بعيد كُليًّا عن محيطه.

المواقف تتشابه بظروف مختلفة، ترتبط برباط وثيق في مقاومة الظُّلم أيًّا كان مصدره، فالورقة بَقِيَت على طيّاتها لم يَفُضَّهاالصبيّ، بل أخفاها في جيبه لقراءتها فيما بعد، والنظّارة لم يلبث أن يضعها على وجهه، رغم أنّها بكلّ تأكيد لا تناسب عينيْه لأنّه أساسًا لايحتاج إليها.

انطفأ الضوء. انحسر النّور مُتراجعًا. حلّ الظلام من جديد. موت العظماء رُزْء يحني عظمة الأمم. كنتُ على يقين تامّ أنَّ كلّ هذا فوق الأرض.

استشهاد عمر المختار ١٦\ ٩\ ١٩٣١م – استشهاد معن ١٨\٨\٢٠١١م، إعلان نهاية الثورة.

❖❖❖

للمواقف أصالتها المستوحاة من ثباتها؛ فتُحترم وإن اختلفت معها أو بشأنها، مُتابعة المشوار للنهاية، وإن جاءت فاشلة وغير مُرضيَة، أهوَن ألف مرّة من التراجع من منتصف الطريق، على خلاف فضيلة الرُّجوع إلى الحقّ.

تراكمات كثيرة، مُستجدّات دخلت بسرعة البرق، جعلت من نصّار الشّاب الجامعيّ، ووظيفته المرموقة في أعين مُحيطيه قبل انشقاقه، ينكفئ إلى فُرجة سوداء لم يعلم مدى تناقضاتها العميقة المنفتحة على فضاءات الضّياع، تسير مثل عربة فَقَدَ سائقها السَّيطرة عليها في منحدر زلِق، مؤكّد أنّ قاع الهاوية مُستقّرها بلا مُنازِع.

قساوة الظروف الطارئة تجعل الناس يسعون فقط من أجل البقاء فقط. البقاء يستلزم رغيف الخبز أوّلًا، فقد عزّ الحصول عليه، بينما هناك أيادٍ تُلوّح للأفواه الجائعة، والبطون الخاوية بما يضمن لها الامتلاء، وجذب الولاء مهما كان الثّمن.

(لكلّ جواد كبوة، ولكلّ سيف نبوة)، نصّار انقطعت به أسباب العيش، متطلّبات ومستلزمات أسرته، جعلت يده تمتدّ لمصافحة الأياد السوداء اللّابسة القفّازات البيضاء الأنيقة؛ سعيًا للوصول إلى رغيف الخبز رمز البقاء الأعظم في مثل ظرفه.

الشّعارات المعلنة مقاومة الظلم والإطاحة بالنّظام. البُندقيّة معادية لصوت العقل المخيف لها. لا عقلانيّة أمام أزيز الرّصاص. حُمّى الشّعارات المزخرفة انطلت حيلتها على عقول الكثيرين المُغرّر بهم.

لا أحد يسأل:

- من الذي صمّم هذه الشعارات؟.

-ما الذي يريدونه من وراء ذلك؟.

-لم يسأل أحدٌ نفسه: لمن هذه البندقية التي أحملها، ومن هو صاحبها الحقيقيّ؟.

-لم يسأل أحدٌ نفسه: لمن أنا مُرتَهَنٌ؟.

-مَنْ الجهة التي تصرِفُ عليّ هذا الرّاتب، وتُغدق عليّ ثمن صمودي المُتَوَهّم برصاصات؟.

صوت الرّصاص أصمّ الآذان عن الاستماع لصوت العقل النّاصح، بعيدًا عن العواطف. صوت العقل يذهب إلى كافّة الأبعاد الحاضرة والمُستقبليّة بحيثيّاتها ونتائجها. على نقيض صوت العاطفة التي لا تعير اهتمامًا لأيّ شيء من الممكن أن يُعيق مسيرتها.

بياض نصّار الداخليّ علامة ناصعة، جعلته هاديًا، ومُنظّرًا لمن حوله من الشّباب المتحمّسين، كان يعمل على توعيتهم بقضيّتهم المصيريّة، وتفهيمهم أعباء حمل هذا السّلاح. حُمّى الحرب لم تترك شيئًا على حاله. تغيّرت الأمور مئة وثمانين درجة بعكس ما كان مَرجُوًّا في بداية المظاهرات السِّلميَّة بمطالباتها صعبة المنال بأن تتحقّق، فالنِّظام بشكل فِعْليّ لم يلتفت لها، وهو عاجز عن تلبيتها، كمن يطالب بشرعيّة الكُفر مُباحًا مُتاحًا. والمتظاهرون عصابات إرهابيّة متآمرة لقلبه وإسقاطه حسب ادّعاءاته.

نصّار أصبح قائد فصيل عسكريّ تابع للجيش الحُرّ، بعد تدريبات تلقّاها على أيدي مُدَرّبين مُتخصّصين. ذوي مهارات فائقة. *لا يدري من أين جاؤوا بمثل هذه الخبرات النّادرة؟.*

ولا يدري من يقف وراءهم؟.

الظروف غامضة تستعجل طحن الجميع في دوّامتها. وقفة التأمّل والتقييّم للمسار لم تكن مُتاحة. لُجّة العتمة استحوذت على العقول قبل القلوب. لا مناص من الانجراف في تيّارها، ولا مجال للانسحاب.

أليس من المستغرب، توقّف عقل نصّار عن التساؤل والتقييّم للموقف؟.
تذكّرت مقولة أمّي رحمها الله: (إلّلي إيدُه في النّار مش مثلي إلّلي برّاتها)، و(إلّلي بيُوكِل العُصي مُشْ مِثلي إلّلي يعدّها). المشكلة إذا جاءت الصحوة متأخّرة بعد فوات الأوان، وما فائدة الندم ساعتها بعد فوات الأوان؟.
لو علم حامل البارودة التي كان يُرتجى منها نصر الثورة، أنّها هي التي أصابت الثورة بمقتلها. حينما جاءته هديّة من عوالم الغيب؛ لتبرير بطش النّظام الثّابت على روايته: (العصابات الإرهابيّة والتكفيريّة).
فماذا سيفعل أمام ضميره؛ إذا استيقظ يومًا؛ إذا ما وقف أمام نفسه؟.
وهل من الممكن أن يعتذر مستقبلًا للأجيال القادمة عن حمله للسّلاح، وهل يستطيع إبراء ذمّة التّاريخ؟.

❖❖❖

الحرب ظالمة وإن كانت عادلة. العلاقة جدليّة قائمة فيما بين نقيضين، الحرب ظلمها في دمارها للإنسان والبنيان. فلا ينجو من شرورها لا حجر ولا بشر. دائمًا ما تأتي بإفرازات رهيبة، ومخرجات مُشوّهة قذرة. تنحسر على عتباتها الفضائل ومكارم الأخلاق. تُعيد وتشكّل طرائق العيش والتعاملات بقوالب جديدة لم تكن معهودة قَبلًا.

الحرب انقلاب على كلّ ما سبقها، وتكتب بداية جديدة سعيدة للبعض، وحزينة لآخرين، والمهندس سعيد صديق الشّهيد معن رحمه الله، واحد ممن كَتَبَت له أقلام الحرب بداية مُختلفة لحياة إنسان مُعاق حركيًا، عندما أصابته شظيّة في ظهره؛ نتيجة قصف طائرة مروحيّة لأحد الأماكن السكنيّة ببرميل مُتفجّر، تناثرت شظاياه في جميع الاتّجاهات بمحيط كيلو متر مربّع.

ارتجّت الأرض من تحت أقدامهم ومادت. قوّة الانفجار رمَت بسعيد بين أناس قَضُوا نحبهم على الفور، وجرحى غرقوا في دمائهم المُتعفّرة بالتُّراب والغبار الكثيف المتطاير من المكان الذي كان، ولم يبق له أثر بعد ذلك.

أخيرًا وجد نفسه على سرير مُتواضع في أحد المشافي الميدانيّة ذي إمكانيّات متواضعة، لا ترتقي لأن تكون أكثر من نقطة طبيّة إسعافيّة أوليّة؛ لتضميد نزف جرح، أو ما شابه ذلك. وقلّة خبرة من الشَّباب المتطوّعين.

وبعلاقاته الوطيدة مع شباب الجيش الحرّ، أخرجوه إلى الأردنّ بسيّاراتهم مع الجرحي المُحتاجين لعمليّات جراحيّة دقيقة في المشافي على أيدي أطبّاء أخصائيّين مهرة.

برغم العناية الجيّدة التي تلقّاها على مدار شهرين كامليْن لم يُكتب له الشّفاء التّام، لكنّها خففّت من حدّة إصابته وآلامها المُبرحة،

واستطاعوا إخراج مجموعة من الشظايا الصغيرة من أنحاء مُتفرّقة من جسمه، والأهمّ منها بقيت مُتمترسة في ظهره لاصقة بعموده الفقريّ ضاغطة على الحبل الشّوكي، لم يستطيعوا نزعها؛ فتركوها خوفًا من حدوث مُضاعفات غير محسوبة طبيًّا. نصيحة الأطبّاء أن تبقى مكانها، وعليه أن يرضى بقضاء الله وقدره في العيش مشلول النِّصف الأسفل من جسده. الرّضا جوهر السّعادة المفعمة بالحياة.

الكرسيّ مُتحرّك سيكون رفيقه باقي أيّام حياته، سيعتاد عليه بدفع العجلة بنفسه أو بمساعدة آخرين. بداية تأقلُمٍ جديدة مُتزامنة مع انطلاق قطار الحياة على عجلة الكرسيّ المُتحرّك، لبناء مستقبل أيّامه مع هذا المُستجدّ.

❖❖❖

أظلم الأفق بشكل مفاجئ، موجٌ عاتٍ لا يستسلم أبدًا، لا رادع يستطيع مقاومته أو الاحتماء من هول صدمته. قاربٌ مُتداعٍ. صريره متناغم مع نعيب غربان البحر، متمازج مع أصوات النوارس الهابطة على وجه من الماء بحثًا عن شيء تلتهمه ثمّ تصعد عاموديًّا للأعلى يتابعها فاضل بعينيه المشدودتيْن فزعًا مما يحيط بهم، فكأنّه يستمعُ إلى مُشعوذ يقرأ تعاويذه المغمغمة بصوت نصف رخيم، ونصف نشاز بوقعه السّاخط على الأذن.

يحتضن ابنه ذي الثلاثة أعوام مجد، ويُداري عنه رَذاذ الماء المُتطاير من بقايا الموج المُتكسّر على أعتاب القارب، بينما زوجته تُلقِمُ ثَديَها فَم سامر. سرائر وجهها تحكي عن حالة الخوف المتولّدة طيلة فترة ساعات سفرهم التي ناهزت اليوميْن إلّا قليلا.

أنينُ القارب المُتواصل على مدار السَّاعة من أحماله الثقيلة الزَّائدة عن طاقته، هَبوب الرِّيح اشتدّ سُعاره، اضطراب غير معقول، عادة في مثل هذه الأيام من السنة. والابتعاد عن المسار المعهود والمطروق من قبل دوريّات خفر السّواحل الأجنبيّة في المياة الدَّوليَّة، وضمن المياه الإقليميّة، مما جعل وقت سفرهم يطول في البحر.

الهاربون .. المُهَرِّبُون، ثنائيٌّ مُتلازم لا فكاك بينهما. سعي دؤوب للمال بتجارة تهريب بَشَر نَشَدُوا الحياة في أماكنها المأمولة. هربوا من بلاد الجوع والحروب. موجة طاغية تعالت إلى حافّة السماء غمرت القارب المُتهادي بين اصطراع أمواج مياه البحر.

صراخٌ.. عويلٌ.. أمهاتٌ.. أطفالٌ. تآكلت أحلامهم المهترئة على حوافّ الشواطئ المُقفرة، رموا خلف أظهُرِهم صُوَر الدّماء، وأنين الجرحى، وقبور المُعذّبين، وبقايا البيوت المُدمّرة، وهدير طائرات، وأزير رصاص.

سيمفونيّة قهر كئيبة أرقصتهم كالدِّيَكة المذبوحة جعلتهم يتمايلون بحركات بهلوانيّة. وقفوا، وأعينهم مُصوّبة إلى الأفق، ساهمة هناك حالمة بغدٍ أجمل على تراب جزيرة (لامبيدوسا) بدت معالمها تتضّح برؤية

جانب منها؛ يظهر أنّه القطّاع السِّياحيّ في الجزيرة، مجموعة عمارات فنادق عالية، وفي الجزء الآخر منها بيوت وحياة عادية، وهي التي لجأ إليها كلّ من وصل الجزيرة، بعد أن فتحت الحكومة الإيطاليّة ممرًّات آمنة لفترة بسيطة للّاجئين، بمساعدة منظّمات كَنَسيّة تعهّدت بمساعدة أعداد من اللّاجئين ضمن إمكانيّاتها المُتاحة، وأقامت لهذا الشأن مخيّمات إيواء لهم على عجَل.

هذه الجزيرة من الجزر الإيطاليّة الجنوبيّة في البحر المتوسّط، تقع إلى جنوب غرب سواحل مالطة، قُبالة سواحل تونس.

فاضل كان محظوظًا عند وصوله إلى (لامبيدوسا)، أنّه ما زال لديه الرّصيد الكافي من النُّقود التي ستوصله إلى الدُّول الأكثر سخاء بما تقدّمه وتصرفه على شؤون اللاجئين، كالسُّويْد والنَّمسا وألمانيا وسويسرا، ما إن استقرّ على أرض الجزيرة لبضع ساعات، واستعاد شيئًا من حيويّته ونشاطه، استغلّ الفُرصة من فوره للاتّصال بصديقته هالة من خلال الكتابة على (الواتس أب)، التي أبدت كلّ ترحيب قبل ركوبه القارب من الأراضي الليبيّة قبل أسبوع من ساعته هذه، وهو الآن يجلس في حديقة الجزيرة العامّة الصغيرة نسبيًّا.

مجد انطلق من حضن والده يركض على العشب الأخضر أمام نظر أبويْه، بينما أمّه تُحضّر سندويشات الجبنة لهم، أبو المجد لم يتوانَ في

الذهاب خارج الحديقة؛ لشراء بعض العصائر المعلّبة لتليين ازدراد اللّقم النّاشفة وتيسير ابتلاعها بسهولة.

كان آخر ظهور لحالة هالة على الواتس قبل خمس ساعات؛ أي الساعة الحادية عشرة صباحًا، وهم الآن في فترة ما بعد الظُّهر قريبًا من العصر السّاعة على شاشة هاتفه النقّال تشير إلى الثّالثة، أمله كبير أن تفتح صفحة (الواتس) لترى رسالته، ساورته بعض الشّكوك لكنّها لم تمنعه من تناول سندويشته من يد زوجته المُرهقة جدًّا، وتتمنَّى لو تُتاح لها فرصة النّوم، أو الاضطجاع قليلًا لإراحة أعضائها، وتشكو من انتفاخ طارئ في قدميْها إلى ما فوق الكاحل بقليل.

أخبرها أنّ ذلك من أثر الجلُوس المستمرِّ لفترات طويلة، واضطراب ضغط الدمّ في الجسم، واختلاطات سيِّئة الأثر على أداء الجسم لوظائفه. كلّ هذه الأعراض ستزول بمجرّد النّوم والاستراحة.

❖❖❖

لم تطل حيرته كثيرًا، ما إن انتهى من بلع آخر لُقمة، وشرب آخر قطرة من علبة العصير الزُّجاجيّة، حتّى اشتغلت إنذارت هاتفه المُخصَّصة (للواتس أب)، سارع بفتحه لتتفرج أساريره بوضوح.

تهلّل وجهه فرحًا وبشرًا. ابتسامة عريضة غيّرت ملامحه من حال إلى حال، يقرأ الرّسالة بصوت تسمعه زوجته، ومال بكتفه ليلاصق كتفها:

-"آسفة صديقي أبو المجد، كنتُ مشغولة جدًا للتحضير لمعرضي الذي سيكون في ساحة (نافونا) في الهواء الطّلق بعد ثلاثة أيّام. أتمنّى وصولك بالسّلامة لتحضر حفل الافتتاح برعاية جمعيّة تشكيليّي روما، ورئيسها هو من سيقوم بقصّ الشريط الأسود؛ إيذانًا بابتداء دُخول الزُّوّار ومعاينة اللّوحات.

من حُسن حظّي أنّك ستصل في الوقت المناسب؛ ليكون لقاؤنا الأوّل كلقاء السّحاب الشّهير، فيما بين قُطبَيْ الفنّ العربيّ أمّ كُلثوم ومحمد عبد الوهّاب، لا يزال وهجه آخِذًا بعقول وقلوب المهتمّين والمُتابعين؛ وهُم يتكلّمون عنه بعدما يُقارب الخمسين عامًا أو أكثر".

ظهر رجل يتمشّى قريبًا منهم في أحد ممرّات الحديقة، وهو يُطالعهم من بعيد ومن قريب، وهو يقترب منهم كأنّه خفير استطلاع، مظهره لا يثير الرِّيبة والشكّ رغم عدم انتباه أبو المجد فاضل إليه.

مضى تقريبًا نصف ساعة على مشواره الاستطلاعيّ الأوّل. عاد هذه المرّة بثقة أكبر من ذي قبل. خبرته الطّويلة في استبطان ما تبثّه الوُجوه ومظاهرها، أيقن أنّ هذه العائلة اللّاجئة ربّما يوّدون الذّهاب لمكان ما. قرّر من فورة عرض خدماته عليهم مُستفسِرًا عن وجهتهم.

تبيّن لاحقًا أنّه سمسار يعمل لحساب أصحاب قوارب لنقل المسافرين من (لامبيدوسا) إلى الأماكن الأخرى. أخبرهم بأنّه من حُسن حظّهم أن هناك قاربًا سيتحرّك إلى روما بعد ساعة من الآن، أكثر من ثمانية عشر ساعة الزمن الذي يستغرقه الوصول إلى روما العاصمة.

حوالي ١٢٠٠ كم المسافة طويلة ومتعبة، تتضاف إلى سفرهم من هناك الذي استغرق حوالي ثلاثة أيّام متواصلة من الشواطئ الليبيّة، ابتداء من وصولهم حصرًا إلى مدينة (زُوارة) قُرب الحدود التُّونسيَّة إلى هذه الجزيرة. وأوّل يوم لهم كان انتظارًا مُمِلًّا لدرجة كبيرة، ومماطلات المُهرّبين بالوعود الكاذبة، وعدم إعطائهم موعدًا دقيقًا نهائيًّا للانطلاق. اتّفاق مباشر لم يطُل الجِدال بينهما على أجور الانتقال. السادسة مساء سيتحرّك القارب لاكتمال العدد المُصرّح لهم بنقله نظاميًّا؛ لتجنّب المخالفات من فِرَق تفتيش خفر السّواحل الإيطاليّة في المياه الإقليميَّة. هنا القانون قانون من يُخالفه، يُعاقب.

أرسل فاضل رسالة إلى هالة عبر (الواتس أب) بموعد إقلاع القارب من (لامبيدوسا)، والوقت المُتوقّع وصوله إلى روما عشرين ساعة تقريبًا قابلة للزيادة إذا كان هناك عائقًا يمنع من وصولهم في الوقت المُحدّد الثانية بعد الظّهر. على الفور جاءه الردّ من هالة سريعًا: "بانتظاركم، حمدًا للّه على سلامتكم".

تنفّس الصّعداء، واسترخت أعصابه المشدودة بارتياح داخليّ لاحظته زوجته التي بادلته نفس الشّعور، وابتسامتها التي غادرتها منذ بدء الرِّحلة المحفوفة بالمخاطر، ترسم ملامح السّرور على وجهها للمرّة الأولى، مطمئنّة أنّ الأمور تسير على ما يُرام بلا صعوبات وعقبات، وقالت:

-"توكّلنا على الله، يا ربّ هوّن علينا سفرنا".

❖❖❖

الأسبوع الماضي وقبل افتتاح معرضها، ذهبت هالة إلى ساحة (نافونا) لتراها بعين الفنّان المختلفة بنظرتها عن أعين الآخرين، لها خصوصيّتها تبحث عن شيء ما؛ لا يعرفه أحد سواها، بخطوات بطيئة وصلت إلى مكان تجمّعات الرّسامين والموسيقيين والاستعراضيين، وقفت طويلًا متأمّلة الأحاديث العابرة بين الأصدقاء وضحكاتهم.

بعد ما يقرب من ثلاث ساعات قضتها هناك، تتوقّف وقتًا ثم تمشي ثم تجلس شاردة الذّهن على الأرض الرُّخاميّة النّظيفة، كراهبة بوذيّة تتبتّل بتأمّل عميق في معبد. خشوع داخليٌّ أضفى عليها مِسَحًا رهبانيّة من (الدّالاي لاما).

نظراتها تتنقّل ببطء شديد لم تترك زاوية إلّا وقد عاينتها. ساحة (نافونا) من أشهر ميادين روما. روعتها الحقيقيّة نابعة من كثرة مُرتاديها من

الّسيّاح والرّسّامين الذين افترشوا أرضها، وهم يشتغلون على لوحاتهم؛ فصارت السّاحة أشبه بمعرض دائم للفنون، كما لا يغيب عنها بعض المستعرضين والعازفين، والنَّوافير الرَّائعة والمباني الجميلة إضافة إلى الأكشاك المنتشرة على جنباتها.

أخيرًا وقفتْ على الطرف الآخر من السّاحة، وأخذت منظرًا عرضيًّا وأتبعته بآخر شاقولي، واختارت أن يكون الوسط هو المكان الذي تنشر فيه لوحاتها قُبالة إحدى النّوافير.

بمساعدة فاضل نقلت لوحاتها العشرين مع الحمّالات الخشبيّة (الستاندات) من بيتها إلى السيّارة المتوقِّفة انتظارًا أسفل الدّار إلى (نافونا)، وقد وَفّر عليها جُهدًا كبيرًا عند نصبها هناك في المكان المخصّص على يمين المدخل، قبل ساعتيْن من موعد الافتتاح الكبير المُنتظَر.

ليس من السّهل هنا في بلد (رفائيل وأنجلو) أن يأتي فنّان من بلد آخر يستطيع بسهولة أن يحصل على موطئ قدم فيها، أو أن يضع بصمة في هذا المجال الذي لا يُنافَس فيه الطّليان. مؤكّد أنّه سيصبح كبائع الماء في حارة السّقائين.

رغم أنّ فاضل نام ليلة بأكملها بعد وصوله إلى روما، إلّا أنّ آثار الإرهاق والتّعب ما زالت بادية على وجهه الذي حرَّقته شمس البحر،

وأحالته للأسمر القاتم؛ فصار قريبًا من شكل الأفارقة الشماليِّين الأقلّ اسمرارًا.

زوجته وولديْه بقيا في بيت هالة الشقّة الأنيقة بترتيبها، وأثاثها الذي يُعتبر فاخرًا فخمًا بالنسبة لأثاثهم هناك في الوطن الذي هجروه سوريّة.

انتقلوا من فوق الأرض المليئة بالخوف والقلق والقتل والدمار، بلاد العيش بالقطّارة، تشوّقًا إلى بلاد فوق الأرض أيضًا مليئةٍ بالوفرة والرّفاه تحترم الإنسان لأنّه إنسان فقط. هذه الفكرة الرّاسخة في الأذهان على الأغلب.

هالة بعد انتهاء معرضها الثّاني هذا ونجاحه الباهر؛ سيضعها على قائمة الفنّانين التَّشكيليِّين المرموقين، واسمها صار عالميًّا بعد شُهرتها عربيًّا إثر مُقابلتيْن لها مع قناة الجزيرة الأولى سابقة، والأخيرة أثناء معرضها الثّاني في ساحة (نافونا).

أمسكتْ على ناصية مُستقبلها الفنّي بيدها؛ لتفتح به أبواب العواصم العالميّة بيُسر وسهولة. تقرّر سفرها إلى بيروت لحضور (سومبزيوم) عالميّ لمجموعة من الفنّانين العرب والأجانب؛ بدعوة من مديرة (الجاليري) اللبنانيّة الفنّانة التشكيليّة التي التقتها سابقًا في روما.

كان من المقرّر أن تستغرق شهرًا كاملًا في سفرتها تلك، وتعود بعدها لمدة أسبوع فتلتقي بابنتها سارّة، التي كان من المُقرّر أن تغادر في اليوم الثاني لافتتاح معرض والدتها في رحلة مدرسيّة لمدّة أسبوعيْن إلى

إسبانيا، وعلى الفور تتوي هالة بعد رجوعها اللّحاق بزوجها السوريّ الأصل في ألمانيا للاستقرار معه هناك، بعد أن أسّس شركة استيراد وتصدير مَوَّاد، وأدوات طبيّة مع شركاء له ألمان.

بسفرها يكون فاضل قد أخذ حريّته مع أسرته في الإقامة ببيتها دون إحراجات، وخلال هذه الفترة سيكون قد تدبّر أمره في السّفر إلى النّمسا بداية، أو إذا ما استطاع الوصول إلى وجهته الأخيرة في الاستقرار في دولة السُّويد، وهي المفضّلة عنده لو خُيّر في ذلك.

كان لقاء فاضل مع هالة هو الأوّل والأخير، بعد وداعهم انقطعت أخبارها كُليّة، واختفى أيّ أثر لها، ولم يعرف عنها أيّ خبر.

بعد يومين على ذلك، الحيرة تتملّك فاضل. خاطر بنفسه بالذهاب لمركز أمنيٍّ في روما للإبلاغ عن اختفاء هالة.

كما أنّه لم يتوانَ بكتابة الرسائل على مجموعات (الفيس بوك والواتس أب) في هذا الخصوص؛ لنشر الخبر على أكبر نطاق مُتاح بين يديْه.

❖❖❖

رنينٌ مُزعجٌ بتوتّر رنينه المُتواصل، أيقظني من سُباتي العميق، ظننتُني كنتُ مع فتية أهل الكهف. تململتُ في فراشي. أحسستُ بثقل جسمي.

مفاصلي مُتخشّبة. حاولتُ تليينها بتحريكها ضمن حدود ضيّقة مُتاحة تحت الغطاء.

مازال النّعاس مُستبدًّا بجفنيَّ تلبّدًا، أفتحُهما ببطء لأرى سقف الغرفة بلونه الأبيض؛ وقد استحال إلى الأسود، ومعه أضواء (استوديو) القناة الفضائيّة. صراحة لم أعُد أتذكّر اسمها. سامحوني...!! (مُحبّكم فطين).

❖❖❖

تمّت الرواية

بعون اللّه وتوفيقه

ملحق -مرآة الرواية العاكسة:

◊ (قدّيس الحريّة) الشّهيد المهندس (معن العودات) شخصيّة حقيقيّة، من قرية (أمّ الميادن) من محافظة درعا، من أوائل الشخصيّات التي قادت ووجّهَت الحَراك الثوريّ السّلميّ، جُرح أثناء إحدى المظاهرات في مدينة درعا، ثمّ أجهز عليه الضابط قائد الاستخبارات العسكريّة في درعا؛ بإطلاق رصاصات غادرة حاقدة من مسدسه؛ لترتقي روحه الطّاهرة إلى خالقها. وفاء لذكراه وشجاعته النّادرة، وحتّى لا يُنسى في زحمة تجاعيد الممارسات اللاأخلاقيّة، وجب تخليد اسمه في سجلّ يحفظ مكانته حيّة في ضمير العالم.

للتواصل مع المؤلف

إيميل(rafy٢bos٤٢@yahoo.com)

واتساب (٠٠٩٦٢٧٩٧٨٥٢٦٩٦)

المؤلف في سطور

- محمد فتحي بن قاسم المقداد.
- تولّد ١٩٦٤ بصرى الشام – محافظة درعا – سوريّة.
- حاصل على شهادة الثانويّة العامّة، الفرع الأدبي ١٩٨٢.
- العمل في مهنة حلّاق رجّالي.

- <u>الأعمال المطبوعة</u>:

- كتاب (شاهد على العتمة) طبع في بغداد، عام ٢٠١٥.
- رواية (دوّامة الأوغاد) طبعت في عمّان ، عام ٢٠١٦.
- كتاب (مقالات ملفّقة – ج١) طبع في عمّان ،عام ٢٠١٧.
- رواية (الطريق إلى الزعتري) طبعت في عمّان، عام ٢٠١٨
- رواية (فوق الأرض) طبعت في عمّان، عام ٢٠١٩